

مجلة تراثية فصلية محكمة

الموراد

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الشؤون الثقافية العامة - جمهورية العراق
المجلد الخامس والعشرون - العدد الثاني - ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م



المورد

مجلة تهئية فصلية محكمة

رئيس التحرير المؤسس الراحل عبد الحميد الطهوي

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الشؤون الثقافية العامة - جمهورية العراق

المجلد الخامس والعشرون - العدد الثاني - ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

□ رئيس التحرير : محمد راضي جعفر

□ مدير التحرير : منقر الجبوري

□ مسكنته التحرير : صادق كامل ديكان

○ الهيئة الاستشارية

○ د. تيمية عبد المنعم داود

○ اسامة ناصر النقشبندی

○ د. هادي هادي السرحان

○ د. عماد عبد السلام رؤوف

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (١٠٠) لسنة ١٩٩٧

معلومات المجلة

دار الشؤون الثقافية العامة - الاعظمية - ص.ب. ٢٢ - بغداد - جمهورية العراق

العدد المزداد لاصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

الكتاب المزداد ونسخه لا تعبر عنه طبعة

□ تصميم وتنفيذ : ميسون حامد نجم

الاسعار

• العراق (١٥٠) ديناراً البلدان العربية (٦) دولارات او ما يعادلها ، الدول الاجنبية (٧) دولارات او ما يعادلها .

إعتباراً من هذا العدد يضاف باب (قراءة في نص قديم) الى أبواب المجلة الثابتة ، ويتناول بالتحليل نصاً قديماً ، شعرياً أو نثرياً ، على وفق لدرس النقدي المعاصر . كما استحدثت المجلة باباً جديداً باسم (من أعلام الفكر والفن) . إعتباراً من العدد القابل يتم فيه دراسة أحد أعلام الفكر والفن دراسة موضوعية جادة تتناول منجزه الابداعي بما يضعه في موقعه من سياق بنائنا الثقافي الشامخ .

وسوف نقدم - على سبيل المثال لا الحصر - في هذا الباب اعلامنا الكبار : الاب انستاس الكرملي ، وأبا الثناء الالوسي ، ومحمود شكري الالوسي ، وجميل صدقي الزهاوي ، وطه باقر ، وجواد علي ، وروفايل بطي ، ومحمد رضا الشبيبي ، وداود الجليبي ، وعلي الوردي ، وابراهيم الوائلي ، وطه الراوي ، وأحمد صالح العلي ، ومصطفى جواد ، وعبد الحميد العلوجي ، وعبد الجليل الطاهر ، وصفاء خلوصي ، ومعروف الرصافي ، وهاشم الخطاط ، وغيرهم ممن وضع لبنة في صرح الفكر والفن . وفي ذلك إعتراف بالفضل الجليل الذي طوقوا به عنق تاريخنا المعاصر ، وإعتباراً للأمانة التي اضطلعوا بها في أخطر ميادين النشاط الانساني من جانب ، بالاضافة الى ما يحمله الباب من مغزى إطلاع الاجيال الجديدة على إبداع السلف في مضمار بناء حضارة الوطن والامة .

وتهيب المجلة بكتابها وقرائها الافاضل بالكتابة اليها في البابين المذكورين خدمة لتراثنا الثقافي وإغناء لمجلتهم .

الولادتان

يحتفل شعبنا في العراق وفي الوطن العربي الكبير بمناسبتين تاريخيتين في شهر نيسان من كل عام تلكما هما ميلاد حزب البعث العربي الاشتراكي في السابع منه ، وميلاد الرفيق القائد المنصور بالله صدام حسين في الثامن والعشرين منه بالاضافة الى تحرير الفاو مدينة الفداء وبوابة النصر العظيم . وليس صدفة ان تتزامن المناسبتان في شهر واحد هو عطاء الحياة ، وربيع الزمن ، فلقد قدر الله جلّت قدرته ان تكون ولادة البعث ايذانا بولادة القائد ، وكانت ثورة السابع عشر - الثلاثين من تموز صلة الوصل بين الحدين المباركين .

ولقد كان المشروع النهضوي القومي الذي استلهمته الثورة من مبادئ الحزب ، وتعهد الرفيق القائد بالتطوير والإنماء والتطبيق حافزا لتعبئة طاقات المجاهدين والمبدعين في مختلف الميادين والحقول ، وتفجيرها على طريق البناء ، والنهوض العلمي الرصين لإقامة النموذج الوطني القادر على الإستقطاب والإشعاع والتوسع باتجاه افقه القومي المنشود .

وقد بلغ من شموخ البناء ، وعظمة الإنجاز ما هدد المصالح الإمبريالية والصهيونية بالزوال ، فكان العدوان الثلاثيني الغاشم ، بصفحتيه العسكرية الآثمة ، وحصاره الظالم ، واللذين واجههما شعبنا الابي ، بقيادة القائد الرمز ، بصبر قلّ مثيله ، ومطاوله عز نظيرها .

ان ذكرى البعث ، وميلاد القائد الرمز حافز لجماهير شعبنا وامتنا على مواصلة التصدي للمشاريع الإستعمارية ، لإنتزاع الحقوق الوطنية والقومية . كما ان ذكرى تحرير الفاو مدينة الفداء وبوابة النصر العظيم كانت وستظل نبراسا يهدي جماهير امتنا على طريق تحرير الاراضي المغتصبة ، وأملاً كبيراً يحدوها نحو تذليل الصعاب ، واسترخاض التضحيات من اجل مجد الامة ، وشرفها ، مستثمرة تاريخها الرسالي الحافل بالبطولات والمآثر .

الف تهنئة لقائدنا الحبيب في ذكرى ميلاده الميمون
والف تهنئة لحزينا العظيم في يوم تاسيسه الخالد

وطوبى للفاو العزيزة بيوم التحرير الاغر .

رئيس التحرير



الرمزية في موضوعات القصيدة العربية قبل الاسلام

د. بهجت عبد الغفور الحديدي

كلية الآداب - جامعة بغداد

المقدمة :

لم يتفق النقاد القدامى ولا المحدثون على قضية كإتفاقهم على جودة الشعر الجاهلي وحسن نظمه وقوة سبكه وجمال صوره ولطافة معانيه وصدقها وقوة مبناه وعمق مدلولاته ، فهو بحق نسيج وحده ، ظل قبلة الشعراء العرب في عصورهم المتقدمة والمتأخرة ، به يأخذون واليه يصيرون ، ومثلهم الذي يحتذون ونموذجهم الامثل الذي به يقتنون ومنه ينهلون .

على ان النقاد المعاصرين قد اختلفوا في النظر الى بنية القصيدة كما اختلفوا حول صياغتها الادائية ودلالاتها الفنية والموضوعية وهم على هذا ثلاثة أصناف : صنف قال : بواقعية الشعر الجاهلي وتشبته بالحقيقة واتصافه بالبساطة والوضوح وصنف قال بعمق القصيدة الجاهلية وقدرتها الايحائية وخصوبة معطياتها الفكرية والفنية والنفسية ، بل ذهب هذا الصنف الى ابعد من ذلك ، فقال برمزية دلالاتها الموضوعية والفنية وعلوها على التعبير ، واعتمادها على التعبير الرمزي الذي يخترق الجدار السطحي ليصل الى اعماق النفس فيثري المعاني المتعددة ويخصب طاقاتها الفنية والجمالية .

ومفريق ثالث وقفه موقفاً وسطاً ، ودعا الى الاعتدال ، قال : بجودة القصيدة الجاهلية ونضجها واكتمالها وعدم بساطتها ، ولكنه رفض الغلو في التفسير الرمزي وانكر الاغراب والتعقيد في معانيها وفي دلالاتها الفنية ، مع رفضه القول : بواقعية الشعر الجاهلي ، وعدم تصويره للطبيعة تصويراً جامداً .

أقول قبل الميل أنذهب الى مذهب من هذه المذاهب الثلاثة إن خلود القصيدة الجاهلية وامتداد تأثيرها الى شعر أربعة عشر قرناً بهذا الوجه أو ذاك يدعونا الى رفض المذهب الذي يقول ببساطة الشعر الجاهلي وواقعيته الحرفية ، فالشعر الخالد ليس نقلاً للواقع ولا مشاكلة له والا ما استحق ان يخلد ، إنه الفن الذي يمسك رؤية متميزة للواقع الذي يكتنفه ، وهو بلا شك يحرص على ان يخلق صورته خلقاً جديداً يعكس هذا الموقف

أو ذاك (١) .

وحين نميل الى القول برمزية موضوعات القصيدة الجاهلية فاننا لا نعني بالرمزية الغموض والاغراب والتعقيد ، كما لا نعني بها تلك الاشارات او الالغاز والطلاسم التي يصعب على المتلقي فك رموزها ومعرفة دلالاتها الموضوعية والفنية والنفسية .

اننا نعني بالرمزية التي نلمحها في الشعر عامة وفي الشعر الجاهلي خاصة ، تلك القدرة التي تمتلكها القصيدة على اثارة تصورات ذهنية دلالية ، فضلاً عن قابليتها على اثارة المعاني المتعددة في نفس المتلقي الجاهلي ليس بالضرورة هو المعنى نفسه الذي تثيره في نفس المتلقي العباسي او المعاصر ... ان بين ايدينا مئات من الأدلة التي تقود الى القناعة التامة باعتماد الشعر الجاهلي على الأسلوب التصويري والاقتصاد في استخدام اللغة الفاظاً واساليب ، مما يشجعنا على القول بغلبة التعبير الرمزي على التعبير المباشر ، وعلو الشعر الجاهلي على الواقع الحقيقي وبنائه بناءً لغوياً مجازياً حافلاً بالرموز والمعاني التي تكشف عن التوترات المختلفة التي كانت تحكم العالم الشعري وما يتصل به من المواقف آنذاك ، وهل الشعر إلا نسيج من الكلمات وصورها ورموزها وإيحاءاتها (٢) .

أقول : إن رمزية الشعر العربي عامة والشعر الجاهلي خاصة هي غير الرمزية التي تعارف الغوييون عليها ، فالرمز في القصيدة الجاهلية لمحة ادائية او مضمونية يحتويها اطار إدائي يمتلك قاسمه المشترك بين الشاعر والمتلقي بينما يجنح الرمز الحديث الى بناء الاداء كله على الرمز الذي يفقد جسره المشترك بين الشاعر والمتلقي .

وعلى هذا فالرمزية التي نراها في الشعر الجاهلي ، هي التي تجسد الهواجس والنوازع النفسية وتعرضها كما تتولد في نفس الشاعر بصور طبيعية من ترتيب المنطق دونما تعقيد او اغراب . يقول الدكتور علي الجندي : « واما الرمزية بالمفهوم العربي فقد نبعت اول ما نبعت من الادب الجاهلي واستعارت الوانها من طبيعة العقلية العربية الاصلية ، ومن مظاهر الحياة

الجاهلية الخالصة ، ونحن نعلم ان الرمزية العربية تعتمد على هذين الركنتين : الایجاز وغير المباشرة »

إن رمزية الشعر الجاهلي - أذن - رمزية من نوع خاص تختلف عن الرمزية الغربية ، التي تقوص فيما وراء الحس وتحاول التعبير عما لا يمكن التعبير عنه تحت ستار من الاداء الغامض الذي يتيح فرص الشطط في التعامل والفهم والتفسير . اننا لا ننكر ولا يستطيع غيرنا ان ينكر رمزية الشعر الجاهلي ، ذلك ان اللغة العربية في حقيقتها مجازية وان الشعر الجاهلي زاخر بالاستعارات والكنایات والتشبيهات واللوان البديع الاخرى .

ان هذا الاسلوب الادائي العربي الفني الزاخر بالمجازية هو الذي اعطى الشاعر الجاهلي القدرة على نقل هواجسه واحاسيسه وحالاته النفسية والتوترات الحادة التي يعاني منها امام الحياة والموت والرحيل والاستقرار عبر كيانات موضوعية التقطها من واقعه اذ وجدها اكثر استشرافاً واكثر استيعاباً لمعاناته ، فاسقط عليها ما في نفسه ومنحها بعداً رمزياً لتصبح اكثر تأثيراً او اكثر احياء واكثر جمالية وفناً . وليس الرمز في القصيدة الجاهلية محصوراً في المجرى الادائي التفصيلي ، بل هو ممتد الى مقاطع كاملة حتى اننا نستطيع القول ، برمزية الطلل والمرأة والناقة وثور الوحش والفرس وما الى ذلك من موضوعات وظفها الشاعر الجاهلي توظيفاً رمزياً للتعبير عما كان يجول في خاطره وما يشغله من قضايا كانت تواجهه وقد يعجز عن حلها .

ونحن نذهب هذا المذهب في تفسير موضوعات القصيدة الجاهلية لإيماننا بان الشاعر الجاهلي لم يقصد نوات الأشياء التي كان يتحدث عنها ويصفها وانما كان يريد ما يخفى وراءها من معاني وروى وأفكار .

وسنحاول من خلال استعراضنا لتلك الموضوعات التي تؤلف جسد القصيدة ، الكشف عن معانيها ودلالاتها وایحاءاتها التي تقودنا الى القناعة التامة برمزياتها ، ذلك من خلال اضاءتها للتجربة او الوحدة الفكرية والفنية في النص ، على إننا لا نستطيع تعميم الظاهرة كما اننا لا ننكر المدلولات الواقعية والموضوعية الخالصة لتلك الموضوعات في كثير من النماذج .

رمزية الطلل

أما الاطلال ! فهي حجارة صماء ونؤي وأثافي سفح وأوتاد لا تعني شيئاً بذاتها ولكنها تعني كل شيء بالنسبة للشاعر الجاهلي ، تقني وجوده وتعني ذاته وتعني ماضيه وملاعب صباه وتعني وطنه .^(٢)

ان اللحظة الطللية هي النقطة التي تلتقي فيها ثلاث من

علائق الانسان ؛ علاقة الانسان بالمجتمع في لحظاته السكونية وعلاقة الانسان بالمجتمع في لحظته التاريخية (بالماضي) وعلاقة الانسان بالطبيعة التي تشترط وجوده كله .^(١)

ان وقوف الشاعر الجاهلي على الاطلال لم يكن محض تعلق بتلك النؤي والأتاد والأثافي قدر ما هو تعبير عن توترات كانت تقوم في نفسه بين الماضي والحاضر بين التألف الجمعي والتفريق بين الاستقرار او الرحيل بين المكان واللامكان بين الوجود الانساني واللاوجود .^(٥)

وعلى هذا فالاطلال ليست وحدة اعتباطية ، وهي ليست محض تقليد فني فرضته التقاليد التراثية ، فهي وان كانت - قبل امرئ القيس - استجابة موضوعية لمعاناة بيئية خاضها الشعراء وافردوا لها قصائد ذات موضوع واحد لم يصل اليها اكثرها ، الا أنها اصبحت - فيما بعد - صيغة مفرغة من مدلولها الموضوعي على الرغم من قدرتها على استقبال الزخم النفسي الذي تتطلبه التجربة الانية التي ... ضمنها المحور الموضوعي من القصيدة نفسها .^(٦)

انها اكثر من رمز شعري ، انها الرموز المتجددة في ذهن الشاعر والتي تعبر عن ارتباطات شتى ومكونات عديدة وتصورات مختلفة ذهنية وعقلية ونفسية واجتماعية ترتد جميعها الى عالم الذكريات ، وهي باختصار رمز اضر كل ما تنطوي عليه الأغراض وتتجه اليه المقاصد .^(٧)

اما نقادنا القدامى فلم ينظروا الى الاطلال هذه النظرة ، ولم يقدموا لنا تعليلاً كافياً ومقنعاً عن مدلول الاطلال في مقدمة القصيدة الجاهلية سوى ذلك التفسير الموضوعي المفرغ من محتواه ودلالته النفسية والفنية .

ونحن هنا لا نريد استعراض آراء النقاد القدامى والمحدثين ، فهم مجمعون على أن الاطلال صيغة من صيغ التعبير التي اعتمدها الشعراء الجاهليون ليعبروا دن خلالها عما تكنه نفوسهم وتجيش به عواطفهم ومشاعرهم ازاء الاحداث التي كانت تواجههم ، وهي لم تكن باي حال من الاحوال مقصودة لذاتها ، سيما في المرحلة المتأخرة او في الاقل عند الشعراء الفحول الذين اكتملت عندهم القصيدة ونضجت .

إن الذي يبعث الشاعر الجاهلي على القول هو المحور المركزي للقصيدة الذي اصطلحنا على تسميته بالفرض الرئيس او التجربة الموضوعية ، على ان الشاعر الجاهلي قد يقع تحت سطوة التقليد الشعري الذي تقتضيه ان يفتتح قصيدته بموضوعات لا تنتمي في ظاهرها الى غرض القصيدة كالطلل والظمن ... فهو في هذا النمط من القصيدة المتعددة الموضوعات ينطلق الى الموضوعات التقليدية من مناخ التجربة الرئيسية (الغرض) لانه لا يستطيع ان ينتزع نفسه من أجوائها وهو يتحدث عن الطلل او الحبيبة الراحلة او الناقة ... ولكن ذلك

لا يعني ان الامر اقتصر على هذا وانما نشأت حالة فنية جديدة ، وهي ان الفحول من الشعراء عمدوا الى هذه المقاطع التقليدية فشكّلوا تفاصيلها تشكيلاً يهيء منها منافذ ينسحب المتلقي من خلالها الى الموضوع الشعري الذي سيواجهه في القصيدة ، وهنا تكمن دلالتها (الاطلاق) الرمزية حيث تكون العلاقة بين الطلل وموضوع القصيدة علاقة الدال بالمدلول . يقول الدكتور محمود الجادر (لقد آن لنا ان نتحرر من اطة النظرية الموضوعية ونمط فهمها للرسم التقليدية فليس المعقول ان يكون كل شاعر صاحب طلل لا يمل من الوقوف وبكائه في كل قصيدة من قصائده أو أكثرها)^(٨)

ان استقراءنا لعشرات القصائد المكتملة التي يفتتحها اصحابها بالطلل يقرر حقيقة كونه منفذاً رمزياً مهيئاً لتوفير المناخ النفسي الملائم للتجربة الشعرية من خلال انفتاح تفاصيله على المحور الموضوعي (الفرق الرئيس) ، وذلك من خلال رموزه من وشم واثافي ورماد ونؤي ومطر ونبات . وانطلاقاً من هذا الفهم للوحدة الطللية نستطيع القول ان الاطلاق وغيرها من الكيانات الموضوعية التي يبتثها الشاعر في افتتاحياته اشبه بالارضية الخام التي لا تشكل باعث تأثير بذاتها قدراً ما تستمد قوتها التأثيرية من مدلولاتها الرمزية التي تهيء للغرض الرئيس وترتبط معه .

ومن اكثر النماذج وضوحاً وتأكيداً لما ذهبنا اليه طللية امرئ القيس في معلقته المشهورة حيث لم يكن بكأؤه على طلل حبيبة راحلة وانما كان بكاء على طلل مملكة كندة المنهارة وذكرى الحبيب انما هي ذكرى ملك ابيه وعزته وسيادته ، وهو الحبيب المستقر في وجدانه ، انه لم يبك منزلاً واحداً وانما بكى منازل كثيرة . انه يبكي على مملكته ويدعو قبيلتي كندة وحمير لتبكي معه كي يكون الدمع حافز الثار وذلك ما تحقق على الصعيد التاريخي^(٩) .

إن هذا التفسير - كما نرى - لم يكن بعيداً عن الصواب ولم يكن ضرباً من الخيال ، فامرؤ القيس أنشأ معلقته بعد مقتل أبيه وتفرق كندة وذهاب سلطانها ، فهو يتذكر اباً واهلاً مزقتهم سيوف الأعداء كما يتذكر منازل كانت وملكاً ونعيماً ، فلم يجد أفضل من الطلل منفذاً رمزياً يطل من خلاله على ماضيه وأمه وجسراً يعبر عليه ليصل الى موضوعه الرئيس الذي يدور حول قضية مأساته وهمومه ومحاولته الاخذ بالثار واعادة مجد كندة .

واما طلل زهير بن أبي سلمى ، فيبدو اكثر التصاقاً بالتجربة الموضوعية ، فالحرب التي دامت اربعين عاماً هي التي أحدثت هذا التغيير الذي طرأ على الديار ، فالدمن لم تتكلم والاثافي سود ، ووجه الأرض مغبر يخيم عليها سكون كان ذلك نتيجة للحرب وما تلحقه من دمار يأتي على الحرث والنسل ...

يقف زهير على تلك الديار وهو الخبير بها فلم يكذب يتبين معالم وجهها إلا بعد لاي ، ولما عرفها حياها تحية السلام وماذا بعد السلام غير انبعاث الحياة من جديد . بها العين والارام يمشين خلفاً واطلاؤها ينهضن من كل مجثم

صور رائعة لانبعاث الحياة وتجدها ، صورة حركة الحياة وديمومتها ، يقيم زهير - من خلال الوحدة الطللية - علاقة تضاد بين سكون الحياة وخرابها وبين انبعاث الحياة وتجدها ، وهو بهذا يرمز الى الحرب والسلام ، الى حياة القبائل في ظل الحرب وحالتها في أفياء السلام ، يقيم هذه الموازنة لينفذ من خلالها الى معالجة المحور الموضوعي الرئيس الذي قامت عليه القصيدة كلها .

يقول الدكتور محمود الجادر : لقد ذهب زهير مذهباً مختلفاً تماماً في تشكيل تفاصيل لوحته فما هي ام أوفى ترحل ، وما هي ديارها تحتضن رموز الحياة الثرة فتنبعث بها العين والارام مطمئنة ، واطلاؤها ينهضن من المجاثم ليرمز الى تجدد الحياة وانبعاثها في أفياء السلام التي حققها جهد السيدين العظمين^(١٠) .

ونرحل بجهدنا الى لبيد بن ربيعة والى معلقته التي اعجب بها النقاد قدامى ومحدثون ، اعجبوا بها من حيث بناؤها وترابط اجزائها ووحدتها الفنية او المعنوية كما يسميها الدكتور طه حسين ، فانك تحس منذ مطلعها الطللي ان الشاعر يريد ان يعبر عن هذا الصراع الحاد بين الذات والمجموع بين الفردية والانتماء القبلي ، بين الماضي والحاضر ، فأثار الخطوب وأحداث الجو تأتي على البلاد فتغيرها :

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تابذ غولها فرجامها
فمدافع الريان عري رسمها خلقا كما ضمن الوحي سلامها
يمن تجرم بعد عهد اتيسها حجج خلون حلالها وحرامها

ولكن هذه الاحداث وتلك الخطوب قد تغير الوجه الخارجي للأرض بيد أنها لا تقتلع الجذور ولن تأتي على الاصول ، فسرعان ما تعود الحياة فتحضن العين اطلاقاً وتجلو السيول وجه الطلول فتصبح وكأنها زبر تجدد متونها أقلامها .

والعين ساكنة على اطلالها عوداً تاجل بالفضاء بهامها
وجلا السيول عن الطلول كأنها زبر تجد متونها أقلامها

ويبقى السؤال قائماً عن مدى علاقة الوحدة الطللية بالموضوع الرئيس الذي تدور حوله القصيدة كلها ، والجواب سهل ، فابو عقيل يريد أن يحدثنا عن انتمائه القبلي من غير أن ينسى ذاته ، فهو الشجاع وهو الذائد عن حمى العشيرة وعشيرته هي القوة المتماسكة التي لا تخضع ولا تلين امام

ضربات الاعداء وامام الاحداث والخطوب ، فها هي تظل شامخة تتحدى الاحداث وتتحدى الاعداء . وكذلك حال طللها تتحداه عوامل الفناء البيئية ويكر عليه الزمان ولكن العوامل كلها لا تستطيع أن تطمس معالمه او تمحوه ، فيظل شامخاً يحمل في طياته رموز الخلود .

فطلل لبيد أذن هو رمز لعشيرته ، رمز لماضيها وحاضرها ، رمز تألفها ووحدتها ومواقفها اما الاعداء حيث يقول في البيت الأخير :

وهم العشيرة إن ينطى حاسد
أو أن يلوم مع العدى لوامها^(١٣)
وثمة نموذج آخر لعبيد بن الابرص ، حيث يبدو انشداده اللوحة الطللية الى الغرض الرئيس اكثر وضوحاً ، فعبيد يحدثنا عن انتمائته القبلي وتعلقه بقومه من بني اسد بعد ان تشتتوا لما واجهوا تقمة كندة وحمير ، فيعتمد الى الطلل ليضم فيه كل ما تنطوي عليه تجربته الموضوعية ، فالديار بعد أن كانت عامرة بقومه وهم فيها جمع اصبحت بسابس قفراء خالية الا من الوحوش ، فالمنزل عاف والاطلال رسوم توشك على الاندثار والفناء يقول :^(١٤)

أمن منزل عاف ومن رسم اطلال بكيت وهل يبكي من الشوق أمثالي
ديارهم اذ هم جميع فاصبحت بسابس الا الوحش في البلد الخالي

فمنزل عبيد - اذن - عاف ولم يبق من الاطلال الا رسومها كما لم يبق من قومه الا اثارهم .

اليس من حقنا بعد ذلك ان نمنح الطلل فرصة تهيئة الاجواء الرئيسة لموضوع اية قصيدة قبل ان يتجاوز لوحة افتتاحها الطللي إنه بلا شك - عندنا - أن وظيفة الطلل هذه وظيفة ادائية رمزية أفرغت اللوحة الطللية من مدلولها الموضوعي وذلك ما يطرد في عشرات القصائد المكتملة التي افتتحت بالطلل .

المدلول الرمزي للمرأة

اختلفت وجهات النظر الى المرأة في القصيدة الجاهلية ، فمنهم من نظر اليها نظرة موضوعية ، فتحدث عنها باعتبارها أما أو اختاً أو زوجة ، وعد الاسماء التي تأتي في افتتاحيات القصائد او اثنائها اسماء لنساء حقيقيات زوجات او معشوقات وقالوا انها اسماء بأعيانها ، ومنهم من قال بانها اسماء وهمية وهي رموز ، وليست حقيقية ، عمد اليها الشعراء ليعبروا من خلالها عما في نفوسهم من احداث وقضايا . يقول الدكتور محمود الجادر « ولكننا قد نستطيع ان نميز منهجين رئيسين في النظر ، يتمثل اولهما في محاولة رصد الظاهرة ومنحها مدلولاتها الواقعية والموضوعية الخالصة ، ويتمثل الثاني في الجنوح الى تشخيص مدلولات رمزية

او ميثولوجية في تعامل الشاعر الجاهلي مع صورة المرأة في مراحل تنامي الحدث الفني المختلفة »^(١٥)

ونحن هنا لا نريد ان ننفي هذا ولا ذاك ولا نريد ان ننكر ما قد توحى به وظيفة صورة المرأة في مقدمة القصيدة الجاهلية من اثر الارث الحضاري او الاجتماعي او اثر الواقع الذي كانت المرأة تحتل فيه مكانتها المعروفة ، لا نريد ان ننكر ذلك كله ، ولكننا نحاول ان نقرر ان حضورها الدائم في المستلزمات التقليدية للنموذج الشعري قد لا يتجاوز المنفذ الرمزي الذي حدده النمط المتداول ولا يهمننا بعد ذلك ان تكون المرأة حقيقة امر رمزاً ، على ان هذا الفهم لا يمنع من القول بأن بعض الحالات قد تنبثق من معاناة حقيقية .

فمن بعيد قال ابن قتيبة بان مقصد القصيد إنما أتى بالنسيب في مقدمة القصيدة لان النسيب قريب من النفوس لاثما بالقلوب يأتي به ليميل نحوه القلوب ويصرف اليه الوجوه وليستدعي به اصفاء الاسماع...^(١٦)

وتابعه ابن رشيق وزاد عليه بأن قال بأن اكثر تلك الاسماء ليست حقيقية « وللشعراء اسماء تخف على السنتهم وتحلو في افواههم فهم كثيراً ما يأتون بها زوراً نحو .. ليلي ، وهذا وسلمى ... وربما أتى الشعراء بالاسماء الكثيرة في القصيدة اقامة للوزن وتحلية للنسيب »^(١٧)

وهم يرون ان عمر بن الخطاب استدعى احد الشعراء لتغزله بليلى في احدى قصائده فيؤتي بالشاعر ويكاد يقيم عليه الحد ، ولكن الشاعر يقسم للخليفة بأن « ليلي » هذه التي يتغزل بها ؛ انما هي قوسه ، فيطلق سراحه ويعفو عنه .^(١٨) ويذهب الدكتور البهيتي الى ان الافتتاحية الغزلية صورة رمزية ويقول « وهذا الوجه من وجوه التعبير الرمزي في الشعر الجاهلي لم يقف عند القصة ولكنها تعداها الى ذلك الغزل الذي يقدم به الشاعر لقصيدته ، فهو كذلك لا يقصد به الشاعر الى موضوعه وانما يقصد به الى غير ذلك مما يهم الشاعر امره وياخذ عليه نفسه ، ومن هنا ياخذ ذلك الاستفتاح الغزلي للقصيدة الجو الذي يعيش فيه الشاعر والذي يملئ عليه شعره ، فالمرأة في ذلك رمز واسماء النساء تقليدية تجري في الشعر عند الشعراء دون وقوع على صاحباتها »^(١٩)

ونحن بعد ذلك نقول إن النسيب الذي في افتتاحية القصيدة لا يبدو أن يكون منفذاً يهيء الشاعرية الأرضية النفسية التي تنفتح على آفاق القول ليصل الى معالجة الموضوع الرئيس من مدح او تم او رثاء او فخر ... وعلى هذا يكون النسيب ممزجاً بما بعده ، متصلاً غير منفصل عنه ، يمهّد الى الغرض ويقود اليه .

وربما غالى الدكتور البهيتي اذ عدّ قصص الحب والغرام التي نجدها في أخبار العصر الجاهلي من باب الرمز ، مثل قصة البراق وقصة المرقش الاكبر وقصص غرام أمريء القيس ولهوه

قول عمرو ابن بن قميئة في شعره مع امرئ القيس في رحلته الى
قيصر الروم حيث يقول :

قد سالتني بنت عمرو عن الـ أرضين اذ ننكر اعلامها
لما رأيت ساتيد ما استعبرت لله در اليوم من لامها
تذكرت ارضاً بها اهلها اخوالها فيها واعمامها

قال سبب بكائها انها لما فارقت بلاد قومها ووقعت بلاد
الروم ندمت على ذلك وانما عمرو بن قميئة بهذه الابيات نفسه
لا أبدته فكنى عن نفسه^(٢٠) ويؤكد ذلك قول امرئ القيس :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن اننا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك انما نحاول ملكاً او نموت فنعزرا

ومن النماذج الرمزية ، قصيدة المنقب العبدى التي تتصل
فيها لوحة النسب بالغرض الرئيس اتصالاً وثيقاً ، مما يرسخ
لدينا القناعة انه انما أتى بالنسب في مقدمة قصيدته ليمهد
لفرضه الرئيس ويقود اليه ، لذا نراه يعمد الى تطويع تفاصيل
لوحة المرأة لاستيعاب آثار المعاناة الموضوعية من خلال اسلوبه
التصويري الذي يعلو على التعبير المباشر ليدخل في باب
الرمزية .

فالقصيدة يخاطب فيها الشاعر عمرو بن هند وقد أعرض
عنه فيخبره بين العودة عن مسلكه والمحافظة على الصلة والود
او الايذان بالقطيعة ، فيبدأ قصيدته بقوله :

أفاطم قبل بينك متعيني ومنعك ما سالت كان تبيني
فلا تمدي مواعد كاذبات تمر بها رياح الصيف دوني
فاني لو تخالفني شمالي خلافاً ما وصلت بها يميني
اذن لقطعته ولقلت بيني كذلك اجتوي من يجتويني

تقرأ هذه المقدمة فتحس لأول وهلة بأن الشاعر يعبر عن
معاناة حب ويشكو غراماً وصباية ، وربما هجراً ولكنك حين
تنتهي الى المحور الموضوعي المتمثل بقوله :

الى عمرو ومن عمرو اتنتني اخي النجدات والحلم الرصين
فاما أن تكون اخي بحق فاعرف منك غثي من سميني
والا فاطرحني واتخذني عدواً فتتقيك وتتقيني

حين تقرأ هذه الابيات لا تشك في أن فاطمة هي رمز لعمرو
بن هند وذلك من خلال المفردات التي اودعها الشاعر لوحة
النسب التي أضمر فيها كل ما ينطوي عليه غرض القصيدة
الرئيس الذي يتمحور حول الوفاء^(٢١)

وقصة غرام عنتره ، وهذه - على ما يرى - كلها لا يقصد بها الى
التصوير الغرامي واحداث وقعت لهؤلاء وانما هي لون من الوان
التصوير الرمزي لوقائع تاريخية تتصل بحياة كل منهم وتبين
مواقفهم من تاريخ امتهم وتتعلق بمطامع لهم كانوا يجرون وراء
تحقيقها فخابوا فيها وأصابوا^(٢٢)

ونحن لا نوافق الدكتور البهيتي ، مع اننا نعترف بان تلك
القصص الغرامية هي من صنع الخيال وقد لا ترتبط بالواقع
ولكن ليس بالضرورة ان تكون تعبيراً رمزياً لوقائع تاريخية تتصل
بحياتهم او تتعلق بمطامع لهم كانوا يجرون وراء تحقيقها ، وإن
كانت كذلك ، فلا يمكن تعميم الظاهرة وسحبها على جميع
قصص الحب والغرام ، فهي - في الغالب - تعبير عن عواطف
انسانية سواء اكانت حقيقية أم خيالية .

في حين يرى الدكتور ابراهيم عبد الرحمن ان كثيراً من
القصائد الجاهلية التي يرد فيها ذكر المرأة يحاول الشعراء ان
يخلقوا منها امرأة « مثلاً » وبيضيفون اليها القداسة وكان
الشاعر حين يتحدث لا يتحدث عن امرأة مثل غيرها من النساء
ولكنه يتحدث عن معبودة ، فيرمزون للشمس بالمرأة تلك الإلهة
التي كان يتعبد لها اكثر الجاهليين كما كانوا يرمزون للشمس
بالغزالة والمهابة حيث يرد في الديانة السومرية في العراق على
نحو ما تقص (ملحمة كلكامش) وصف عشتروت الالهة
الخصب والحب والجمال^(٢٣) .

وي يدعم الدكتور ابراهيم رأيه هذا بنماذج نذكر منها على
سبيل المثال قول قيس بن الخطيم :

لعمرة اذ قبه معجب فأنى بعمرة أنى بها
ليال لنا ودها منصب اذ الشول لطت بأذناها
كان القرنفل والزنجبيل وزاكي العبير بجلابها
نمتها اليهود الى قبة دوين السماء بمحارباها

فالشاعر في هذه القصيدة لا يكتفي بالربط بين مقامها
وبين خصب الديار أو بين رحيلها وما أصابها من المحل
والجفاف ، بل يمنحها هذه القداسة او تلك القوة الإلهية التي
يضيفها عليها بقوله :

نمتها اليهود الى قبة دوين السماء بمحارباها
وعلى هذا النحو نجد امرئ القيس يخلق من حبيبته
المرأة المثال ويضيف عليها القداسة ، فيقول :

تضي الظلام في العشاء كأنها منارة ممسي راهب مبتل
الى مثلها يرنو الحليم صباية إذا ما اسبكرت بين درج ومجول

وثمة نماذج أخرى كثيرة كفيلة بأن تقرر رمزية المرأة في
اغلب موضوعات القصيدة الجاهلية ، فمن الرمزية الموضوعية ،

وعلى هذا النحو من الرمزية الموضوعية قصيدة المرقش الاصغر التي قالها في الوفاء وللوفاء ايضاً فهم يروون ان صديقاً له اسمه (عمرو بن جناب) قد سولت له نفسه الاتصال بحبيبة صديقه فاطم ولكنه ندم على فعلته وبلغ من وفائه ان قطع اصبعه خشية لوم المرقش له .
من اجل هذا نرى الشاعر يفتتح قصيدته بالدعاء لفاطم ، ذلك الدعاء الذي ينم عن الوفاء وتجديد العهد ويكشف عن عمق الصلة بينهما ، فيقول :

ألا يا اسلمي لا ضرم لي اليوم فاطما ولا ابدا ما دام وصلك دائماً
رمتك ابنة البكري عن فرع ضالة وهن بنا خوص يخلن ناعماً

ومن خلال هذه المقدمة التي اودع فيها كل تفاصيل التجربة الموضوعية ينفذ الى غرضه الرئيس حيث يقول :

وإلى جناب حلفة فاطمته فنفسك واللوم ان كنت لانما
كان عليه تاج المحرق بأن ضر مولاه واصبح سالماً
فمن يلق خيراً يحمد الناس امره ومن يغو لا يعدم على الغي لانما
الم تر أن المرء يجنم كفه ويجشم من لوم الصديق المجاشما
أمن حلم أصبحت تنكث واجما وقد تعترى الاحلام من كان نائماً

ولاشك ان الصلة بين النسب الذي في الافتتاحية وبين الموضوع الرئيس متينة وأن الشاعر استطاع ان يربط بينهما ربطاً محكماً ، كان ذلك من خلال الاداء الرمزي والدلالة المعنوية ونمو المعاني بعضها من بعض (٢٢) ومن ذلك ايضاً « أسماء » التي في افتتاحية معلقة الحارث بن حلزة اليشكري التي يقول فيها :
أذنتنا بينها اسماء ربنا وامل منه الثواء
ومنها :

ويعينيك أوقدت هند النار أصيلاً تلوى بها العلياء
يقول الدكتور البهبهتي : « فظاهر الشعر ان الحارث ينسب بأسماء وبهند وحقيقة الأمر ليست كذلك وانما « أسماء » هذه شخصية خيالية تذكر ايضاً في قصة حب المرقش الأكبر الذي خرج على ملوك المناذرة وثار على قومه من بكر ممن أخذ صف أولئك الملوك ، وهند لقب جرى على بنات ملوك المناذرة وهذه النار التي يتحدث عنها الشاعر هي نار اوقدت في وقعة خزازي (٢٣)

والراجح ايضاً ان هريرة في لوحة نسيب الأعشى هي رمز وليست حقيقة وقد قيل : ان الأعشى سئل عن هريرة ، فقال : لا أعرفها ولكنه اسم القي لسانني من حيث لا أدري (٢٤) وعلى هذا فكل الأوصاف التي وصف بها هريرة والتي اودعها لوحة الافتتاح لا تدخل في بيت النسيب الخالص وإنما

هو لون من ألوان التعبير الرمزي الذي اقل ما يقال فيه أنه تعبير عن التجربة الموضوعية التي تتأرجح بين الذات والمجموع . ومن الأمثلة الأخرى على رمزية المرأة في لوحة الافتتاح قصيدة أوس ابن حجر التي يفتتحها بذكرى ام عمر ، فيقول :
صحا قلبه عن سكره فتاملاً وكان بذكرى ام عمر موكلاتاً
ونحن لو وقفنا على محور القصيدة الموضوعي لاستطعنا ان نكتشف الدلالة الرمزية لأم عمر ومدى نجاح الشاعر في توظيفها لخدمة غرضه الرئيس الذي يدور حول الصراع بين الذات وبين أبناء عمومته الذين ظلموه فهو امام اختيارين لا ثالث لهما . اما قبول ظلم أبناء العم واما الاعتماد على الذات في التحول عن مواقف الذل ويبدو انه اختار التهديد بالطريق الثانية (٢٥)

وهكذا كان على ام عمرو ان تغدو رمزاً لأبناء العم الذين ظلموه وتخلوا عنه ، فلم لا يصحو قلبه عنها ولم لا يهجرها كما هجرته ، وهذا ما تكشفه الابيات الأخيرة التي يقول فيها :

الا اعتب ابن العم ان كان ظالماً واغفر عنه الجهل ان كان اجهلاً
وإن قال لي ماذا ترى يستشيرني يجديني ابن عم مخطئ الامر مزيلة
اقيم بدار الحزم ما دام حزمها واحرى اذا حالت بان أتحولاً
واستبدل الأمر القوي بغيره اذا عقد مافون الرجال تحللاً

وعلى هذا النحو تكون حبيبة المتلمس رمزاً أو معادلاً موضوعياً للعراق البلد الذي أحبه فكان هواه ، ولكن الأعداء من المناذرة قد حالوا بينهما ، فلم يبق امامه إلا هذا الحنين وهذا الشوق (٢٦) حيث يقول :

إن الحبيبة حبها لم ينفد واليأس يسلي لو سلوت أخادد
قد طال ما احببتها ووددتها لو كان يغني عنك طول تودد

ومن هي ؟ انها العراق :

ان العراق وأهله كانوا الهوى فاذا نأى بي حبه فليبعد
أما صورة اللانمة في شعر الفرسان والأجواد ، فهي لا شك منفذ رمزي وليست حقيقة بأي حال من الأحوال ، وهي لا تعدو ان تكون صيغة من صيغ التعبير غير المباشر عن قيم البطولة والكرم التي آمن بها الإنسان العربي وأراد لها الانتشار والخلود ولهذا عمد الشعراء الفرسان والأجواد الى صورة اللانمة ليمروا من خلالها كل الأفكار التي من شأنها أن تقنع المقابل بضرورة تلك القيم وبضرورة الالتزام بها .

واللانمة - عادة - تمثل الصوت النقيض ، وربما ينبع من نفس الشاعر فهو لا يجد سبيلاً للبوخ عما في نفسه فيعمد الى اسقاطها على رمز العازلة ويحاول الرد عليها من موقع القيم العربية الموروثة ، ونسمع حاتم الطائي يحاور لانمته ويرد

عليها ، فيقول : (٢٧)

مهلاً نوار أقلي اللوم والعذلا ولا تقولي لشيء فأت ما فعلا
ولا تقولي لمال كنت مهلكه مهلاً وإن كنت اعطي الجن والخبلا
يرى البخيل سبيل المال واحدة أن الجواد يرى في ماله سبلا
لا تعذليني على مال وصلت به رحماً وخير سبيل المال ما وصلا
وهذا عنقرة يقول : (٢٨)

لتسائلن أسماء وهي حفية نصحاءها أطردت أم لم أطرد
يا اسم أخت بني فزارة انني غار وان المرء غير مخلد
وانا ابن حرب لا زال اشبهها سرع واوقدها اذا لم توقد
وببقى التراث الشعري معيناً تقرر نماذجه الكثيرة أن
صورة المرأة « اللائمة » في لوحة المحاوره تبقى رمزاً يحقق
حضوره الفني الصرف ليفتح المنفذ المقبول للفخر الشخصي
بوجه رئيس (٢٩)

المدلول الرمزي للناقة

الناقة رمز للقوة ، والصبر والاناة أو كما يقول الدكتور
مصطفى ناصف : إنها رمز معقد على الانسان الفاني والدهر
الباقى معاً ، كما إنها في الوقت نفسه رمز على الانسان القوي
الذي يتعرض لنوازل الغيب (٣٠)

ومن الناحية الفنية ، هي جسر الشاعر الذي يعبر من
خلاله الى الضفة الجدية في الحياة ليشرح معاناته ويحقق
أغراضه ، فهو حينما يشبهها بثور الوحش وهو يخوض معركة
مع كلاب الصيد ينتصر فيها الثور إنما يعبر عن ذاته وعن سترك
صراعه الدائر مع الحياة .

ولعلك تتفق معي بأن حديث الشاعر الجاهلي عن تلك
الحيوانات بما فيها الناقة وثور الوحش وحمار الوحش واتنه
وكلاب الصيد والقطة ... وما يدور بينها من صراعات يلتقطها
الشاعر من واقعه ومشاهداته ليعبر عن مضامين نفسية وقضايا
موضوعية وأحداث تواجهه يحاول أن يخلق منها صوراً فنية
جديدة بالتأمل والكشف عما وراءها من دلالات فنية ونفسية
وموضوعية .

ومن الرمزية الموضوعية ناقة كعب بن زهير التي لا نراها
إلا رمزاً للمرأة التي يطمح أن تكون سكناً لنفسه ، فهو حين
افتقد الاستقرار النفسي والأسري وافتقد الأطمئنان الى صدر
يشعره برجولته عمد الى ناقته فجعلها سكن نفسه ورفيق
حياته ، فكان حقها عليه أن يصونها كما يصون الرجل زوجته
فيحميها ، بل انه ليستكثر على عينيها ان تناما فتغفلا حراسة
ناقته في صحراء موحشة ، فيقول : (٣١)

أنخت قلوصي واكتلات بعينها وأمرت نفسي أي أمرى أفعل
أكلؤها خوف الحوادث إنها تريب على الانسان ام اتوكل

أو كما يقول : (٣٢)

وتدير للخرق البعيد نياطه بعد الكلال وبعد نوم الساري
عيناً كمرأة الصناع نديرها بأنامل الكفين كل مدار
بجمال محجرها وتعلم ما الذي تبدي لنظرة زوجها وتواري

ولا تعدو ناقة المثقب العبيدي ان تكون ذاته ونفسه
الحزينة التي أتعبها الحل والترحال ، فتأوهت آهة الرجل
الحزين ، إذ يقول : (٣٣)

إذا ما قمت أرحلها بليل تأوه آهة الرجل الحزين
تقول وقد درأت لها وضيئي أهذا دينه أبداً وديني
أكل الدهر حل وارتحال أما يبقى علي ولا يقيني

على إن عشرات النماذج الجاهلية تكشف عن أن صورة
الناقة ظلت تشكل معادلاً لأداة الصراع الانساني في مواجهة
تحديات الحياة ، ولهذا فهي تبقى مهية لقبول السمات التي
يفترضها الشاعر في عدته لخوض قدره المفروض .

الناقة وثور الوحش

وقد تبدو الرمزية الموضوعية أكثر خوفاً حينما يشبه
الشاعر الناقة بثور وحش او حمار وحش او نعامة او ظليم ،
حيث يمنحها ابعاداً ادائية أكثر قبولاً للتجارب الشعرية
المتباينة ، كما تفتح امامه منافذ اضافية أخرى يستطيع من
خلالها منح صورة الناقة بعداً ادائياً قابلاً للتباين التائري
وقادراً على الكشف عن عوالم نفسية وموضوعية مختلفة .
وعلى هذا فان تشبيه الناقة بثور الوحش او ما يتبعها من
قصص اسطورية تدور حولها إنما هي تعبيرات رمزية للمعضلات
والصراع داخل مجموعة ما (٣٤)

ويرى الاستاذ محمد صادق حسن ان الشاعر في الرحلة
لا يحدثنا مباشرة عن داخله وإنما يقص علينا حكايات من
خارجة فيخرج الى وصف ناقته وسياحتها في مشاهد الصحراء
فيشبهها بحيوانه من ثور وبقرة ونعامة او يضع ناقته بين
مواقف صعبة فيدير معركة بين الثور الوحشي والكلاب والصيد
ليترجم من خلالها عن موقف ناقته فيعكس صورته هو (٣٥)
وببقى الجاحظ اقدم من تنبه الى رمزية قصة ثور الوحش
وعلاقتها بالفرض الرئيس ، فقد قرر ان قصة الثور تنتهي بمقتل
الثور اذا كانت القصيدة رثاء وتنتهي بنجاته في سائر
الأغراض (٣٦)

امرىء القيس هو امرىء القيس نفسه ، والذي حاول ان يسقط نفسه عليه ، فهو قوي متين كان منته مداك عروس او صراية حنظل ، وأن الغلام الخف لا يستطيع الثبات على ظهره والقوي العنيف يللمم بأثوابه ويحذر من السقوط ، سريع وسرعته غير اعتيادية ، سريع في الفر وسريع في الكر ، لا تدركه الوحوش ويستطيع ان يدركها ويلحق بالهاريات منها فيقتلها وتلطم جبهة فرسه الدماء فتصبح وكأنها عصارة حناء بشيب مرجل ...

إنك حين تقرأ هذه الأبيات لا تتصور الحديث الا عن امرىء القيس نفسه ، انه امرىء القيس الذي يخوض صراعاً ويسعى من اجل تحقيق النصر ، فلم لا يكون فرسه حلم الانتقام من بني اسد قتلة ابيه ولم لا تكون أوصاف الفرس هي اوصاف امرىء القيس ، كل ذلك يمكن ان تخلقه صورة فرس امرىء القيس في ذهن المتلقي ، بعد التعمق في فهم النص واختراق الجدار الخارجي للآبيات للكشف عما تخفيه من معانٍ لا شك أن نفس امرىء القيس كانت من ورائها .

اما نماذج الشعراء الذين عرفوا بوصف الخيل من امثال ابي دؤاد الايادي والطفيل الغنوي والنايفة الجعدي ، فلا تدخل في هذا الاطار ، لانهم اتجهوا الى الوصف الموضوعي للفرس بدوافع خاصة ولاغراض خاصة ، وهي تبقى اقرب الى الدراسة الموضوعية منها الى الرمزية .

وهناك بعض النماذج التي يمزج فيها الشاعر بين صورة الناقة وصورة الفرس ولاسيما في القصائد التي تحتاج الى اناة وصبر كما تحتاج الى حسم وقوة وتهديد ووعيد ، فيتخذ من الناقة رمزاً للناة والصبر ويتخذ من الفرس رمزاً للإقدام والحسم .

ويبدو هذا المزج بين الناقة والفرس واضحاً في كافية زهير بن ابي سلمى التي قالها في بني الصياد الذين انتهبوا ابله وعبيده ، فكانه يقول : إن شئتم الصبر والناة فدونكم رمزهما بالناقة المشبهة بالنعامة (وقصة النعامة التقليدية مفعمة بمعاني الرقة والانسانية) أما إن ابيتتم فإن الامر سيؤول الى مواجهة حاسمة تتمثل في رمز الفرس الذي ينطلق انطلاق قطاة يطاردها صقر ، حيث يقول :^(٢٧)

هل تُلحقني واصحابي بهم قُلص يُزجي أوائلها التبغيل والرتك
مثل النعام اذا هيجتها اندفعت على لواحب بيض بينها الشرك
وقد أراني امام الحي تحمطني جرداء لافحج فيها ولا ضلك
مرأ كفاتاً اذا ما الماء اسهلها حتى اذا ضربت بالسوط تبتكر
كانها من قطا الاجباب حان لها ورد وأفرد عنها أختها الشرك
إلى ان يقول :

حتى اذا ما هوت كف الغلام لها طارت وفي كفه من ريشها بتك
ثم استمرت الى الوادي فالجاءها منه وقد طمع الاظفار والحتك

ولعل تشبيه الناقة بالثور وهو يخوض صراعاً دامياً مع كلاب الصيد من اكثر المشاهد تعبيراً عن معاناة الشاعر وهو يخوض معترك الحياة حيث يسقط ما في نفسه على تلك المشاهد فيخلق من خلال الاوصاف التي يطرحها ستاراً فنياً ومركباً نفسياً ليعبر عما يساوره وما يشغله من توترات وتناقضات الموت والحياة ، التفرق واللقاء ، الحاضر والماضي ، الذات والمجموع او الحديث عن المثال الذي يدور في خلده ويطمح الى تحقيقه .

ولعل قصيدة النابغة الذبياني من امثل نماذج الرمزية الموضوعية في هذا المجال ، ففي ليلة ظلماء شديدة الريح والمطر والبرد ، في تلك الليلة الليلية المخيفة تزداد مخاوف الثور حينما يسمع صوت الكلاب التي تريد اقتراسه وسرعان ما تهجم عليه الكلاب وتحقق به الاخطار وتحقق به من كل جانب ، فيواجه الثور القدر المحتوم حيث يقول :^(٢٧)

اسرت عليه من الجوزاء سارية تزجي الشمال عليه جامد البرد
فارتاع من صوت كلاب فبات له طوع الشواحت من خوف ومن صرد
فبهن عليه واستمر به صمع الكموب بريات من الحرد
ولكنه لا يستسلم بل يواجه الموقف بكل ثبات وصلابة ، فيقرر خوض المعركة فيخرج منها بعد ان جرحته كلاب الصيد منتصراً :

وكان ضمران من حيث يوزعه طعن المراك عند الحجر الذجد
شك الفريضة بالمدرى فانفذا طعن المبيطر اذ يشفى من المضد
كانه خارجاً من جنب صفحته سفود شرب نسوه عند مقتاد
فظل يعجم أعلى الروق منقبضاً في حالك اللون صدق غير ذي اود
لما رأى واشق اقعاص صاحبه وإن مولاك لم يسلم ولم يصد

لقد كانت ناqqته وراء هذه المشاهد التصويرية (لانها المشبه) فقوة ثور الوحش وانتصاره هي قوة الناقة وانتصارها . وما الناقة الا نفس الشاعر او الانسان (المثال) الذي يراه في شخص الممدوح .

لقد عبر الشاعر من خلال قصة الثور وتشبيهه بالناقة في اغلب النماذج عن الصراع الفردي الصرف ، اما قصة حمار الوحش ، فهي تقوم على صراع مماثل من اجل البقاء ولكنها تتميز بمناخها الجماعي المتمثل بمسؤولية الحمار عن مجموعة من الاتن .^(٢٨)

في المدلول الرمزي للفرس

وما قلناه عن الناقة يمكن ان نقوله عن الفرس ولا أظن اننا نبتعد عن الصواب إذا قلنا بانه رمز الشباب والقوة والشجاعة والإقدام ، انه رمز للانسان (المثال) او رمز للذات وحلم الانتقام والاخذ بالثأر وأظنك توافقني على ان فرس

وهكذا تنتهي المطارة بنجاة القطاة ورجوع الصقر الى وكره خائباً ليمارس زهير حلم يقظة طامح الى عودة ابله وعبداه اليه سالمين^(٤٠).

وثمة موضوعات اخرى يمكن ان تكون لها مدلولات رمزية ؛ ولعل المطر اكثرها دوراناً في القصيدة الجاهلية حيث يمكننا ان نعه رمزا لانبعث الحياة وتفتحها لقيم الخير والعطاء في أغلب القصائد المكتملة .

وبعد ، فالطلل والمرأة والناقة وثور الوحش وحمار الوحش والمطر وغيرها انما هي كيانات تألفت لتتفرّد مضامين القصيدة العربية قبل الاسلام بالعمق والغنى الفني .

ونحن نستطيع بعد هذه الجولة المستقصية لموضوعات القصيدة الجاهلية ان نقرر الخلاصات النهائية التي تتشكل في جملة قناعات قررتها النصوص المدروسة ويلورها التامل النقدي فأتاحت لنا فرصة القول بأن القصيدة الجاهلية عمل فني يسترشد مادته من واقع يومي متحرك ولكنه حين يسحب التفاصيل الى عالم الابداع الشعري يقع تحت ضغط البنية الشعرية التي تقتضيه توفير رسوم تقليدية فضلاً عن ضغط الاداء الفني الذي يقتضيه نقل الانفعال في اطار فني . ولقد فرضت البنية الشعرية على الشاعر ان تهيه من

مقاطعها التقليدية رموزاً مشحونة بدلالاتها المهيئة لطبيعة التجربة الموضوعية فكان عليه ان يحملها زخم الانفعال ويعيد تشكيل تفاصيلها لتبدو صيغتها النهائية اقدر على استيعاب اجواء التجربة وأدائها .

أما في الاداء الداخلي فقد كانت وسائل البيان من مجاز واستعارة وكناية جسوراً يلتقي عليها المبدع والمتلقي في اطار عرف لغوي مشترك تبلور فيها بعد حتى غدا جزءاً - او كالجزء - من صلب اللغة العربية وذلك ما أوقع باحثين معاصرين في الوهم حين ظنوا ان تلك الجسور هي جسور ادائي مباشر لا يحتمل رمزية ولا يوحي بها وتلك جنائية النظر الى النص التراثي بعين معاصرة .

إن واقعية القصيدة الجاهلية أمر مفروغ منه في جانبها الموضوعي ولكنها لم تكن سمتها الفنية الا في حدود النظرة المتعجلة .

لقد كانت لها مدلولاتها الرمزية في البنية والاداء كما قلنا ولكن الكشف عن ابعادها الرمزية تلك رهين بمعايشتها والتعامل مع أدائها الاسلوبي من خلال النظر الى لغتها بمقياس تزامني وليس بمقياس تاريخي .

الهوامش :

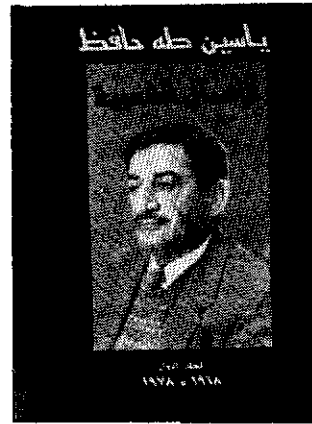
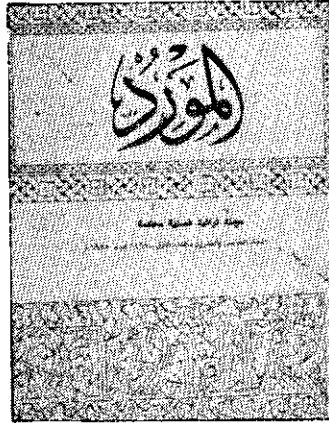
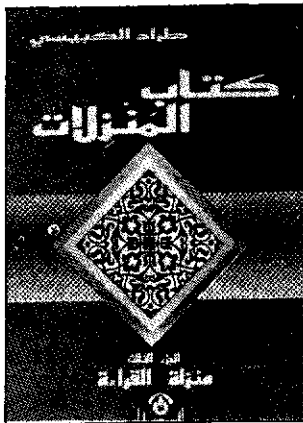
- ٢٠ - الرمزية في الادب العربي/ ١٦٨ .
- ٢١ - مدخل الى بنية القصيدة/ ١١- ١٣ وخصوصية القصيدة الجاهلية/ ٥٤٦ .
- ٢٢ - خصوصية القصيدة الجاهلية/ ٥٤٢ .
- ٢٣ - تاريخ الشعر العربي/ ١٠١ .
- ٢٤ - هامش شرح المعلقات/ (التبريزي) ٤٨٣ .
- ٢٥ - شعر اوس بن حجر/ ٤٣٧ .
- ٢٦ - الرحلة في القصيدة الجاهلية/ ١٧٩ .
- ٢٧ - ديوانه/ ٢٠٠ .
- ٢٨ - ديوانه/ ٥٥ .
- ٢٩ - مدخل الى بنية القصيدة/ ٢٠ .
- ٣٠ - قراءة ثانية لشعرنا القديم/ ٦٥ .
- ٣١ - ديوانه/ ٥٥- ٥٦ .
- ٣٢ - المصدر نفسه/ ٤٠ .
- ٣٣ - المفضليات/ ٢٩١- ٢٩٢ .
- ٣٤ - مواقف في الادب والنقد/ ٨٥ .
- ٣٥ - خصوصية القصيدة الجاهلية/ ٢٧٢ .
- ٣٦ - الحيوان ٢/ ٢٤٢ .
- ٣٧ - ديوانه/ ١٨- ١٩ .
- ٣٨ - مدخل الى بنية القصيدة/ ٢٥ .
- ٣٩ - ديوانه/ ١٦٨ .
- ٤٠ - مدخل الى بنية القصيدة/ ٣٠ .

- ١ - ينظر مقدمة القصيدة الجاهلية وشعر اوس بن حجر ورواته الجاهليين وتاريخ الشعر العربي (البهيبيتي) .
- ٢ - الشعر الجاهلي (قضاياها الفنية والموضوعية) د . ابراهيم عبد الرحمن ص ١٨٨ .
- ٣ - مقدمة القصيدة الجاهلية/ ١٧٥ وما بعدها والطبيعة في الشعر الجاهلي/ ٢٥٤ .
- ٤ - مقالات في الشعر الجاهلي/ ١٢٣ .
- ٥ - الشعر الجاهلي د . ابراهيم عبد الرحمن/ ٣٦٦ .
- ٦ - مدخل الى بنية القصيدة العربية قبل الاسلام/ بحث/ ٧ .
- ٧ - خصوصية القصيدة الجاهلية/ ٢١٣، ٥٧٩ .
- ٨ - مدخل الى بنية القصيدة العربية قبل الاسلام/ ٦ .
- ٩ - خصوصية القصيدة الجاهلية/ ١٥٠ ومدخل الى بنية القصيدة/ ٨ .
- ١٠ - مدخل الى بنية القصيدة/ ٨ .
- ١١ - شرح المعلقات (التبريزي) ٣١٥ .
- ١٢ - ديوانه/ ١١٢ .
- ١٣ - حول مدلولات رموز المرأة .
- ١٤ - الشعر والشعراء ١/ ٧٥ .
- ١٥ - العمدة ١٢١/ ٢- ١٢٢ .
- ١٦ - الاغانى : ١٥/ ١٠٥ .
- ١٧ - تاريخ الشعر العربي/ ١٠٠ .
- ١٨ - تاريخ الشعر العربي/ ٩٩ .
- ١٩ - الشعر الجاهلي/ ٢٥٦- ٢٦١ .

المصادر والمراجع

- ١ - الأغاني أبو الفرج الإصهاني - دار الثقافة .
- ٢ - تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري د . نجيب محمد البهيبيتي - دار الفكر - ط٤
- ٣ - حول مدلولات رموز المرأة في مقدمة القصيدة العربية قبل الإسلام د . محمود عبد الله الجادر - مجلة المجمع العلمي العراقي ١٩٨٠ م .
- ٤ - الحيوان الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون - القاهرة ١٩٣٨ .
- ٥ - خصوبة القصيدة الجاهلية محمد صادق حسن عبد الله - دار الفكر العربي - د . ت .
- ٦ - ديوان شعر حاتم الطائي وأخباره تحقيق : عادل سليمان - القاهرة .
- ٧ - ديوان عبيد بن الأبرص تحقيق : حسين نصار - مصر ١٩٥٧ .
- ٨ - ديوان عنتره تحقيق ودراسة محمد سعيد المولوي - المكتب الاسلامي .
- ٩ - ديوان النابغة الذبياني تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف .
- ١٠ - الرحلة في القصيدة الجاهلية وهب رومية . ط١ - ١٩٧٥ .
- ١١ - الرمزية في الأدب العربي د . درويش الجندى - مصر ١٩٥٨ م .
- ١٢ - شرح ديوان زهير بن أبي سلمى صنعة الإمام أبي العباس ثعلب - دار الكتب ١٩٤٤ م .
- ١٣ - شرح ديوان كعب بن زهير صنعة السكيري . دار
- الكتب ١٩٥٠ م .
- ١٤ - شرح المعلقات العشر التبريزي . تحقيق محي الدين عبد الحميد - ط١ - ١٩٦٤ .
- ١٥ - شعر أوس بن حجر ورواته الجاهليين د . محمود عبد الله الجادر - بغداد ١٩٧٩ م .
- ١٦ - الشعر الجاهلي (قضاياها الفنية والموضوعية) د . إبراهيم عبد الرحمن محمد - بيروت ١٩٨٠ م .
- ١٧ - الشعر والشعراء . ابن قتيبة - تحقيق : احمد محمد شاكر - مصر ١٩٦٧ م .
- ١٨ - الطبيعة في الشعر الجاهلي د . نوري القيسي - بيروت ١٩٧٠ م .
- ١٩ - العمدة ابن رشيق - تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد - مصر ١٩٥٦ م .
- ٢٠ - قراءة ثانية لشعرنا القديم د . مصطفى ناصف - دار الاندلس - ط٢ - ١٩٨١ م .
- ٢١ - مدخل الى بنية القصيدة العربية قبل الإسلام (بحث) د . محمود عبد الله الجادر .
- ٢٢ - المفضليات تحقيق : احمد محمد شاكر وعبد السلام هارون - ط٤ .
- ٢٣ - مقالات في الشعر الجاهلي يوسف اليوسف - دار الحقائق ١٩٨٣ م .
- ٢٤ - مقدمة القصيدة الجاهلية د . حسين عطوان - دار المعارف - مصر ١٩٧٠ م .

صدر حديثاً في دار الشؤون الثقافية العامة



نظرة في تراث العرب الجغرافي

د. عباس فاضل السعدي

كلية الآداب - جامعة بغداد

من أبناء الشمال أي الفينيقيين هم الوسطاء أو العملاء في التجارة بين بلاد البحار الجنوبية والعالم فكانوا يقومون بتمثيل (ضباط الارتباط) في ميادين التجارة العالمية^(١).

وما أكثر ما ادخره الشعر الجاهلي من معلومات عن البيئة الجغرافية لجزيرة العرب، حيث حفظ لنا الكثير من أسماء الاعلام الجغرافية من أودية وجبال وآبار وتلال ومعالم ورسوم. ولم يقتصر الأمر على سكان البادية، فسكان الحضر كأهل مكة ويثرب (المدينة) والطائف تجاوز علمهم البلدان إلى ما وراء الجزيرة كالحبشة والشام والعراق. والاعلام الجغرافية التي أوردها الشعراء تمثل مادة لا تقدر بثمن كما يقول (فستنقلد). فقد استقى منهم البكري وياقوت وغيرهما مادة جغرافية في غاية الدقة والأهمية. لذلك لم يكن غريباً أن نجد الجغرافية من بين الفنون التي اهتم بها اللغويون. فقد كان الاصمعي (٢٢٣ هـ / ٨٢٨ م)، وهو من علماء اللغة، من «العارفين بجغرافية بلاد العرب معرفة المدقق الخبير، وظلت هذه الصلة بين الجغرافية واللغة قائمة حتى عصر متأخر، نجدها في معجم البلدان لياقوت الحموي، وهو من كتب الجغرافية، ونجدها في تاج العروس للزبيدي، وهو من معاجم اللغة»^(٢).

وفي القرن السابع الميلادي اعتبر القرآن الكريم أقدم وثيقة اسلامية احتوت بعض المعلومات الجغرافية على الرغم من قلتها، كما هي قليلة في الحديث الشريف. وما جرت تسميته «بالتراث الاسطوري في الجغرافية» قليل جداً بينها. وتتأكد في القرآن بشكل خاص أهمية النجوم كهاج في ظلمات الليل. وذكر بعض الباحثين ان القرآن اقتصر على ايراد عشرة أسماء لمواضع جغرافية جميعها داخل حدود جزيرة العرب (مكة، المدينة، بدر، حنين، الصفا، المروة، عرفات، طريقا)^(٣)، سيناء، ووادي طوى القريب منها) كما أورد بعض من مساكن الامم البائدة. وخارج حدود الجزيرة العربية ورد ذكر (الارض المقدسة) فلسطين ومصر وبابل^(٤). (شكل رقم ٢) وتطلب الحج، وهو ركن أساسي من أركان الاسلام، معرفة كاملة بطرق القوافل إلى مكة والمدينة، وكان الحجاج المهتمون بتقديم البلدان يجمعون وهم في طريقهم إلى الديار المقدسة كثيراً من المعلومات عن الأراضي التي يمرون بها. فضلاً عن تدوين

انبثقت عناية العرب بالجغرافية من واقع بيئتهم، ذلك أن نشأتهم الأولى كانت في محيط حتم عليهم أن يلموا بالمعلومات الجغرافية المختلفة، إذ لم يكن في استطاعتهم أداء الطقوس الدينية، وإنجاز معاملات البيع والشراء وتسديد الديون إلا إذا ضبطوا مواعيدها^(٥). وما كان لهم أن ينتقلوا بإبلهم وضأنهم، وهي أثمن ما يمتلكون، إلا إذا عرفوا موارد الماء، ومنابت العشب، ونوع الحيوان السارج في الصحراء. ولم يكن في استطاعتهم أن يقوموا برحلاتهم السلمية والحربية، ولا سيما التجارية منها، في فجاج الصحراء إلا إذا عرفوا الشيء الكثير عن تغيرات الطقس، ومعلومات عن النجوم وتحركات الكواكب، يهتدون بها ويتخذون منها أدلة^(٦). لهذا اهتموا بعلم الفلك وتقدموا في ميادينه، مما جعلهم يتمتعون بمعين لا ينضب من التجارب المباشرة في مجال الجغرافية الفلكية. فقد استطاعوا توقيت ساعات الليل، وتحديد منازل القمر بـ (٢٨) منزلاً، والتنبؤ بحالة الطقس، وتحديد فصول السنة الملائمة للزراعة. وهو ما عُرف عند العرب باسم «النوء» - جمع أنواء - الذي ارتبط بالظواهر الجوية ارتباطاً وثيقاً، والفوا فيه كتباً عديدة، ويرجع احدها إلى واحد من أوائل الجغرافيين العرب وهو ابن خرداذبة^(٧). (شكل ١)

وخبرة العرب الفلكية والبحرية ويطرق الصحراء ومسالكها مكنتهم من أداء دورهم - في فترة ما قبل الاسلام - كوسيط في التبادل التجاري بين الهند وأفريقيا الشرقية من ناحية، وبلاد دجلة والفرات والامبراطورية الرومانية من ناحية أخرى^(٨). فقد عرفوا قبل غيرهم سر الملاحة الموسمية منذ اقدم العصور، وقاموا بنقل التجارة بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها (إلى سوريا وفلسطين) في رحلتي الشتاء والصيف.

وقد حلّ سكان سواحل الجزيرة العربية محل الفينيقيين في ممارسة النشاط التجاري الذي كان يمارسه الفينيقيون في المنطقة. وفي ذلك يقول الدكتور (فيليب حتي) عنهم وعن أبناء عمومتهم الفينيقيين: «وكان سكانها كأقاربهم القدماء

ما يسمعه من الحجاج الآخرين عن بلادهم . وخير من يمثل هذا اللون من الادب الجغرافي « رحلة ابن جبير » .

وبالإضافة الى عامل الحج ، لعبت التجارة والرحلة (لطلب العلم أو لأي غرض كان) دوراً بارزاً في ازدياد حركة الاتصال بينهم وبين البلدان المعروفة لهم آنئذ . وقد تعاظمت التجارة بعد ظهور الاسلام كثيراً حيث رأينا التجار المسلمين ينهضون الى أطراف الارض ، ينقلون البضائع ويشتررون السلع . وقد شملت تجارتهم رقعة الدولة الاسلامية برمتها من الاندلس غرباً الى وادي السند وما وراء النهر شرقاً ، براً وبحراً . مما ساعد على إتساع المعلومات الجغرافية لدى العرب فشجعهم على تدوين اخبار أسفارهم وما شاهدوه في ترحالهم فوصفوا البلدان وحيات سكانها في المناطق التي مروا بها . ومن هنا ظهرت كتب الرحلات المعروفة مثل رحلة المسعودي والمقدسي والادريسي . أما رحالة البحر فاشهرهم سلمان التاجر وابن ماجد وسليمان المهري . ومن شأن التوسع السياسي وانتشار رقعة الدولة نتيجة الفتوحات التي حملت العرب بعيداً عن حدود جزيرتهم الى مختلف الاقطار ان يحدث تغييراً شاملاً في تصورهم للعالم ، ويؤدي بلا ريب الى اتساع افقهم الجغرافي نتيجة التجربة المباشرة . وقد ساعدت المعلومات الجغرافية تلك الدولة الاسلامية في ادارة شؤونها وضبط خراجها ومعرفة طرقها وتحديد مسالكها وأبعادها وتنظيم تجارتها وبالتالي حفظ حقوق بيت المال وتنظيم طرق البريد ، فظهرت مصنفات لتلك الميادين . ومن بين هذه المصنفات ظهر لما يصح أن يسمى بـ (الجغرافية الادارية والسياسية)^(٨) عن الفتوح والمغازي واخبارها . وهي تبدو واضحة في كتاب « المسالك والممالك » لابن خرداذبة في اواسط القرن الثالث الهجري (القرن التاسع الميلادي) ، وفي كتاب « الخراج وصناعة الكتابة » لابن قدامة . وقد خضع البريد الى تنظيم جيد في العهد الاموي مما استرعى اعداد رسوم تخطيطية لمختلف الطرق ، وقد وجد مثل هذه الرسوم في دواوين الحكومة واستغلها بعض مؤلفي العصر العباسي في وضع مؤلفات في هذا الميدان . أما طرق البريد فقد نصبت جانبها حجارة لتوضيح المسافات وكانت تبدأ من مركز الخلافة . وعثر على بعض هذه الحجارة بفلسطين ، واماكن اخرى ، ترجع الى عهد عبد الملك بن مردان قبل عام ٨٦ هـ (٧٠٥ م)^(٩)

وجهاز البريد وما يتطلبه من شبكة للطرق والمواصلات كان دافعاً لتأليف عدة مصنفات تعالج هذه الناحية ، وهي كتب (المسالك والممالك) . وبين هذه المجموعة مؤلفات جغرافية شهيرة تحمل هذا العنوان : لابن خرداذبة والاصطخري ، وابن حوقل وغيرهم .

ويمثل العصر الذي يمتد الى منتصف القرن الثامن ميلاد

بعض الانماط والصور التي بدأت تتشكل فيها بالتالي مصنفات جغرافية قائمة بذاتها وضعها علماء لغويون كانت تدور حول تصورات عرب الجاهلية عن الانواء واهتمامهم بالامكن . كما ان هؤلاء العلماء مسؤولون عن ادخال نمط « الفضائل » في المؤلفات الجغرافية والتاريخية الذي يكاد يكون أطرف محاولة لصياغة التصورات الجغرافية في قالب أدبي . والى هذا العصر بالذات ترجع أولى اشارات عن ظهور مصورات جغرافية^(١٠) (خرائط) وجغرافية وصفية في المجالين الاداري والاقتصادي لا سيما في الاندلس عام ١٠٠ هـ / ٧١٩ م ، أي في عهد عمر بن عبد العزيز^(١١)

ورغم ان العرب وغيرهم من الامم قد عرفوا الشيء الكثير من المعلومات الجغرافية ، الا ان مفهوم كلمة (جغرافيا) لم يتبلور عندهم ، ولم تتضح معالمه أو تتحدد أبعاده . فهذه الكلمة وكما جاءت على لسان (مارينوس الصوري) ثم على لسان (بطليموس) لم تكن في بداية استعمالها أكثر من رسم خارطة للارض تستند الى خطوط الطول ودوائر العرض توضع عليها المواضيع الجغرافية الطبيعية والبشرية . وهي تدخل ضمن اختصاص الرياضيات ، بنظر بطليموس ، لذلك اتجه الى علم الفلك لانجازها^(١٢) في حين يرى (سترابو) ان مهمة الجغرافي الاساسية هي في وصف البلدان وطبائعها ومناخها وغلطاتها ومسالكها واقتصادياتها ومعتقداتها ، متجهاً بذلك نحو تحقيق المقاصد التي ينطوي عليها « الكوزموغرافيا » ، أي علم وصف الكون .

والجغرافية العربية بدأت بعد ظهور الاسلام تحمل طابعاً فلكياً نتيجة تعرف العرب على العلوم الهندية والفارسية أولاً ، ثم الاغريقية بعد ذلك حيث طغت شخصية بطليموس بمصنفاته الفلكية والجغرافية . ومن هنا ظهر الاتجاه الرياضي في الجغرافية . ومنذ ذلك الوقت سار تطور الجغرافية العربية من غير توقف الى آخر القرون الوسطى .

الجغرافية الرياضية

ان للمنهج الكمي المطبق في الدراسات الجغرافية الحديثة جذور قديمة في التراث الجغرافي العربي . فقد نشأت الجغرافية نشأة رياضية ، وكان عدد كبير من الجغرافيين العرب القدامى لهم الملم الرياضي واسع . فقد طبقه بعضهم بأرقامه ومعادلاته امثال الهمداني وابي الريحان البيروني والمراكشي ، وبعضهم بمنهجه واسلوبه مثل المقدسي وقدامة بن جعفر^(١٣) والجغرافية الرياضية عند العرب وإن تأثرت بالفكر اليوناني الفلكي ، الا ان تأثير هؤلاء لم يكن هو السابق من الناحية الزمنية . فقد تقدمه الهندي . واذا كان التأثير اليوناني أخذت كفته في الرجحان منذ بداية القرن التاسع الا ان المذهبين الاولين

ظلا مع ذلك محتفظين ببعض أهميتهما مدة لا تقل عن القرنين حتى في المناطق البعيدة كالاندلس .

ففي أوائل ظهور الدولة العباسية ، قسم الجغرافيون العرب العالم الى (كشاور) تتكون من دوائر هندسية احداها في الوسط ، وتحيطها الدوائر الست الاخرى ، وظل هذا النظام معمولاً به عند الجغرافيين العرب الى أن تحولوا عنه وذلك باقتباسهم التقسيم الذي وضعه محمد بن موسى الخوارزمي (٢٢٢ هـ / ٨٤٧ م) واضع اساس الجغرافية العربية ، ويقوم على أساس الاقاليم السبعة وفق الاحداثيات الجغرافية على شكل مستطيلات متوازية ، وممن أخذ بهذا النظام الفرغاني (٢٤٧ هـ / ٨٦١ م) والبيروني (٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م) وسهراب . ويمثل الخوارزمي ومن سار على منواله مدرسة جغرافية عربية بحثة لا صلة لها بالفرس او الهنود او اليونانيين (١٣).

وقد وضع بعض الجغرافيين العرب اسساً جديدة لتقسيمات اقليمية عربية أصيلة لا تقوم على اساس رياضية ، كما فعل الاقدمون ، وانما وفقاً لمشاعرهم القومية كما فعل الهمداني عندما وضع كتابه (صفة جزيرة العرب) وقسمها الى خمسة أقسام متخذاً من ظواهر سطحها اساساً لذلك ، أو وفقاً لحاجة الدولة الادارية مثلما قسم المقدسي الدولة العربية الاسلامية الى (١٤) اقليماً ادارياً (١٤).

أما التأثير الهندي فيتمثل بصورة خاصة بادخال نظام « السندهند » (١٥) في الفلك العربي على اساس عدد من الرسائل الهندية في عهد المنصور متضمنة جداول رياضية نتيت على الحسابات الفلكية وقوانين عملها وكيفية استعمالها ، وهي تدور حول تحركات الاجرام السماوية وطلوع ومغيب البروج . وقد حفظ لنا الفزاري (١٨٨ هـ / ٨٠٣ م) هذا النظام بعد أن أجرى عليه تعديلات وازافات جوهرية ، حيث قام بتحويل حساب التوقيت الهندي الى سنين قمرية كما هي مستعملة لدى العرب . أما اضافاته فقد بدت في الاتساع الملحوظ في المادة المتعلقة بأراضي الخلافة . ونشاط « الفزاري » يمثل فاتحة عهد جديد في تطور الفلك والجغرافية الرياضية عند العرب ، إذ كان هو (ما شاء الله) أول من وضع الاسطرلاب بين العرب (١٥) ، وفيما بعد ظهر عدد آخر من أشهر فلكيي العرب مثل النجم يحيى بن أبي المنصور (٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م) والفرغاني والمروزي (٢٧٤ هـ / ٨٨٧ م) وغيرهم .

ويبقى نظام « السندهند » سائداً حوالي نصف قرن أي الى عصر المأمون حين بدأ يزحمة المذهب اليوناني الا أنه لم يختف مرة واحدة . فأكبر رياضي عصر المأمون وهو (الخوارزمي) قد وضع جداوله الفلكية « السندهند الصغير » اعتماداً على النظام الهندي . واستمر متداولاً الى آخر القرن

الحادي عشر الميلادي . وفي أراضي الخلافة الغربية استمر الاهتمام به زمناً أطول . واحدى القواعد الجوهرية لهذا النظام ظلت حية ما مرتبطة بالمصنفات العربية على الدوام وامتد تأثيرها في بعض المجالات الى أيام كولومبس . اعني بذلك مسألة حساب خط الزوال أي خط منتصف النهار الذي كانت منه تقاس الأطوال عند العرب قبل مجيء النظام اليوناني وذلك من عند الأرين Arine أو « قبة الارض » الموجودة في مكان ما من الشرق . وهي النقطة التي يتقاطع فيها خط الاستواء مع خط منتصف النهار حيث تقع على أبعاد متساوية من الغرب والشرق والشمال والجنوب (١٦).

ونظرية الأرين هي المسؤولة عن ظهور الشكل الكمثري للارض عند كولومبس حيث يوجد مركز آخر للارض في نصف الكرة الغربي . وهكذا فإن النظرية الجغرافية العربية قد لعبت دوراً ما في كشف العالم الجديد . ومما يجدر ذكره ان كروية الارض كانت معروفة لدى العرب منذ عهد مبكر وقبل كوبر نيكوس بزمان بعيد . فقد ساق « الفرغاني » بعض البراهين المتداولة في الوقت الحاضر لاثبات استدارة الارض (١٧) كما يتضح من رواية ابن رسته (بين ٢٩٠ و ٣٠٠ هـ / ٩٠٣ و ٩١٣ م) (١٧) . ولم تجد النظريات الفلكية والجغرافية الهندية طريقها الى العرب مباشرة فحسب بل وصلتهم احياناً في ثوب آخر . مثل دخول مصطلح (الزيج) في الاستعمال العربي للجداول الفلكية ، ولعل زيج الشاه (زيج الملك) كان اكثر مصنفات المذهب الفلكي هذا ، انتشاراً في اللغة العربية . وقد أخذ المذهب اليوناني يضيق الخناق على المذهبين الآخرين في الجغرافية الرياضية العربية منذ بداية القرن التاسع ، واصبح هو السائد منذ منتصف القرن المذكور (١٨).

ومنذ عهدي الرشيد والمأمون نشطت حركة الترجمة في بيت الحكمة ، فانتشرت المؤلفات اليونانية واحتلت مكانة مرموقة بينها مؤلفات بطليموس الذي بدأ به عهد جديد في تاريخ الفلك والجغرافية عند العرب لا سيما مصنفيه الكبيرين وهما رسالة الفلك (الجامع) و (المدخل الى الجغرافيا) والمعروف باسم « جغرافيا » . والاول منها أخذ شكله العربي باسم « المجسطي » وقد ترك أثراً محموداً في تقدم الفلك والرياضيات لا بين العرب وحدهم بل وفي اوربا الوسيطة أيضاً .

وقد بلغت جهود الاغريق والرومان الجغرافية ذروتها في مؤلفي بطليموس ، المشار اليهما ، الا انه يمكن اعتبارهما أيضاً ختام الكشوف الجغرافية القديمة . إذ لم تعد تحوي الكتب الاغريقية والرومانية معلومات جديدة ، فأخذت الاعمال الجغرافية والكارتوغرافية تنقهر في عصر الرومان بحيث ساد الجمود والخمول قروناً حتى ظهر العرب على مسرح الاحداث ، الذين اعتبروا ورثة الثقافة الهيلينية التي مهدت لها السبيل

فتوح الاسكندر في أول الأمر ثم انتشرت فيما بعد في أرجاء الاقاليم الشرقية من الامبراطورية الرومانية^(٢١). لهذا أخذ العرب على عاتقهم بعد مرور ستة قرون من الزمن احياء دراسات بطليموس ومناقشتها من جديد ثم بناء النهضة العلمية العربية الجديدة.

وأبرز عمل قام به الجغرافيون العرب في هذا المجال هو قيام الخوارزمي ، اكبر رياضي النصف الاول من القرن التاسع الميلادي ، بترجمة مصلحة معدلة لرسالة بطليموس في الجغرافية^(٢٢) ولعلها تعد من أقدم الترجمات . ويمكن اعتبارها في الوقت ذاته أول رسالة أصيلة في الجغرافية الرياضية عند العرب وشاملة لجميع العالم المعروف لهم انذاك .

ومع ان مصنفات بطليموس لعبت دوراً رئيساً في تطوير الادب الجغرافي العربي لكن العرب في هذا العصر بدأوا يجمعون بين الاستيعاب النظري للعلوم اليونانية والتطبيق العملي لنظرياتهم في ابحاثهم المستقلة . فقد وضعوا جداولهم الفلكية المستقلة على اساس المراجعة النقدية لنتائج السابقين لهم في هذا المضمار ، ورسوموا خرائط لا تقل جودة عن النماذج اليونانية .

فمن ابتكاراتهم أنهم أجروا تجربة لحساب خط منتصف النهار وقياس محيط الارض سنة ٨٢٧ م في زمن المأمون تحت اشراف ابناء موسى بن شاكر (محمد ، احمد ، حسن) . وتقوم حساباتهم على اساس قياس درجة واحدة على خط الزوال ثم ضرب الناتج في ٣٦٠ . وقد بلغت الدرجة بموجب التجربة العربية المأمونية ٥٦ ميلاً وثلاثي الميل^(٢٣) وهو طول لا يختلف عن النتائج التي أسفرت عنها احدث الدراسات بحيث ان الخطأ في هذا المقياس يقل عن الكيلومتر الواحد^(٢٤) . مما يمكن أن نعزو الى نقص الاجهزة المستعملة في القرن التاسع . وتعتبر التجربة العربية المذكورة محاولة جريئة اعتبرها العلماء « من أجل آثار العرب في ميدان الفلكيات »^(٢٥) وهي تقف في حد ذاتها دليلاً على ما بلغت الحضارة العربية من تقدم علمي كبير وسريع الخطى . مما جعلها نحتل مكانة في تاريخ الجغرافية والرياضيات كما يقول كراتشكوفسكي^(٢٦)

ومما يجدر ذكره أن أبا الريحان البيروني قد ابتكر طريقة جديدة لاستخراج محيط الارض ، وقد جاءت هذه الطريقة في آخر كتاب « الاسطرلاب » . ويعترف « نيلينو » بأن قياساته تلك تعد من الاعمال العلمية الماثورة للعرب . هذا وقد ألف أبو الريحان عشرة مؤلفات في الجغرافية الرياضية وأربعة في هيئة الارض وقام برسم خرائط فلكية بطريقة تشبه ما نشره (بارترو) فيما بعد . وقد استفاد ياقوت الحموي من كتاب أبي الريحان « التفهيم لأوائل صناعة التنجيم » كثيراً حيث احتوى هذا الكتاب على مواضيع فلكية وجغرافية عديدة^(٢٧) وفي عهد المأمون تم انشاء مرصدين احدهما في حي

الشماسية ببغداد سنة ٢١٤ هـ / ٨٢٩ م ، والاخر على جبل قاسيون بدمشق سنة ٢١٧ هـ / ٨٣٢ م . ويفضل هذين المرصدين تم تحديد الموقع الجغرافي لجميع النقاط المهمة من جديد . أي ضبط عرضها وأطوالها ، وهو ما عُرف باسم « الزيج المأموني الممتحن » . كما قام الفلكيون أبناء موسى بن شاكر بقياس عرض محله باب الطاق ببغداد فبلغ ٣٣ درجة و ٢٠ دقيقة شمالاً . وهو ما ينطبق تماماً على واقع الحال بعد اضافة عشر ثوانٍ تقريباً^(٢٨) وبواسطة المرصدين المذكورين عُنِيَ انحراف سمت الشمس فبلغ ٢٣ درجة و ٢٣ دقيقة و ٥٢ ثانية ، أي ما يعادل الرقم الحاضر . كما نشأ عن رصدهم للاعتدال الشمس تعيينهم مدة السنة بالضبط . ومن أشهر علماء الفلك في تلك الفترة « البتاني » (٣١٧ هـ / ٩٢٩ م) حيث كان له من الشأن ما لبطليموس عند الاغريق^(٢٩)

وقد اخذ الغرب فكرة مبكرة عن « الزيج المأموني » بفضل ترجمة رسالة الفرغاني مرتين الى اللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر ، كما ترجمت في القرن الثالث عشر الى لغات اوربية اخرى .

وبالاضافة الى ما سبق يقدم لنا هذا العصر أثراً جغرافياً ممتازاً هو ما يسمى بـ (الصورة المأمونية) ولم تصلنا منها آثار مباشرة . وقد رآها المسعودي في القرن العاشر حينما قال : « ورأيت ... الصورة المأمونية ... وهي أحسن مما تقدمها من جغرافيا بطليموس وجغرافيا ماريونوس وغيرهما »^(٣٠)

ولا يزال الإشكال قائماً حول كتاب يُعزى دون مبرر الى بطليموس ، إذ نشأ في محيط لا علاقاً له البتة ببطليموس ، وهو « كتاب الملحمة » ويقصد به هنا (التنبؤات) وذلك لعلاقته بالتنجيم . وهذا الكتاب هو المصدر الاساس لياقوت الحموي في معجمه الجغرافي دون جميع الزيجات الاخرى ، وعليه بنى تحديده لأطوال وعروض المدن واستخرج منه وقائع تنجيمية مختلفة . وقد بلغت استشهادات ياقوت به السبعين تقريباً^(٣١)

الجغرافية الوصفية

بعد ظهور الجغرافية الرياضية عند العرب في القرن التاسع ، بدأت تتشكل منذ منتصف ذلك القرن الجغرافية الوصفية ببطء ملحوظ في بداية الأمر ، حيث اهتم بها اللغويون أو طبقة اهل الادب كما يسميهم ياقوت ، وقد أخضع هؤلاء المادة لمطالبهم . إذ أن التخصص في الجغرافية لم يعرف الا في عصر متأخر للغاية ، وان كثيراً ممن كتب عن جغرافية ديار الاسلام لم يكن جغرافياً بالحرفة . أما المواضيع التي تناولتها الجغرافية الوصفية فكانت تشمل وصف البلدان والمدن والآثار والجبال والسكان وما اليها لغرض تسهيل تحصيل ضريبة

الجزية والخراج وتمشية امور الدولة الاخرى .
وفي الفترة المبكرة لظهور الجغرافية الوصفية ، لم يكن التسلسل التاريخي لتأليف المصنفات المختلفة لبعض أنماطها واضحاً على الدوام . الا انه ومنذ النصف الثاني من القرن التاسع أخذت الجغرافية الوصفية تتخذ انماطاً ثابتة حيث انفسح المجال للغويين بصورة خاصة ليؤلفوا فيها . ويمكن عموماً تصنيف المؤلفات التي تناولتها الجغرافية الوصفية بما يلي :

- ١ - كتب الانواء والفضائل والعجائب .
- ٢ - المؤلفات الخاصة بالمسالك والبلدان .
- ٣ - المصنفات الطوبوغرافية .
- ٤ - الجغرافية الاقليمية .
- ٥ - كتب الرحلات (البرية والبحرية) .

١ - كتب الانواء والفضائل والعجائب :

عنى العرب بعلم الانواء الذي يبحث في صنوف الطقس وفي الظواهر الطبيعية الاخرى كالرياح والامطار والكواكب وربطها وما يتصل بذلك من معرفة حركات النجوم والكواكب وربطها بالمواسم وبالحيوان وبالنبات (٢٨) . واستمرت سلسلة رسائل الانواء في الصدور طيلة القرنين التاسع والعاشر ، ويعتبر مصنف الدينوري (٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م) أبعدا صيتاً . وفي اوائل القرن التاسع وضع « النضر بن شميل » (٢٠٣ هـ / ٨١٨ م) ، وهو من أصحاب كتب الانواء ، موسوعة في الحياة البدوية سماها « كتاب الصفات » ومن بين ما تحويه مادة متنوعة من الجغرافية الطبيعية والاثنوغرافيا (الانثروبولوجيا الوصفية) والجغرافية الحيوية (٢٩) . ومن كتب الانواء الاخرى مصنف « موزج السدوسي » (١٩٥ هـ / ٨١٠ م) ، وكتاب ابن قتيبة (٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م) . وقد عدد ابن النديم في الفهرست ١٥ كتاباً في الانواء (٣٠) .

والف اللغويون أيضاً كتباً في الفضائل أو الخصائص التي ازدهرت في العصر الاموي ، حيث تتناول صفات ومحاسن الحواضر الكبرى (مثل دمشق والبصرة) ، وقد ساهم الجاحظ فيما كتبه بهذا النمط من المصنفات ، وتمت تأثير الموضوعات الاسطورية والرغبة في الامتاع والتشويق تحولت بعض مواضيع الجغرافية الوصفية الى كتب العجائب ، مثل « كتاب العجائب الاربعة » لهشام بن محمد بن السايب بن بشير الذي يعتبر أول كتاب في الموضوعات الجغرافية العامة في الاسلام .

٢ - المؤلفات الخاصة بالمسالك والبلدان :

أصبح للجغرافية الوصفية ضرورة عملية بعد اتساع رقعة

الدولة الاسلامية ، مما يتطلب معرفة الطرق التي تربط بين اصقاع هذه الدولة الفسيحة . وكان لابد من معرفة السكك والمسافات بين الاماكن ، فأدى الى ظهور « كتب المسالك » مثل كتاب « المسالك والممالك » للمروزي . ويعد من أقدم مصنفات المسالك إن لم يكن أقدمها ، ذكره ابن النديم في الفهرست وياقوت في المعجم . ومن المؤلفات القديمة أيضاً في هذا المجال كتاب ابن خرداذبة الذي يحمل نفس العنوان . وقد كان مؤلفه من متولي البريد والخبر في الجبل بفارس ، وهو أول كتاب يصل اليينا في هذا الاختصاص . ويبحث في طرق المواصلات بين جميع المدن الاسلامية المعروفة في عصره ، وفيه ذكر للانتاج الزراعي والضرائب والخراج ، وهو وليد الحاجة الادارية . وترى المؤلف يشرح مضمون كتابه فيقول أنه يتناول « مسالك الارض وممالكها وصفتها ويعدها وقربها وعامرها وغامرها والمسير بين ذلك منها ... ورسوم طرقها وطسوقها ... » (٣١)

وظهرت عدة مصنفات تحمل نفس العنوان (المسالك والممالك) للسرخسي (٢٨٦ هـ / ٨٩٩ م) ، وآخر للاصطخري (٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) ، وغيره لقدامة بن جعفر (بين ٣١٠ و ٣٢٠ هـ / ٩٢٢ م) بعنوان « كتاب الخراج وصناعة الكتابة » ، حيث يبين الطرق والمسافات وديوان البريد فضلاً عن قيمة جباية الدولة ، وقد ألفه في عهد المكتفي بالله في أواخر القرن الثالث الهجري عندما قلده منصب صاحب البريد . وقد وصل اليينا القسم الخاص بالخراج ، لهذا ألحق بكتاب ابن خرداذبة . كما ألف الوراق (٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م) كتاباً في المسالك والممالك ، وكذلك البكري (٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م) والجهاني وغيرهم . وتطلبت السياسة والادارة والتجارة وما اليها وصفاً دقيقاً للامكنة والبقاع ، فاتسع وبصورة تدريجية وصف المدن والاقطار من طراز الفضائل ليتحول الى « كتب البلدان » ، وأقدمها مصنف هشام الكلبي (حوالي ٢٠٦ هـ / ٨٢٠ م) « البلدان الكبير والبلدان الصغير » ، وهي أول الكتب التي ظهرت في أخبار البلدان . وظهر بعدها « كتاب البلدان » لليعقوبي (٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م) الذي وضعه سنة ٢٧٨ هـ . ويعود اليه الفضل في تسمية علم الجغرافية (بعلم أخبار البلدان) وفي ظهور « جغرافية المدن » . إذ ان من بين ما يتميز به اليعقوبي ولعه بالاحصائيات والوصف الطوبوغرافي في للمدن لا سيما بغداد وسامراء (٣٢) .

ومن المؤلفات البلدانية ، الاخرى مصنف البلاذري (٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) « فتوح البلدان » ، ومصنف ابن الفقيه الهمداني (حوالي ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م) « مختصر كتاب البلدان » وابن رسته « الاعلاق النفيسة » .

٣- المصنفات الطوبوغرافية

اهتمت الجغرافية الوصفية ، زيادةً على ما تقدم ، بنوع من المؤلفات التاريخية الجغرافية انصبت الدراسة فيها على مدن مفردة في نواحي شتى من العالم الاسلامي وتمدنا بالمعلومات الجغرافية عنها ، أطلق عليها اسم « المصنفات الطوبوغرافية » وهي خاصة بالمدن والخطط ، ومن اشهر تلك المؤلفات ما كتبه الخطيب البغدادي (٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م) عن مدينة بغداد ، ووصف ابن جامع للاسكندرية ، وعبد اللطيف عن مصر ، وهذه تعتبر من أهم الكتب الطوبوغرافية في العصور الوسطى .

وقد اكتسب الادب الجغرافي الطوبوغرافي انتشاراً واسعاً في مصر بصورة خاصة حيث يمكننا أن نتتبع منذ النصف الثاني للقرن التاسع ميلاد نوع فريد مستقل من المصنفات من الطراز المعروف باسم الخطط ، اي وصف الاحياء والنواحي ، وقد ظل مزدهراً بمصر الى القرن التاسع عشر . وأول مؤلف يصل إلينا من هذا النوع « فتوح مصر » لابن عبد الحكم (٢٥٧ هـ / ٨٧١ م) وعلى غرارها جاءت مصنفات المقرئزي (٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) الذي اهتم بالجانب الاجتماعي والديموغرافي للتاريخ ، وكذلك السيوطي ، كما اهتم به ياقوت في معجمه .

٤- الجغرافية الاقليمية :

تناولت الجغرافية الوصفية بين ما تناولته من فروع الجغرافية ، فرع أطلق عليه اسم « الجغرافية الاقليمية » . وقد تناولها اللغويون الذين انصرفوا انصرافاً تاماً الى الجزيرة العربية . وقد لاحظ ياقوت الحموي بالكثير من الدقة ، وذلك عند تحليله لمصادر معجمه ، ان الكتب التي صنفت في اسماء الاماكن صنفان : (٣٢) أحدهما قصد به ذكر الاماكن العربية والمنازل البدوية حيث ينسبهم ياقوت الى « طبقة أهل الادب » أي اللغويون - ويدخل الصنف الآخر تحت باب كتب البلدان والمسالك - وجُل قصدهم شرح الالفاظ وتحديد الاماكن ، وقد شذ بعضهم عن ذلك كعشام الكلبلي حيث انفرد بالتأليف الجغرافي الصرف زيادةً على مؤلفاته في اللغة والادب والتاريخ . (٣٣) الا ان الكلبلي يجب أن يحتل مكانة اولى في التراث الجغرافي اللغوي ، فهو خبير بالجاهلية وصاحب كتاب الاصنام ، وجمهرة الانساب . والاعتراف به كحجة يؤكده ياقوت ، فقد أورد إسمه (٣٥٠) مرة . ويعتبره المصدر الاساس عن جزيرة العرب ، على الرغم من أنه أول مؤلف بالنسبة لعصره يكتب في موضوعات جغرافية عامة تتجاوز نطاق جزيرة العرب الى خارجها مثل الكوفة والرها والنهروان والمخزوم قرب بغداد ، كما ظهر من الاقتباسات التي ينقلها عنه ياقوت .

ومن مصنفات الجغرافية الاقليمية الاخرى نذكر كتاب « مكة

والحرم » لابي عبيدة (٢١٠ هـ / ٨٢٥ م) ، وكتاب « الجبال والودية » لابن حمدويه (٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م) ، وكتاب « المناهل والقرى » لابي سعيد السكري (٢٧٥ هـ / ٨٨٨ م) ، و « كتاب جزيرة العرب » للاصمعي وتلميذه سعدان بن المبارك (٢٢٠ هـ / ٨٣٥ م) صاحب كتاب « الارضين والمياه والجبال والبحار » وينحصر بحثه ضمن نطاق جزيرة العرب أيضاً . كما ألف أبو زيد الانصاري (٢١٥ هـ / ٨٣٠ م) كتاب « المياه » (٣٤) الا ان اعظم مصنفات الجغرافية الاقليمية هو « صفة جزيرة العرب » للهمداني (٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م) الذي يمتاز على جميع مصنفات القرنين التاسع والعاشر ولا يبيزه في القرن العاشر الا مصنف البيروني « الهند » .

وكان مفهوم الاقليم يقوم على أساس تقسيم الارض حسب درجات العرض على صفة مناطق تمتد موازية لخط الاستواء ، وبهذا قُسمت الارض الى سبعة اقاليم . في حين ان للاقليم مفهوم جديد عند الهمداني كما سبق القول ، كذلك عند الاصطخري ويقوم على أساس تقسيم العالم الاسلامي الى عشرين اقليماً ، وخص كل واحد منها بخريطة (صورة) حددها بما كانت عليه في أواسط القرن العاشر الميلادي . لهذا يُعد الاصطخري على رأس مدرسة جغرافية جديدة تختلف عما سبقتها من مدارس (٣٥)

والاصطخري في مؤلفه « المسالك والممالك » قد حدد نفسه بمنهج واضح حينما تحدث عن اقاليم الارض في بلاد الاسلام بقوله : « ... ولم أقصد الاقاليم السبعة التي عليها قسمة الارض ، بل جعلت كل قطعة أفردتها مفردة مصورة ، تحكي موضع ذلك الاقليم ، ثم ذكرت ما يحيط به من الاماكن ... فاكتفيت ببيان موقع كل اقليم ليعرف مكانه ، ثم افردت لكل اقليم من بلاد الاسلام صورة على حدة ، بينت فيها شكل ذلك الاقليم وما يقع فيه من المدن وسائر ما يحتاج الى علمه ... » (٣٦)

وبهذا حدد الاصطخري نفسه بأن كتابه في الجغرافية الاقليمية وليس في الجغرافية العامة التي كتب فيها معظم من تقدمه . ومفهوم الاقليم الجغرافي واضح في ذهنه ، فهو لا يعني تلك الاقاليم السبعة التي اصطلح عليها القدماء ، وليس الاقليم منطقة من الارض تحكمها دولة بعينها (٣٨) وانما هو منطقة جغرافية ذات مظاهر طبيعية تكسبها شخصية مستقلة متميزة . ولذلك فهو يميز بين خراسان وما وراء النهر مع انهما تحت حكم السامانيين ، ويجعل كلاً منهما اقليماً قائماً بذاته . ويعمل بين آونة واخرى السبب في أنه ضم جزء الى هذا الاقليم أو ذاك ، فيقول مثلاً : « فأما الرّي فإنا ضممناه الى الديلم وإن كانت قائمة بنفسها ، لان اتصالها بها اتصال واحد وليس بينهما حاجز يستحق به الانفرد عنها ... » (٣٩) ومن قوله أيضاً

في ما وراء النهر : « وقد كان في التقدير ان تصور خوارزم في صورة خراسان ونصفها في صورة ما وراء النهر ، غير ان الغرض في هذا الكتاب معرفة هذه الاقاليم ومدنها ، فاخترت ان تكون خوارزم مجموعة في الصورة وجعلتها في صورة ما وراء النهر فابلق بذلك غرضي من غير تكرار في الصورتين » .^(٤٠)

ويجعل الاصطخري كلاً من بلاد العرب ، ومصر ، والمغرب ، ويحر الروم ، ويحر الخزر أقاليم قائمة بذاتها ، وذلك لان لكل منها ظروفاً طبيعية تميزها عن غيرها وبهذا فإن الاصطخري لا يقبل التقسيم الاداري الذي دعت اليه ظروف غير جغرافية ، وانما يجعل المنطقة وحدة ولا يجزئها إلا اذا جزأتها الطبيعة ، وجاء المقدسي بعد الاصطخري فلم ينس مفهوم الاقليم عندما تحدث عن بلده فلسطين ، وقسم المقدسي مملكة الاسلام الى اربعة عشر اقليماً ، وفي هذا يقول : « وأفردنا اقاليم العجم عن اقاليم العرب ثم فصلنا كور كل اقليم ونصبنا أمصارها وذكرنا قصباتها وربطنا مدنها وأجنادها بعدما مثلناها ورسماً حدودها وخططها وحزنا طرقها المعروفة ... »^(٤١) بعد ان وضع في خرائطه لكل ظاهرة لونها ليسهل ادراكها وفهمها .

واذا كانت الجغرافية الاقليمية قد اهتم بها اللغويون (اهل الادب) ، فإن كبار العلماء لم يحصروا نشاطهم في حدود ضيقة كاللغويين ، فعالم كالجاحظ (٢٥٥ هـ / ٨٦٩ م) صنف كتاب « الحيوان » ، وهو كتاب جامع يحفل بالكثير من المعلومات (جغرافية حيوية ، اثنوغرافيا ، انثروبولوجيا)^(٤٢) على الرغم من غلبة الموضوعات الادبية عليه . وسار على منواله ابن الفقيه الهمداني الذي اعتمد على ابن خردادبه ونقل حرفياً على ما كتبه حول صفة الارض والاقاليم السبعة .^(٤٣)

وتم الكشف في الآونة الاخيرة عن مصنف للجاحظ يقف دليلاً على اهتمامه الواسع بالجغرافية . ويمكن اعتباره أول محاولة للعرب في الجغرافية الاقتصادية ، أو على وجه الدقة « جغرافية التجارة » ، أعني بذلك الرسالة الصغيرة المعروفة باسم « التبصر بالتجارة » . وهي تعالج السلع التجارية وأسعارها والمستورد منها .^(٤٤)

٥ - كتب الرحلات :

ان ميول العرب للرحلة في طلب العلم وتقصي الأخبار ومغامراتهم البحرية بقصد التجارة أو غيرها كانت تحتل حيزاً مهماً في التراث الثقافي العربي . وكثيراً ما كانت هذه الرحلات تلاقي تشجيعاً رسمياً ودعمًا مالياً في سبيل تحقيق اغراضها في الاطلاع على شؤون البلاد النائية وتوثيق الصلات التجارية معها .^(٤٥) وتدل الشواهد بان العرب قد أسسوا مركزاً لهم في ميناء كانتون الصيني منذ أوائل القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) . واستمرار الصلات التجارية معها مهدت السبيل لرحلة التجار العرب الآخرين الى الهند والصين فيما

بعد .

وقد ثبتت الصورة النهائية لقصص الرحلات في القرن التاسع الميلادي ، واقدم رحلات هذا القرن تلك الحكايات والأخبار التي رواها ابن خردادبه عن سلام الترحمان ، ومحمد بن موسى المنجم ، وأبو زيد السيرافي عن سليمان التاجر ، وابن وهب ، وما رواه اليعقوبي وخبر به عن رحلاته التي أورد فيها وصفاً مفصلاً عن البلدان التي زارها ومظاهرها الطبيعية ونواحيها البشرية . مما ساعد على ظهور كتب الرحلات في القرن التاسع التي استمرت طيلة القرون الخمسة التالية .^(٤٦)

ويعتبر القرن العاشر الميلادي من أحفل القرون بأخبار الرحالة العرب ، إذ يمكن الاستنتاج انهم وصلوا شواطئ امريكا من خلال رواية الادريسي . وتوغلوا في بلاد الروس ، وتنقلوا في العالم الاسلامي من شرقه الى غربه . وتحدثوا عما صادفوه من التجارب والمشاهدات خلال رحلاتهم في مؤلفاتهم . ولم يزل بعضها يعتبر حتى اليوم دليل المؤرخ والجغرافي والباحث ، ومرجعاً مهماً عن البلدان التي زارها .^(٤٧) وتعتبر رحلة ابن جببر (٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م) من الناحية الفنية ذروة ما بلغه نمط الرحلة في الادب العربي . وقد اختتم ابن بطوطة (٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ م) سلسلة الرحلات العربية ذات الاهمية العالمية بعد أن أمضى ٢٨ عاماً في رحلته وقطع خلالها ما يعادل (١٢٠) ألف كيلومتر .^(٤٨)

أما دوافع تلك الرحلات فيمكن ايجازها فيما يأتي :

أ - في سبيل الكشف والمغامرة كرحلة الفتية المغرورين (أي المخاطرين) حيث قام ثمانية شبان أبناء عمومة برحلة من لشبونة في بحر الظلمات (المحيط الاطلسي) كما رواها الادريسي . وعرب الاندلس رغم تخوفهم من البحر المذكور ، قاموا بعدة محاولات للكشف فيه خلال القرن التاسع كما أشار الى ذلك المسعودي .^(٤٩) وأقدم « محمد بن قو » سلطان مالي خلال القرن الرابع عشر الميلادي على رحلة جريئة في المحيط الاطلسي حاول خلالها أن يصل الى الشاطئ الغربي لبحر اللجي أي بحر الظلمات ، كما رواها القلقشندي في صبح الأعشى .^(٥٠)

ب - في سبيل الرزق والمعرفة وحب الاستطلاع كرحلة ابن حوقل والمسعودي والمقدسي . فقد أتحفنا المسعودي (٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) ، الذي قضى ٢٥ سنة من حياته في التطواف ، بمشاهداته عن بدائع الامم وخواص الاقاليم وتفسير بعض ظواهرات الجغرافية الطبيعية مثل كروية الارض وغلافها الغازي والرياح الموسمية والمواقيت الصالحة للملاحة . ومن الغريب أن توجد لديه فكرة وحدة الشعوب السامية قبل عهد طويل من ظهورها كنظرية علمية في اوربا . الا ان المسعودي شأن الغالبية من مؤلفي عصره يعني بالتسجيل اكثر مما يعني بتحقيق ما يسجل .

ولرحلة المقدسي (حوالي ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م) قيمة جغرافية عالية تجعلها وثيقة يستند عليها الجغرافي الذي يبغي معلومات عن البلدان التي وصلها المقدسي البشاري فيما يخص فروع الجغرافية الطبيعية والبشرية والاقتصادية والعمرانية . واقترب في كثير من ملاحظاته لفهم الجغرافية على الطريقة الحديثة واستخدامها كاداة للتثقيف العام .

أما ابن حوقل (٣٦٧ هـ / ٩٧٨ م) فقد ذكر كل ما شاهده من ظواهر في كتابه « صورة الارض » الذي يعد موسوعة جغرافية ، لأن ابن حوقل لم يدع صغيرة ولا كبيرة الا وقد تطرق اليها . فهو يقول : « ... وقد جعلت لكل قطعة أفردتها تصويراً وشكلاً يحكي موضوع ذلك الاقليم ... واعانني عليه تواصل السفر وانزعاجي عن وطني ... » (٥٠).

ج - الاطلاع بمهمة رسمية كانت الدولة تكلفهم بها فيسافرون كرسل للخليفة أو كسفراء له فوق العادة بلغة عصرنا ، فساعدت على توسيع المعلومات الجغرافية عن البلاد الأجنبية . وأقدم بعثة اسلامية أرسلت الى الصين كانت في زمن الخليفة عثمان (ر) سنة ٣١١ هـ / ٦٥١ م . وارسلت بعثات اخرى الى الصين ، منها اثنتان : الاولى أوفدها الخليفة ابو جعفر المنصور (١٤٥ - ١٥٨ هـ / ٧٦٢ - ٧٧٥ م) ، والثانية أرسلها الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ / ٧٨٦ - ٨٠٩ م) (٥١).

ولعبت بعض الشخصيات العربية دور الدبلوماسي الناجح مثل « يحيى بن الحكم البكري » الملقب بالغازال (٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م) ، حيث لعب دور الدبلوماسي مرتين ، وهو على معرفة بعدد من اللغات . وكان أمير قرطبة عبد الرحمن الثاني (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ / ٨٢١ - ٨٥٢ م) قد وجهه الى بلاد الشمال لمفاوضة النورمان سنة ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م والذين سبق وان اغاروا على الاندلس . ويبدو أنه قد زار قبل هذا القسطنطينية ضمن سفارة أوفدت لعقد معاهدة صلح مع الامبراطور (تيوفيل) (٥٢).

ولعب دور الدبلوماسي أيضاً رسول الخليفة المقتدر الى بلاد البلغار وبلاد الخزر (احمد بن فضلان) سنة ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م مع وفد لتفقيه البلغار امور الدين الاسلامي بعد دخولهم فيه ، فصنف رسالة في وصف رحلته عرفت باسمه ذكر فيها ما شاهده في بلاد البلغار موضحاً فيها حياة السكان وعاداتهم وحضارتهم وتجارتهن . وتضم هذه الرحلة أقدم المعلومات وأوثقها عن البلغار والروس وأهل الخزر . وأعقب تلك الرحلة زيارة التجار العرب لتلك الاصقاع وبسط نطاق نشاطهم على أرجائها وبخاصة في جنوب روسيا وبولندا ، ولم تغفل الدول الاسكندنافية من ملاحظاتهم (٥٣).

كما لعب دور الدبلوماسي « أبو دلف مسعر بن مهلهل

الخرزجي » رسول الامير الساماني نصر بن أحمد الى الصين في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، و« ابن سليم الاسواني » مبعوث الخليفة المعز لدين الله الفاطمي الى ملك النوبة في السودان (٥٤).

وبالاضافة الى المعلومات الجغرافية التي وصلتتنا عن طريق الدبلوماسيين ، فإن الأسرى قد لعبوا دورهم أيضاً في توسيع مدارك العرب عن أوصاف الغرب حيث أثروا الجغرافية العربية بمعلومات مفصلة ودقيقة عن المناطق التي بقوا فيها . ومن أشهر هؤلاء « مسلم الجزمي » الذي أطلق سراحه من أسر البيزنطيين (ربما سنة ٢٣١ هـ / ٨٤٥ م) . وتعد مصنفاته مصدراً مهماً للغاية في معرفة العرب بشؤون الدولة البيزنطية ، وقدمت فيه معلومات مفصلة عن الصقلية وجيرانهم . وبعد نصف قرن (٢٨٨ هـ / ٩٠٠ م) قدم لنا اسير آخر من أسرى البيزنطيين هو « هارون بن يحيى » معلومات مهمة لا سيما وصفه الجيد للقسطنطينية (٥٥).

د - الرحلة في سبيل التجارة :

لقد نشطت الرحلة في سبيل التجارة بالطريق البحري مع الهند والصين حيث وصل العرب من طائفة الاباضية الى الصين ويمكن اعتبارهم ممهدي الطريق للتاجر سليمان ولابن وهب . وإلى نفس العهد المبكر الذي يسبق القرن التاسع ترجع اول معرفة للعرب بالطريق البري الذي يخترق آسيا الوسطى الى الصين اعتماداً على الوصف الذي يقدمه تميم بن بحر المطوعي ، ويعتبر ابن خرداذبة اول جغرافي عربي يحفظ لنا وصف الطريق البري الى الصين (٥٦).

وترجع قصص رحلات التاجر سليمان الى عام ٢٣٧ هـ / ٨٥١ م ، وقد سافر مراراً بقصد التجارة الى الهند والصين ، ويصف لنا الطريق بدرجة من الدقة مكنت (فيران) من تتبعه على الخرائط الحديثة . كما ترك لنا سليمان وصفاً للسواحل والجزر والموانئ والمدن وسكانها والمحاصيل وبلغ التجارة . وتعد رحلته مستند مهم لفهم المعارف البحرية في القرون الوسطى ، وعن طريقها دخلت اقاليم الهند والصين في معارف الجغرافية العربية . كما أنه أول مؤلف غير صيني يوصي الى الشاي .

الجغرافية الطبيعية

على الرغم من اهتمام الفكر الجغرافي بالجغرافية الرياضية والوصفية بمختلف فروعها ، الا ان الجغرافيين العرب لم ينسوا ظواهر الجغرافية الطبيعية فيما كتبوه وان لم يصنفوا فيها بصورة مستقلة الا قليلاً كابي زيد الانصاري صاحب كتاب المطر . وقد تناولوا بعض المظاهر الطبيعية ضمن الجغرافية الفلكية وبعضها الآخر ضمن الجغرافية الوصفية .

فمن بين ما تضمنته مؤلفاتهم من ظواهر طبيعية ما أشار اليه البيروني من تفسير لتكوين سهل هندستان فذكر ان مكانه كان قاع بحر ملأته الترسبات الطموية ، وهو تفسير قريب من الفكرة الحديثة . وورد في كتابه « تحديد نهايات الاماكن لتصحيح مسافات المساكن » آراء في كيفية تكوين القشرة الارضية . وله آراء في العصور الجيولوجية ، وصنف عدة مؤلفات على قدم الارض وما اعتراها من ثورات بركانية وزلازل وتعرية .^(٥٨)

والاصطخري هو الآخر لم يغفل الناحية الطبيعية من الجغرافية فيما كتبه فالعالم عنده قسمان ، شمالي وجنوبي والحد الفاصل بينهما هو ما يقرب من خط عرض ٣٥ ° شمالا . والاقاليم التي تقع الى شمال هذا الخط أميل الى البرودة . وسكانها بيض البشرة وتزداد البشرة بياضا كلما أوغلنا نحو الشمال . أما الى جنوبه فبلاد حارة ، أهلها سود البشرة ، ويزدادون سوادا كلما ابتعدوا الى الجنوب . وتنقسم الاصطخري هذا فيه من الصحة الشيء الكثير .^(٥٩)

كما وردت آراء طريفة في (رسائل اخوان الصفا) في مجال الجغرافية الطبيعية . فقد لاحظوا ارتفاع حرارة الغلاف الجوي نتيجة لانعكاس أشعة الشمس على سطح الارض . كما لاحظوا وجود التغير التدريجي في موضع كل من اليايس والماء ، وتثبتوا أيضاً من أصل المناخ والأنهار .^(٦٠)

واحتوى كتاب ابو الفدا « تقويم البلدان » بين ما احتواه معلومات في الجغرافية الطبيعية ، وقل نفس الشيء عن « مروج الذهب » للمسعودي ، وربط المقدسي بين الظروف الطبيعية والانتاج الزراعي . كما ان للقلقشندي اهتمامات بالجغرافية الطبيعية ولكنه يقتصر على الجانب الوصفي منها دون الجانب التحليلي . وسيشار الى ما كتبه ياقوت الحموي في معجمه عن ظواهر الجغرافية الطبيعية في مكان آخر .

اصالة الجغرافية العربية

ذكر أبو الفدا أسماء (٦٠) عالماً جغرافياً من الذين ظهروا قبله .^(٦١) وتضم المكتبة الجغرافية العربية انتاج ما يقرب من الثلاثين من كبار المؤلفين العرب الذين وصلت اليها آثارهم .^(٦٢) وهذا يدل على ما تزخر به الجغرافية العربية من مصنفات في مجال اختصاصها وما للعرب من فضل على علم الجغرافية وتطوره .

والجغرافيون العرب بعد أن نقلوا عن اليونان وغيرهم ، زادوا عليها ما شاهدوه اثناء خوضهم البحار وارتيادهم الاخطار وتميزوا على الرومان شاهده اثناء خوضهم البحار ، وارتيادهم الاخطار . وتميزوا على الرومان بكونهم عرفوا الصين وافريقيا واجتيازهم الصحراء الى ان وصلوا الى السودان ورغم

اعتقادهم بأن جهود الاغريق بلغت ذروتها فيما كتبه بطليموس الا انهم لم يتقبلوا كل ما جاءت في كتاباته . فقد حرصوا في بداية الامر على تفهم ما انتهى اليه غيرهم ، ثم انتهجوا نهجاً خاصاً بهم حيث اخذوا يحلون ويناقشون الآراء الواردة في تلك الكتابات نتيجة لدراساتهم وتحقيقاتهم الخاصة . فأعادوا حساب طول الدرجة وتوصلوا الى نتائج في غاية الدقة .

وقد فند العرب بعض الآراء التي جاء بها بطليموس وصححو كثيراً من أخطائه ، إذ ان عدداً ليس بالقليل من مواقع المدن التي عينها بطليموس كانت غير مطابقة للواقع . ويكفي أن تقابل بين الامكنة التي عينها الاغريق وتلك التي عينها العرب ليظهر مدى التقدم الذي احرزه العرب الذين توصلوا الى معارف فلكية مضبوطة ساعدتهم على تصحيح الخرائط اليونانية ورسم غيرها مضبوطة .^(٦٣)

فمن الأخطاء التي وقع فيها بطليموس وصححها الجغرافيون العرب تقديره لطول البحر المتوسط بـ (٦٢) درجة ، اختزلها الخوارزمي الى (٥٢) درجة ، وتلاه أبو اسحاق الزرقالي (٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م) فاختره الى (٤٢) درجة ، أي ما يعادل طوله الحقيقي .^(٦٤) أي ان مقدار غلظه بلغ نحو ٤٠٠ فرسخ .^(٦٥)

واخطأ بطليموس في تقدير طول البحر الهندي الذي اعتبره بحيرة مقفلة فقدر طوله بـ (٨٠) درجة ، في حين لم يتجاوز طوله الحقيقي ٤٢ درجة .^(٦٦) ومن أخطاء بطليموس أيضاً جعله ساحل افريقيا الشرقي ممتداً نحو الشرق الى ما يقابل ساحل الصين . وقد انتبه البتاني والمسعودي الى ذلك فجعلوا ساحل افريقيا محاطاً بالبحر من جميع الاطراف ، كما جعلوا البحر الهندي بحراً مفتوحاً كما هو عليه الحال .^(٦٧) وبالإضافة الى ما تقدم فقد أخطأ بطليموس في قياس محيط الدائرة العظمى للارض وبلغ الفرق بين قياساته وما توصل اليه العلم الحديث بنحو ١٧٢٠ كم بالنقصان . في حين بلغ الفرق المذكور عند الخوارزمي ورفاقه بنحو ١٧٨ كم فقط بالزيادة على ما يظنه (سوتر) .^(٦٨)

وبلغت الجغرافية العربية ذروتها في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) الذي يمثل دور النضج والابداع والابتكار في الجغرافية ، حيث ظهرت فيه سلسلة مصنفات جغرافية شقت طريقها نحو تكوين نهج عربي خاص يتصل اتصالاً وثيقاً بـ « اطلس الاسلام » . وقد بلغت جهود العرب الجغرافية ذروتها فيما كتبه المسعودي ، واكتملت معرفتهم عن العالم فيما كتبه البيروني عن الشرق . والادريسي في القرن الذي يليه عن الغرب .

وأهم ما اتصفت به الجغرافية العربية انها كانت تقوم على أساس المشاهدة الفعلية والتحقيق . فشغف الجغرافيون العرب

بالاسفار والجولان في مختلف انحاء العالم لجمع معلوماتهم عن شاهد عيان ، مما يزيد في قيمة صحة المعلومات .

فالبعض يقول عن نفسه أنه سافر وحدث وقال : « ... فكنت متى لقيت رجلاً من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصره ... مسافة ذلك البلد ... ومبلغ خراجته ... » (٧٠) وابن حوقل يقول : « ... واعانني عليه تواصل السفر وانزعاجي عن وطني ... » (٧١) وأما المقدسي فقد جال في البلدان وساح في البراري وتاه في الصحاري وأشرف على الفرق . وقد انتقد في كتابه « احسن التقاسيم » من سبقه من الجغرافيين الذين لم يعتمدوا فيما كتبوه على المشاهدة والمعاينة والتحقيق والتحليل . فقد انتقد (الجيهاني) الذي جمع « الغرائب وسألهم عن الممالك » ولم يعتمد على مشاهداته . وانتقد أبا (زيد البلخي) الذي اختصر « ولم يذكر الاسباب المفيدة ولا أوضح البلدان ولا وطىء الاعمال ... » . وأما (ابن الفقيه الهمداني) فقد أدخل « في كتابه ما لا يليق به من العلوم » . وأما (الجاحظ ، وابن خرداذبة) فإن كتابيهما « مختصران جداً لا يحصل منهما كثير فائدة » . ويقول مؤكداً فضل كتابه على كتب الآخرين : « ... لا يعرف فضل كتابنا هذا إلا من نظري كتبه أو دُخِ البلدان وكان من أهل العلم والفطنة » . ويقول مفتخراً : « اعلم اني اسست هذا الكتاب على قواعد محكمة واسندته بدعائم قوية وتحريث جهدي الصواب ... » . فقد « نكرنا ما رأيناه وحكيما ما سمعناه ، فما صغ عندنا بالمعاينة وأخبار التواتر أرسلنا به القول وما شككنا فيه ، وكان من طريق الأحاد أسندناه الى الذي منه سمعناه ... » (٧٢)

أما هدف المقدسي من وراء ذلك فهو وكما يقول « ان أقصد علماً قد اغفلوه ، وانفردت بغيري لم يذكره ... » (٧٣) ولم يتوصل الى هذا العلم الا بعد جولاته ومشاهداته الميدانية أو على حد قوله « وما تم لي جمعه الا بعد جولاني في البلدان ودخولي اقاليم الاسلام ولقاءي العلماء وخدمتي الملوك ومجلستي القضاة ودرسي على الفقهاء واختلائي الى الادباء والقراء وكتبه الحديث ... مع لزوم التجارة في كل بلد والمعاينة مع كل أحد ، والتفطن في هذه الاسباب بفهم قوي حتى عرفت ما مساحا الاقاليم بالفراخ حتى اتقنتها ودوراني على التخوم حتى حررتها ، وتنقلي الى الأجناد حتى عرفت ما ... » (٧٤)

أما ابو الفدا (٧٢٢ هـ / ١٣٣١ م) فقد تناول في كتابه « فتوح البلدان » من تقدمه من الجغرافيين بالنقد فذكر ان ابن خرداذبة وابن حوقل والادريسي لم يحققوا الاطوال والعروض ، ومؤلفو الزيجات وغيرهم لم يحققوا في الاسماء ، أما هو فقد جمع بين التحقيق في الاسماء والاطوال والعروض (٧٥) . ومما أمتازت به الجغرافية العربية أيضاً عدم ترك الظاهرة الجغرافية دون تحليل أو تحليل في كثير من الحالات .

فدري البيروني يفسر امتناع الهنود عن اكل لحوم البقر بأسباب اقتصادية ، ويربطه حركة المد والجزر بأوجه القمر ، أي كما يقول العلم الحديث تماماً . ويحاول الاصطخري ان يربط العلة بالمعلول كما يتضح من مقدمته حول مفهوم الاقليم . وابن خلدون هو الآخر يملل كثيراً من المظاهر البشرية والاقتصادية بموامل مناخية . وهكذا قل بالنسبة لبقية الجغرافيين .

أما الانتقاد الذي يوجه الى الجغرافية العربية فهو خلوها من بيانات تتعلق بعدد السكان وتوزيعهم . وكذلك احصاءات الانتاج الزراعي والصناعي والنشاط التجاري باستثناء الاحصاءات المتعلقة بالخراج ودخل الدولة ، وارقام اخرى متناثرة هنا وهناك . والارقام التي يوردها قدامة بن جعفر عن ارتفاع السواد ماخوذة من القيود الرسمية للسنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م ، وهو يذكرها بالحنطة والشعير والدرهم .

المدارس الجغرافية العربية

يمكن تمييز أربع مدارس جغرافية عربية من حيث مدى اصالتها وتأثيرها بمعارف الاقوام الاخرى (٧٦)

١ - مدرسة العصر العباسي : وهي المدرسة المتأثرة في أول نشأتها بالفكر الهندي (مثل اعتمادها تقسيم العالم على اساس نظام (الكشاور) على شكل دوائر ، وكذلك تأثرها بنظام الفلك الهندي المسمى (السندهند) . وفي عصر الترجمة ازداد تأثير اليونان واصبح هو السائد فاخذ الجغرافيون العرب بنظريات بطليموس القائلة بكرة الارض وثبوتها ودوران الكرة السماوية حولها ، وقد قبلها الجغرافيون العرب باستثناء البيروني . كما اخذوا بتقسيم الارض الى سبعة اقاليم ، أو بالأطوال والعروض التي جاء بها بطليموس ، وغير ذلك ، وقد اتضح التأثير المذكور في مجال الجغرافية الكمية الرياضية والفلكية) ، وسبق توضيحها فيما تقدم .

ومع ان العرب قد تأثروا بما ذكر الا انهم وجدوا اخطاء عديدة عند بطليموس فابتكروا وسائل جديدة للقياس وقاموا بتصحيح كثيراً من الاماكن والنظريات المغلوطة عند بطليموس .

٢ - مدرسة الخوارزمي العربية :

وهي من ابتكار الجغرافيين العرب ولا صلة لها بغيرهم . ابتدأت في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) على يد محمد بن موسى الخوارزمي الذي قسم العالم على اساس الاقاليم السبعة وفق الاحداثيات الجغرافية على شكل مستطيلات متوازية مستفيداً مما حصل من تقدم فلكي عربي واجهزة قياس في عصر الترجمة ، وسار على منوال الخوارزمي فيما بعد عدة علماء اشرهم الفرغاني والبيروني وسهراب . وكان اتجاه هذه المدرسة كميأ أساسه الرياضيات والفلك .

٣- المدرسة العربية الاسلامية :

يمثل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) عصر ازدهار الحضارة العربية الاسلامية ، وفيه بلغت الجغرافية العربية مرحلة النضج من حيث اعتماد بحوثها على الرؤية والمشاهدة وجمع المعلومات من الحقل من خلال الرحلات والزيارات أو عن طريق السؤال . فضلاً عن اعتمادها على المصادر السابقة بعد النقد والتمحيص والتدقيق .

وانطلاقاً من المنهج المذكور ظهرت المدرسة العربية الاسلامية ، وقد حذت مصنفاتها حذو كتب المسالك والممالك بعد ان كان اتجاه مدرسة الخوارزمي كميّاً . ويعود الفضل بهذا الاتجاه الى ابي زيد البلخي (٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م) مؤسس هذه المدرسة ، وأول من استقل عن بطليموس في كتابه « صورة الاقاليم » حيث يقول عنه المقدسي أنه قسم الأرض الى عشرين جزءاً^(٧٦) . وهنا يبدو الانفصال عن بطليموس . وقد ركز البلخي اهتمامه بوصف العالم الاسلامي ، ثم (اخذ عنه وأضاف اليه الجغرافي المشهور (الاصطخري) وعلى هذا الأخير اعتمد ابن حوقل^(٧٧) . وهو رحالة أصله من بغداد ولكنه عاش طويلاً في شمال افريقيا فصحه واستدرك عليه . وتعالج هذه المدرسة كل بلد ومن حدوده السياسية مع خارطة توضح هذه الحدود وتبين مواقع المدن والجبال والانهار والبحار معتمدةً على الاحداثيات الجغرافية . وتقتصر هذه المدرسة في مادتها على جغرافية بلاد الاسلام ، وتهمل الاقطار الواقعة خارجها ، ودون اهتمام كبير بخطوط الطول ودوائر العرض .

وبتدرج في هذه المدرسة عدد من المصنفات المماثلة ، كما انها - منفصل عن سلسلة الخرائط المرتبطة بها والمعروفة باسم (اطلس الاسلام) التي ليس لها علاقة بال نماذج البطليموسية . وسار على منوال هذه المدرسة بعض الجغرافيين أمثال (ابن خرداذبة ، اليعقوبي ، ابن الفقيه الهمداني ، ابن رسته ، المسعودي) الا انهم لم يقتصرُوا على وصف العالم الاسلامي ، بل شملت مصنفاتهم البلدان غير الاسلامية ، كما أولوا نفس القدر من الاهتمام بقصص العجائب .

ويضم أطلس الاسلام ، ٢١ خارطة تتابع بالصورة الاتية : يبدأ بخارطة العالم المستديرة ، يليها خارطة جزيرة العرب ، ثم بحر فارس والمغرب ومصر والشام وبحر الروم ، وأربع عشرة خارطة أخرى تمثل الاجزاء الوسطى والشرقية للعالم الاسلامي^(٧٨) . وقد أحصى (ميللر) ٢٧٥ خارطة وصلت اليها من ذلك العصر للعالم الاسلامي . وكانت تمثل إنتاجاً عربياً خالصاً كما يقول (ميللر) ، اطلق عليها اسم (أطلس الاسلام) باستثناء خرائط الادريسي^(٧٩) .

والمقدسي هو آخر الممثلين الكبار للمدرسة العربية الاسلامية أو كما يسميها البعض باسم (المدرسة

الكلاسيكية) ، حيث تنعكس صلته بهذه المدرسة في الخرائط اكثر مما في المتن . ويلاحظ في خرائطه تقدم المعلومات الجغرافية . كما ان تقسيم الاقاليم عنده يختلف بعض الشيء عما هو عليه في أطلس الاسلام . وهو يقصر وصفه على العالم الاسلامي . ويعتبره (اشبرنجر) اكبر « جغرافي عرفته البشرية قاطبة » ، أو هو وكما يقول عنه كراتشكوفسكي « جغرافياً عظيماً وواحداً من كبار الكتاب العرب قاطبة »^(٨٠) .

٤- المدرسة الجغرافية التاريخية الاندلسية المغربية :

دُرست الجغرافية في المغرب والاندلس على انها متممة للتاريخ ، وكان الرازي (٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م) أول من أدخل الجغرافية الاقليمية الى الاندلس بهذا المفهوم وفي هذا حذوه الوراق (٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م) ثم الطوطوشي والعذري والبكري . وكان الادريسي (٥٦٠ هـ / ١١٧٣ م) أول جغرافي مغربي يعتبر الجغرافية علماً مستقلاً ويقدم دراسته على هذا الاساس .

وتعتبر خرائط الادريسي الأوج الذي بلغه فن رسم الخرائط الجغرافية عند العرب ، وخرائطه تمثل مدرسة جغرافية قائمة بذاتها سماها (ميللر) بـ (المدرسة العربية النورمانية) . ويضم اطلس الادريسي (٧٠) خارطة تمتاز بدقة الرسم وتقوم على أساس الخطوط المستقيمة والدوائر الهندسية^(٨١) . مراعيةً في ذلك خطوط الطول ودوائر العرض ومطابقتها للواقع . وكانت لخرائطه اثر كبير في تصوير العالم للاوربيت مدة طويلة بعد عصره .

ويعد كتابه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » نقطة تحول في النشاط الجغرافي والكارتوغرافي في العالم ، إذ انتقلت حركة الدراسات الجغرافية والكارتوغرافية من المشرق العربي الى المغرب العربي على ساحل البحر المتوسط . مما جعل بعض الباحثين ان يطلقوا اسم (عصر الادريسي) على فترة الانتقال هذه ، باعتباره يمثل جغرافي المغرب^(٨٢) .

والغريب ان معرفة الناس بالادريسي لم تكن واسعة في المشرق الاسلامي . ولا يخلو من مغزى في هذا الصدد أن خبيراً كبيراً بالادب الجغرافي مثل ياقوت الحموي لا يعلم عنه شيئاً على الاطلاق .

وقد توقف الابتكار العربي في الجغرافية بعد الادريسي واستنفذ طاقته الخلاقة بشكل نهائي خلال القرن الخامس عشر . الا ان الادب الجغرافي الملاحي ظل يحتل المكانة الاولى في الادب الجغرافي العربي طيلة القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ويمثل آخر تيار أصيل في هذا المجال حتى فترة متأخرة . ويبرز في هذا الميدان ابن ماجد [٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م] الذي أوجد أنق خارطة بحرية وتكاد تكون الاثر الوحيد الذي استعان بها [فاسكودي غاما]

في تطوافه حول الارض [٨٢]

وتبعاً لما تقدم يمكن تلمس ثلاثة اتجاهات في مصنفات الجغرافية العربية :

- أ - الاتجاه الاول وتتمثل فيه عناية مركزية بأقاليم العالم الاسلامي والاقطار المجاورة له ، ويتمثل هذا الاتجاه في [مدرسة اطلس الاسلام] والكتابالذين ساروا على منوالها .
- ب - يتمثل الاتجاه الثاني بنوع من التخصص في قطر واحد أو منطقة معينة ، وهي تدخل ضمن موضوعات الجغرافية الاقليمية مثل تناول الهمداني لجزيرة العرب ، والبيروني فيما كتبه عن الهند ، ووصف ابن فضلان عن بلغاري الفولغا ، ويتمثل الاتجاه الثاني أيضاً في التخصص بمدينة معينة ودراستها من حيث جغرافيتها التاريخية وخططها وخصائصها الطبوغرافية ، ويأتي اليعقوبي على رأس هذا الاتجاه .
- ج - الاتجاه الثالث وفيه تم التأكيد على المعاجم الجغرافية والموسوعات العامة ، حيث تميزت الفترة التي اعقبت القرن الخامس الهجري بظهور القواميس أو المعاجم الجغرافية مما عزز المكتبة الجغرافية العربية بمعلومات منسقة على النحو المتبع في عصرنا هذا . واشهرها معجم ما استعجم للبكري ، ومعجم البلدان لياقوت الحموي الذي بلغ الاوج في نمط المعاجم .

الهوامش

كما ازدهر نمط الموسوعات العامة [دوائر المعارف] في عصر الماليك حيث افرد فيها للجغرافية مكانة بارزة ومنها الجغرافية العامة والسياسية .

وهذه الموسوعات هي خير ما أنتجه ذلك العصر ، حيث ميزت القرنين الرابع عشر والخامس عشر بهذا النمط من المؤلفات . واكبر تلك الموسوعات : [نهاية الارب] للنويري [٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م] ، و [صبح الاعشى] للقلقشندي ، و [مسالك الابصار] لابن فضل الله العمري [٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م] .

وخاتمة القول : ان العرض والتحليل الذي تضمنه البحث أوضح وجود اتجاهات متعددة بين الجغرافيين العرب ، واختلاف في منهجهم العلمي ، ومستوى نضجهم الفكري ، فهم بين مقلد ومجدد ومبتكر . كما ان اسلوبهم الذي اتبعوه للوصول الى الحقيقة متباين ، فمنهم من اكد على الرواة دون تحقيق الرواية ، ومنهم من اعتمد على السؤال دون التحري عن مدى صحة الجواب ، ومنهم من اعتمد على مؤلفات غيره ، ومنهم من اتخذ الرحلة والملاحظة والتثبت مما يسمعه او يقرأه اساس ما يكتب . ومنهم من جمع بين هذا وذاك .

- (١) عدي يوسف مخلص ، المقدسي البشاري : حياته ومنهجه ، ط ١ ، مطبعة النعمان ، النجف ، ١٩٧٣ ، ص ٩٨ .
- (٢) محمد محمود الصياد ، من الوجهة الجغرافية : دراسة في التراث العربي ، دار الاحد البحري ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ١١ - ٢١ ، ونفيس احمد ، جهود المسلمين في الجغرافية ، ترجمة فتحي عثمان ، سلسلة الالف كتاب (رقم ٢٧٢) ، دار القلم ، القاهرة ، ص ٢٥ .
- (٣) كراتشكوفسكي ، تاريخ الادب الجغرافي العربي ، القسم الاول ، نقله الى العربية صلاح الدين عثمان ، جامعة الدول العربية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٤١ - ٤٢ .
- (٤) نفس المرجع ، القسم الاول ، ص ٤٠ .
- (٥) فيليب متي وآخرون ، تاريخ العرب (مطول) ، ج ١ ، دار الكشف ، بيروت ، ١٩٥٢ ، ص ٥٦ .
- (٦) محمد محمود الصياد ، مرجع سابق ، ص ١٢ .
- (٧) طريفا : فيه كان مصير الجودي الذي رسى عنده فلك نوح .
- (٨) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ص ٤٩ / ١ .
- (٩) عن هذا الفرع من الجغرافية راجع : نقولا زيادة ، الجغرافية والرحلات عند العرب ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٢ ، ص ١١ - ١٢ .
- (١٠) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ص ٦٠ / ١ - ٦١ .
- (١١) يقتزن باسم الحجاج اول ذكر معروف لدينا عن الخرائط عند العرب حيث رُسست خريطة (الديلم) بأمر من الحجاج لغرض فرض الجزية عليها . وجاء ذكر (الصورة) في مناسبة اخرى حينما استبسط الحجاج حصار قائد لبحارى فارسل اليه صورة المنطقة سنة ٨٩ هـ / ٧٠٨ م ثم بعث بتعليماته حول الخطط العسكرية الواجب اتباعها اعتماداً على تلك الصورة . كما وضعت خريطة اخرى لغرض الارواء في عهد المنصور ، أي في اوائل العصر العباسي (ابن الفقيه الهمداني ، مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٨٣ ، والبلاذري ، فتوح البلدان ، الطبعة الاوربية ، ص ٣٧) .
- (١٢) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ص ٦٠ / ١ - ٦١ .
- (١٣) احمد سوسة ، الشريف الادريسي ، في الجغرافية العربية ، الباب الاول ، نقابة المهندسين العراقية ، طبع مكتب صبري ، بغداد ، ١٩٧٤ ، ص ٩٤ .
- (١٤) عباس فاضل السعدي ، « التوزيع الجغرافي لزراعة الخضراوات في العراق » ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد ٥٤ ، السنة ١٤ ، ابريل ١٩٨٨ ، ص ١٢٤ .
- (١٥) احمد سوسة ، مرجع سابق ، ص ١ / ج ، د .
- (١٦) علي محمد المياح ، « مناهج الجغرافيا الاقليمية عند العرب في التراث والمعاصرة » ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، ج ١ ، مجلد ٤٠ ، ١٩٨٩ ، ص ٢٣١ ، ٢٤٢ - ٢٤٣ .
- (١٧) هو كتاب آفة الفلكي والرياضي الهندي (ابراهيم كبت) سنة ٦٢٨ م بعنوان « سدهانت » ترجم في عهد الخليفة المنصور باسم « السندهند » .

(١٥) كراتشكوفسكي، مرجع سابق، ٧٠/١ - ٧٢ .
 (١٦) كراتشكوفسكي، مرجع سابق، ٧٢/١ - ٧٣، واحمد
 سوسة، مرجع سابق، ٢٢٨/١ .
 (١٧) بخصوص كروية الارض قال ابن رسته : « والارض مستديرة ايضاً
 كالكرة مصمتة في جوف الفلك قائمة في الهواء » . او كما قال ابن
 خردادبة (٢٨٠ هـ / ٨٩٢ م) أنها « مدورة كتدوير الكرة
 موضوعة في جوف الفلك كالمحّة في جوف البيضة » . والدليل على
 ذلك ان « الشمس والقمر وسائر الكواكب لا يوجد طلوعها
 ولا غروبها على جميع من في نواحي الارض في وقت واحد ، بل يرى
 طلوعها على المواضع المشرقية من الارض قبل طلوعها على المواضع
 المغربية ، وغيبوبيتها عن المشرقية ايضاً قبل غيبوبيتها عن
 المغربية » (ابن رسته ، الاعلاق النفيسة ، المجلد ٧ ، مطبعة
 بريل ، ليدن ، ١٨٩١ ، ص ٨ - ١٢ ، وابن خردادبة ، المسالك
 والممالك ، تحقيق دي غويه ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٨٨٩ ،
 ص ٤) .
 (١٧) ابن رسته ، مرجع سابق، ١٠/٧ .
 (١٨) كراتشكوفسكي، مرجع سابق، ٧٥/١ - ٧٧ .
 (١٩) نفيس احمد ، مرجع سابق، ص ١٩ - ٢١ .
 (٢٠) يرى المرحوم الدكتور ابراهيم شوكة ان الخوارزمي قد اطلع على
 كتاب « جغرافيا » لمارينوس ، وليس لبطليموس ، إذ لم يطلع العرب
 على ترجمة كتاب بطليموس الصحيحة إلا في زمن متأخر بكثير من
 بعد المأمون . وعليه فان الخوارزمي يكون قد تأثر بتراث أبناء
 عمومته الفينيقيين وليس اليونانيين (ابراهيم شوكة ، « تفكير
 العرب الجغرافي وعلاقة اليونان به » مجلة الاستاذ - تصدرها كلية
 التربية ببغداد - العدد ٢٩ / ١٩٦٦ ، ص ٢٢) .

الميل العربي يساوي ١٩٧٣ م (أو اقل من الكيلومترين بقليل)
 (٢٠) محمد محمود الصياد ، مرجع سابق، ص ١٣٠ .
 (٢١) قدرني حافظ طوقان ، تراث العرب العلمي في الرياضيات
 والفلك ، ط ٣ ، دار القلم ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ١٩ .
 (٢٢) كراتشكوفسكي، مرجع سابق، ٨٣/١ - ٨٤ .
 (٢٣) عباس فاضل السعدي « البيروني : أشهر عباقرة زمانه » ،
 مجلة العربي ، الكويت ، العدد ١٦٢ ، مايو (ايار) ١٩٧٢ ،
 ص ١٠٢ .
 (٢٤) غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ط ٢ ، نقله الى العربية
 عادل زعيتنر ، مطبعة دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٤٨ ،
 ص ٥٥٢ ، وصبري محمد حسن ، الجغرافيون العرب ، ج ١ ،
 مطبعة القضاء ، النجف ، ١٩٥٨ ، ص ١٥ .
 (٢٥) غوستاف لوبون ، مرجع سابق، ص ٥٥١ - ٥٥٢ .
 (٢٦) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، روائع التراث العربي (رقم
 ٤) ، مكتبة خياط ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ٣٣ .
 (٢٧) كراتشكوفسكي، مرجع سابق، ٨١/١ .
 (٢٨) احمد سوسة ، مرجع سابق، ٩٥/١ .
 (٢٩) كراتشكوفسكي، مرجع سابق، ١٢٤/١ - ١٢٥ .
 (٣٠) ابن النديم ، الفهرست ، تحقيق رضا تجدد ، طهران ،
 ١٩٧١ ، ص ١٣٠ .
 (٣١) ابن خردادبة ، مرجع سابق، ص ٣ .
 (٣٢) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، ط ٣ ، منشورات المطبعة

الحيدرية ، النجف ، ١٩٥٧ ، ص ٣ - ٣٣ .
 (٣٣) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، المجلد الاول ، دار صادر
 دار بيروت ، ١٩٥٥ ، ص ٢٣٠ .
 (٣٤) ابراهيم شوكة « كتاب الاقاليم المؤلفة الاصطخري » ،
 مجلة الاستاذ (تصدرها كلية التربية ببغداد) ، المجلد العاشر ،
 ١٩٦٠ ، ص ٢٣٠ .
 (٣٥) احمد سوسة ، مرجع سابق، ١٠٠/١ - ١٠١ .
 (٣٦) ابراهيم شوكة ، كتاب الاقاليم ، مرجع سابق، ٢٢٨ -
 ٢٢٩ .
 (٣٧) الاصطخري ، المسالك والممالك ، تحقيق د. محمد جابر
 عبد العال الحسيني ، مراجعة محمد شفيق غريال ، ج ٢ ، م ، وزارة
 الثقافة والارشاد ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ١٥ .
 (٣٨) محمد محمود الصياد ، مرجع سابق، ص ٢٥ .
 (٣٩) الاصطخري ، مرجع سابق، ص ٩ .
 (٤٠) نفس المرجع ، ص ٩ .
 (٤١) المقدسي البشاري ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ،
 ط ٢ ، بعناية دي غويه ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٩٠٦ ، ص ٩ .
 (٤٢) الانثروبولوجيا : هو علم الانسان ويبحث في أصل الجنس
 البشري وتطوره وأعرافه وعاداته ومعتقداته .
 (٤٢) راجع مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه الهمداني ، عناية
 دي غويه ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٣٠٢ هـ ، ص ٤ - ٥ وقارنها مع
 المسالك والممالك لابن خردادبة ، ص ٤ .
 (٤٣) كراتشكوفسكي، مرجع سابق، ١٣٠/١ .
 (٤٤) احمد سوسة ، مرجع سابق، ١٠٢/١ .
 (٤٥) احمد أبو سعد ، أدب الرحلات وتطوره في الادب العربي ،
 ط ١ ، منشورات دار الشرق الجديد ، سلسلة الفنون الادبية عند
 العرب (رقم ١٠) ، بيروت ، ١٩٦١ ، ص ٢١ . انظر ايضاً : رحلة
 السيراقي ، دار منشورات البصري ، مطبعة دار الحديث ، بغداد ،
 ١٩٦١ ، ص ٢٩ - ١٠٨ . الفنون الادبية عند العرب (رقم ١٠) ،
 بيروت ، ١٩٦١ ، ص ٢١ .
 (٤٦) نفس المرجع ، ص ٤٨ .
 (٤٧) نفس المرجع ، ص ١٧٤ . راجع ابن بطوطة ، المكتبة
 التجارية الكبرى ، مطبعة مصطفى محمد القاهرة ، ١٩٣٨ .
 (٤٨) كراتشكوفسكي، مرجع سابق، ١٣٦/١ - ١٣٧ .
 (٤٩) احمد أبو سعد ، مرجع سابق، ص ١٧٤ .
 (٥٠) ابن حوقل ، كتاب صورة الارض ، ط ٢ ، (القسم الاول) ،
 مطبعة بريل ، ليدن ، ١٩٣٨ ، ص ٢ - ٣ .
 (٥١) احمد سوسة ، مرجع سابق، ١٠٢/١ .
 (٥٢) كراتشكوفسكي، مرجع سابق، ١٣٦/١ .
 (٥٣) احمد بن فضلان ، رسالة بن فضلان ، تحقيق سامي
 الدهان ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ، ١٩٥٩ .
 (٥٤) نفيس احمد ، مرجع سابق، ص ٣٢ - ٣٣ .
 (٥٥) احمد سوسة ، مرجع سابق، ٤٩/١ .
 (٥٦) كراتشكوفسكي، مرجع سابق، ١٣٤/١ - ١٣٦ .
 (٥٧) نفس المرجع ، ١٣٨/١ - ١٣٩ .
 (٥٨) عباس فاضل السعدي ، البيروني ، مرجع سابق،
 ص ١٠٢ .
 (٥٩) محمد محمود الصياد ، مرجع سابق، ص ٢٨ .

- (٧٣) نفس المرجع ، ص ٤ .
 (٧٤) أبو الفدا ، كتاب تقويم البلدان ، تحقيق رينود وديسلا ، دار
 الطباعة السلطانية باريس ، ١٨٤٠ ، ص ١ - ٢ .
 (٧٥) حول تصنيف هذه المدارس راجع : احمد سوسة ، مرجع
 سابق ، ١ / دد ، ونقولا زيادة . الجغرافية والرحلات عند العرب ،
 مرجع سابق ، ص ١٧ . ٣١ - ٣٣ .
 (٧٦) المقدسي ، مرجع سابق ، ص ٤
 (٧٧) قارن بين ما كتبه الاصطخري (ص ١٥ - ١٩) وبين
 ما كتبه ابن حوقل (ص ٢ - ٥) لتجد التشابه الكبير بل حتى
 ترديد نفس العبارات بينهما .
 (٧٨) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ١ / ٢٠٦ - ٢٠٧ .
 (٧٩) احمد سوسة ، مرجع سابق ، ١ / لا .
 (٨٠) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ١ / ٢١٥ .
 (٨١) نفس المرجع ، ١ / ٢٨٩ - ٢٩٢ .
 (٨٢) احمد سوسة ، مرجع سابق ، ١ / ب .
 (٨٣) صبري محمد حسن ، مرجع سابق ، ص ١٠ .

- (٦٠) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ١ / ٢٢٨ .
 (٦١) غوستاف لوبون ، مرجع سابق ، ص ٥٦٩ .
 (٦٢) نقولا زيادة ، الرحالة العرب . سلسلة الالف كتاب (رقم
 ٩٧) ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٣٦ .
 (٦٣) غوستاف لوبون ، مرجع سابق ، ص ٥٦٩ .
 (٦٤) احمد سوسة ، مرجع سابق ، ١ / غ .
 (٦٥) غوستاف لوبون ، مرجع سابق ، ص ٥٦٦ .
 (٦٦) احمد سوسة ، مرجع سابق ، ١ / غ .
 (٦٧) نفس المرجع ، ١ / لا .
 (٦٨) زهير الكتبي ، محمد بن موسى الخوارزمي ، سلسلة علماء
 العرب (رقم ١) . منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد
 القومي ، دمشق ، ١٩٦٩ ، ص ١٤
 (٦٩) البعقوبي ، مرجع سابق ، ص ٢ .
 (٧٠) ابن حوقل ، مرجع سابق ، ص ٢ .
 (٧١) المقدسي ، مرجع سابق ، ص ٨ - ١ .
 (٧٢) نفس المرجع ، ص ١ .

• • • •



صدر حديثاً عن دار الشؤون الثقافية

الشعر وثورة العشرين

عبد الرحمن حميد ناصر الكبير

كلية المعارف الجامعة - الانبار

ما في تبديل الحكم الاستعماري المباشر الى حكم وطني»^(٤). واستمرت روح الثورة فيما بعد في تواصل المشاعر الوطنية التي ظلت متدفقة حتى عندما توقفت المقاومة المسلحة فاستمر المناضلون في مواجهة الاحتلال البريطاني بطرق اضعف ايماننا ولعل من ابرزها سياسة الادب والثقافة ومنها الخطب الحماسية والاحتجاجات الكلامية والجمعيات والتظاهرات والصحافة وغير ذلك فضلا عن الصوت المميز وهو صوت الشعر الوطني العراقي . فكان مؤازرا وهاديا ومؤججا لمقاومة الانكليز . وكان للشعراء صولات وجولات اسهمت في زيادة حماس الجماهير في الوقت الذي « كان الوعي الوطني في العراق يسير سيرا وثيدا نحو نهاية غير واضحة في نفوس الجماهير »^(٥) وسواء كان ذلك قبيل او اثناء او بعد الثورة حيث كان له الدور الواضح في تأجيج الرغبة للانتقام من الانكليز وتصعيد الشعور الشعبي والوطني المعادي لهم . الامر الذي ساهم في انتشار هذه الثورة كما تنتشر النار في الهشيم « الى كافة انحاء العراق المختلفة بعد ان بدأت من الرميثة - بين الديوانية والسماوة »^(٦) فكان للشعر اثره الواضح .

واذا كان من متطلبات البحث العلمي ضرورة استقصاء الشعر في هذه المناسبة غير العادية . فليس من المفيد لنا ان ننكر صعوبة ذلك ومن اجل ان لا نبتعد عن الحقيقة فنعمد الى اختيارات تشكل نموذجا لهذا الشعر وهي لا تمثل مجمل الشعر الذي قيل في هذه الثورة التي انفجرت تحديدا يوم ٣٠ / ٦ / ١٩٢٠ عندما تعرض الانكليز للشيخ شعلان ابو الجون و « قد خلقت جواً من التفاؤل والاستماتة في سبيل تحقيق هدفها في تحرير العراق وقيامه بدور فعال في العمل على تحقيق الاماني القومية »^(٧) وكان فيمن ساهم عدد من الشعراء واكبوا الثورة من خلال قصائدهم^(٨) التي ندبوا بها بالانكليز والتحريض على مقاومتهم لاسباب مصرية ووطنية ودينية وكانت امتدادا لما كان قبل الثورة من خلال مقاومة الانتداب والدعوة الى اقامة حكومة عراقية .

ونجد في مقدمة الذين واكبوا الثورة الشاعر الكبير محمد مهدي البصير رحمه الله وكانت قصائده تلقى على مسامع

مما لا شك فيه ان ثورة العشرين تعد نقطة تحول في تاريخ العراق الحديث . واستطاعت ان تقلب الموازين فيما بعد وتسهم بشكل فاعل في ايقاظ الشعور الوطني ومن ثم تأسيس الدولة العراقية . وهو الهدف الذي كان يسعى اليه الثوار في اقامة حكومة وطنية فضلا عن اثارة الرغبة في نفوس الشعب لكي تتوق الى الحرية والاستقلال .

لذلك ستظل هذه الثورة منقوشة في ذاكرة الاجيال . وقد حظيت بكثير من الاهتمام من قبل المخلصين والمفكرين لابرار الدور الوطني للشعب العراقي الفخور وتحسين تاريخ هذه الثورة العظيمة من اية مفاهيم تحاول التقليل من اهميتها التاريخية . والثورة تقدمتها ظروف وطنية مهدت لاندلاعها وكانت الفترة السابقة للثورة تعد ضمن الفعل الثوري « لان الحركات الثورية لا تحدد من خلال فوهة البندقية وكان الرصاص وازاقة الدماء هي الامور الوحيدة التي تحدد بداية الثورة فالثورة ابعد واعمق من ذلك . فهناك ثورات لا تراق فيها قطرة دم ولكن التغيير فيها كبير جداً »^(٩)

واذا كانت الثورة قد انتهت الى « غير ما كان يطمح العراقيون وبيبتغون فليس بمستغرب ان يخسروا معركتهم الرهيبة هذه ضد دولة كبيرة تملك قوة وباساً ولكن يكفي العراقيين فخراً انهم خاضوا غمار القتال واقتحموا استار القتال ضد هذه الدولة القوية وهم على علم بقوتها وبطشها . على ان هذه الثورة كانت ثورة كرامة وشرف وليست فقط نزالا متكافئا بحال من الاحوال »^(١٠) .

ولعل تتويج الملك فيصل في ٢٢ / ٨ / ١٩٢١ بتنصيبه ملكا على العراق ياتي ارضاء لمطالب الثوار . لذلك نحن مخبرون القول ان التتويج من نتائج هذه الثورة حيث « لم تجد بريطانيا بدا من تنفيذ ذلك »^(١١) واذا لم يخرج الانكليز « نهائيا من البلاد او القضاء على نفوذهم قضاء مبرما الا انها نجحت الى حد

المتظاهرين فتزيدهم حماسا حيث الشعور الوطني الصائق .
ومما تجدر الإشارة اليه ان الشاعر البصير كان صوته مجلجلا
قبل اندلاع الثورة ففي يوم ٢٥ / ٥ / ١٩٢٠ كانت له
مقطوعة عندما اطلق الانكليز الرصاص على المتظاهرين (١)

غضبنا فقمنا ثائرين لغاية تهون المنايا دونها والمشائق
ورددت الاجواء قصف زئيرنا فردت عليه بالنوي البنائق
فهل تنطق الزوراء وهي اسيرة وتسكت عما تبغيه المناطق
اتمنع ابناء العمومة نصرها وها هي كادت ان تضيق الماخائق
امالهم من حكمة الراي قائد ومالهم من قوة العزم سائق

وكذلك انعكست هذه المعاني بوضوح في قصيدته (يا علم) التي
ثار البصير فيها ثورة عارمة ومنها هذه الابيات :

خطب تهز الشعب هاتفة به ليهب هبة ناهض سباق
ويثور شبوب العزيمة معلما والنصر فوق لوائه الخفاق
متطلعا للمجد مفتديا له ازكى النفوس وانفس الاعلاق
مستبсла والهام تحصرها الظبا حصد الخريف نوايل الاوراق
يبغي الحياة بثورة في ظلها يلقي الحمام بفرحة المشتاق
متكاتفنا رغم المكاييد واتقا بعزيز نصر الواحد الخلاق

وجدير بالذكر ان هذه القصيدة كانت من بين المستندات التي
ابرزها القاضي البريطاني وحكم عليه بالحبس الشديد لمدة سنتين
ويدفع غرامة قدرها ثلاثة الاف روبية اي خمسة وعشرون مائتا دينار .
الا ان المدنوب السامي الذي احيل اليه هذا الحكم للمصادقة عليه
استبدل به الحبس الشديد لمدة سنة واحدة فقط .

وحينما ثار العراقيون على الانكليز وتلاحم السيفان نظم البصير
عدة قصائد اتسمت بطابع القوة والبأس منها قصيدته
المشهورة (وانيك ان الحق غالب) التي انشدها في حفلة ثورية كبرى
اقيمت بجامعة الحيدرخانة بعد ان استولى الثوار على النجف وكربلاء
وعلى مدن اخرى في اواسط الفرات وعلى دلتاوة ويعقوبة في ديالى وقد
استهلها بقوله :

بين الاسنة والقواضب شرف المباديء والعواقب
وللبصير شعر كثير اودعه كله في ديوان سماه (البركان) ويعده
الدكتور رؤوف الواعظ (شاعر الثورة العراقية) فيقول عنه : وضع في
ابيات والفاظه جمرات متقدة ثم نفخ فيها من روحه فكانت نارا ملتهبة
تلفح وجوه الانكليز الفادرين .

واستمر البصير في كفاحه الشعري مشاركا في الحفلات
والمهرجانات يثير همم الثوار وينال من المحتلين وكاشفا الاعيهم
ومعيبا على المتخاذلين الذين لم ينالوا شرف المساهمة في هذه الثورة
وراحوا يغارتلون الانكليز وتعدى ذلك الى ان يقترح الاراء التي بالامكان
التوصل الى حلول تخدم البلاد والعباد . وتحرير الشعب من التبعية
فقد « كانت الحرية حبيبة الى قلوب الشعراء العراقيين فانهم بطبيعة
الحال مقتوا الحكومات التي قيدت الحريات وتحرقوا شوقا الى حيث
ابناء شعبهم على التخلص من حكم الظلم والاستبداد » (٢) . ومن
هؤلاء الشعراء الذين كانت لهم مساهمات في الثورة (٣) :

الشاعر كاظم السوداني فيقول في قصيدة منها :

بني العرب خلوا السلم قد حانت الحرب وانتم بها اولى واجدر يا عرب
دعوا الضيم عنكم واطلبوا بحقوقكم فقد غصبت قسرا وضيعها الفصب
الى الان جيش الظلم وسط بلادكم وما انتاش في انقاله النهب والسلب

والشاعر محمد حبيب المبيدي الموصلي نظم قصيدة في بداية الثورة
في تموز ١٩٢٠ ومما قاله يخاطب الرسول الاعظم :

سيد الرسل ومن بعثته كست الكون بهاء ونضارا
قم الى النورالذي جئت به افترض ان يعود النور نارا
يقتل الباطل عمدا حقنا رمى الباطل لا نطلب ثارا
نحن احرار لدى فعل الخنا ولدى حرية الفكر اسارى

وللشاعر عطا الخطيب قصائد ادخلته السجن ونفي
بسببها ومن ضمن مجموعة خطية كانت عند الاستاذ ابراهيم
الوالثي في قصيدة يقول :

الا انهض وفز فيما تحاول يا شعب فما انت من يثنيه سهل ولا صعب
الام الام الحلم والشرق كلما اراد امتطاء المجد عارضه الغرب ؟
لعمرك ان الحلم يا شعب بعد ذا لذنب عظيم لا يماثله ذنب
تنشط وثب وازحف واجاهد ولا تدع مجالا بان يرعى شويهاك الذنب
وللشاعر الشيخ عبد الحسين الحويزي (ت : ١٩٥٧) بعض
القصائد في الثورة

ايطلق شعبنا للزحف ساقا وكم خطب له الحدثن ساقا
لقد عقد الضفائن فيه خصم بخدعته يحتل العراقا
والشاعر محمد علي اليعقوبي (ت : ١٩٦٥) شعر اوحته اليه
حوادث الثورة ومن قصيدته (تحية الثوار) وكان قد ارسلها الى
جماعة من المرابطين في جبهة السماوة والرميثة حيث يشتبك الثائرون
مع جيش الاحتلال ومنها قوله :

احببتنا بساحات الكفاح ثقوا بالنصر فيها والنجاح
نفرتم للوعى لما دعاكم لها الداعي بشوق وارتياح
ففرتم بالفخار بها وابت اعاديكم بخزي واقتضاح

والشاعر خليل عزمي له صوت بارز فعندما اجتمع المجلس
الحري في كربلاء وقرر تعيين المتصرف في المدينة استبشر السكان
ورفعوا العلم العربي بالوانه الاربعة وقال قصيدة في هذه المناسبة
منها :

بشارك يا كربلاء قومي انظري العلما على ربوعك خفاقا ومبتسما
وكفكفي دمعك الهطال وابتهجي فان بند بني قحطان قد حكما
هذا هو العلم المحبوب فاحتفلي عليه يا كربلاء واستنهيضي الهمما

وللشاعر عباس الخليلي قصيدة في الثورة من جملة قصائده التي
ساهم فيها ومطلعها :

اما وغمام يشبه الظلم اسودا ورعد حتى قصف المدافع بالصدى
ومن الشعراء الحاج عبد الحسين الازري (ت : ١٩٥٤) فقد
لقى قصيدة في حفلة التابئين التي اقيمت في رثاء الشيخ الشيرازي
الذي توفي والثورة ما زالت ناشبة فكان لوفاته اثر كبير في نفوس
التابئين منها :

منعك عز على العراق الدامي وامضه يا خدام الاسلام
صدع القلوب حديث نعيم فدخلت دار حميت نمارها من حام
كانت تغننه المسامع خشية من عبثه بفوادح الالام
وللشاعر خيري الهنداوي (ت : ١٩٥٧) قصيدة على نفس
الوزن في المناسبة وكان منغيا في جزيرة هنجام ضمن مجموعات كبيرة
من الثوار ومنهم الشعراء توزعوا بين سجن ونفي وبقيت اصواتهم
امثال الشاعر الشيخ محمد جواد الجزائري والشاعر محمد حسن ابو
المحسن والشاعر السيد هبة الدين الشهرستاني وغيرهم .

واذا اردنا ان ننصف القول ونوفي الحق فاننا نستطيع ان نذكر
بان الشعر العراقي الوطني كان تاريخا للاحداث السياسية وكثيرا
ما يقف الشاعر موقف المعارضة والهجوم من السلطة ويشير الى
مساوئ الانظمة الحاكمة وكان من الشعراء الكبار الذين تميزوا في
الشعر السياسي في العراق امثال الرصافي والشبيبي والزهراوي
والكاظمي وعلي الشرقي لذلك ياتي التساؤل اين هؤلاء الشعراء الكبار
من ثورة العشرين ؟

ربما لا تتفق الثورة مع منظورهم السياسي او لسفرهم خارج
القطر او لمصلحة شخصية^(١٣) وتعلق البعض بالانكليز « شأنهم في
ذلك شأن الملوك والامراء مع شعراء المدح والتكسب وفريق اخر لم
يتاجر بالنظم ولم يكتسب بالشعر وانما خدعته الوعود ... ومن امن
بالثورة وعمل في سبيلها ولكن جانبها السياسي شغله عن التخييل
والتعبير في صورة من صور الشعر »^(١٤) ولا نريد هنا ان نضع كل شاعر
في دائرة تقصير معينة فاذا كنا لا نجد لهم شعرا في هذه المناسبة فليس
من اليسير ان نحكم على وطنيتهم من خلال هذا الموقف فقط فان لهم
مساهمات اخرى في مواقف لمناسبات وطنية ساهموا بها^(١٥)

وانتهت ثورة العشرين من المواجهات الحربية وتوقف الثوار عن
اطلاق النار يوم ٢٠ / ١١ / ١٩٢٠ فيما استمر الشعر في تخليد
هذه الذكرى سواء بذكر الخيبة والفشل او رثاء الشهداء او تمجيد
البطولات او تذكّر الذين سجنوا او نفوا عن الوطن وتعقب الاستاذ
ابراهيم الوائلي الشعراء الذين كانت لهم الاستمرارية في ذكر
الثورة^(١٦) وفي مقدمتهم الشاعر المناضل محمد مهدي البصير وقد نظم
شعرا استوحاه من نهاية الثورة ومنه قوله :

كافحت اعدائي ولست بواثق ان النجاح مقدر لكفاحي
لكنما وطني دعا فاجبته وابيت للباغين خفض جناحي
ولئن رجعت بغير ما املته ونزعت من يد قاهري سلاحي
فلقد افدت من المصائب خبرة ستكون عند العود سر نجاحي

ويعبر الشاعر سعد صالح عن الخراب الذي اصاب القرى وقد
انتهت الثورة وترك البلاد فارا فيقول :

سئمت العيش في وطن يضام ينزل ويضطهد
محتة يد الفضاء فرا ح لا روح ولا جسد

وغيرهم من الشعراء الذين ذكروا الثورة وتاملوا وتالموا من النهاية او
وصفهم للمعارك او المطالبة ببعض الحقوق والتعريض بالانكليز
وسياستهم والاختذ بالثار والحث على مواصلة الكفاح ومن هؤلاء
الشعراء محمد الباقر ومحمد مهدي الجواهري وكان شابا والشاعر
عبد الرحمن البناء والشاعر حسن الحاج علي وغيرهم .

واذا تأملنا هذا الشعر الذي قيل في ثورة العشرين نلمس بصق
الشعور الديني والعواطف الجياشة والاحساس الوطني ونعده شاهد
حق ودليل صق على مساهمتهم ووقفاتهم البطولية الرائعة وتعاطفهم
مع الشعب وقادة الثورة واذا كنا نلمس التكلف احيانا وتضمنه
النصائح المجردة واقتفاء الشعر التقليدي في احيان اخرى وضعف في

الصياغة فانه ليس من المستساغ في هذه العاجلة أن نضعهم في دائرة النقد الادبي ونقيس اشعارهم على نحو ما نريده هذه الايام من مصطلحات لم يكونوا معنيين بها في تلك الظروف الحرجة وكانت بشكل مفاجيء وكانت الثورة في فترة زمنية قصيرة وزيادة على ذلك وجد الشعراء انفسهم مع الثورة وجها لوجه لا مجال للغموض او الصور الخيالية لان الواقع غير مالوف لهم امام عدو غاشم وقوي . ولكن ننظر من زاوية المواقف الوطنية حيث كانوا لا يخشون شيئا في اعلاء كلمة الحق والنضال في سبيل الحرية والكرامة

الهوامش :

- حـ ١ / السيد عبد الرزاق الحسني - وزارة الثقافة والاعلام دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ١٩٩٠ : ١٩ .
- (٨) تناول هذا الموضوع تفصيلا الاستاذ ابراهيم الوائلي في كتابه الشامل بعنوان ثورة العشرين في الشعر العراقي مطبعة الايمان بغداد ١٩٦٨ الصفحات : ٦٥ وما بعدها .
- (٩) الاتجاهات الوطنية في الشعر العراقي الحديث : ٩٤ .
- (١٠) النقد الاجتماعي الساخر في الشعر العراقي الحديث رسالة دكتوراه الدكتور ابتسام عبد القادر : ٢٢٩ .
- (١١) ثورة العشرين في الشعر العراقي : ٧٥ - ١٢٠ .
- (١٢) تطور الشعر العربي الحديث في العراق الدكتور علي عباس علوان - دار الشؤون الثقافية العامة وزارة الثقافة والاعلام العراق بغداد ١٢٣ - ١٢٩ .
- (١٣) ثورة العشرين في الشعر العراقي : ٢٣ .
- (١٤) معروف الرصافي حياته وادبه السياسي : ٥٠ .
- (١٥) ثورة العشرين في الشعر العراقي : ١٢١ - ١٤٩ .

- (١) الفكر السياسي لثورة العشرين نديم عيسى وزارة الثقافة والاعلام بغداد ١٩٩٢ ص : ٦ .
- (٢) الاتجاهات الوطنية في الشعر العراقي الحديث - الدكتور رؤوف السواعظ / وزارة الاعلام العراق / دار الحرية ١٩٧٤ ص : ٢٨٥ .
- (٣) النظام السياسي في العراق / د. محمد عزيز / بغداد / ١٩٥٤ : ٦٥ .
- (٤) معروف الرصافي - حياته وادبه السياسي - الدكتور رؤوف السواعظ دار الكتاب العربي : ٥ .
- (٥) الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠ الدكتور عبد الله الفياض مطبعة دار السلام بغداد : ١٠٧ .
- (٦) العراق - شهادة سياسية ١٩٠٨ - ١٩٣٠ حسين جميل دار الامل لندن : ٥٣ .
- (٧) الاسرار الخفية في حركة السنة ١٩٤١ التحريرية

★★★

المكاتبات الرسمية الاندلسية

في عهد الموحدين

بسم الله الرحمن الرحيم

د. محمد مجيد السعيد

جامعة سنام للعلوم الاسلامية

مدخل :

محاولين افراغ كل ما لديهم من قدرات فنية وأدبية وما تحتويه جمعيتهم من معارف ومعلومات وخبرات ثقافية فيما يكتبونه ويصوغونه لان كتاباتهم تصدر من أعلى شخصية في الدولة او ترد اليه . فالكتابة في مثل هذا الميدان هي مباراة و اظهار قدرات وامكانات ، وهي سباق بين فحول ، فالذي يكبو قد لا تتاح له فرصة للوقوف واللاحاق بالركب فيخسر كل شيء ، حتى حياته في بعض الاحيان .

وكانت للرسائل والكتب الرسمية اصول محددة من حيث الابتداء والاختتام وذكر اسم المكتوب عنه او المكتوب اليه ، ومن حيث البسلة والدعاء ، ومن حيث البسط والايجاز وفي ترتيب السجعات وعددها وطول العبارة ، وقصرها . ومن حيث الاستشهاد بالآيات القرآنية والاحاديث النبوية والاقوال الماثورة والاشعار السائرة ، وما يقتضيه كل مقام او موضوع من مستلزمات وأساسيات الكتابة الرسمية والديوانية منها بشكل خاص ، لا يستطيع الكاتب ان يتجاوزها او يغفلها عندما يكتب ، ولقد خصص القلقشندي كتابه « صبح الانشا في صناعة الانشا » لمعالجة النثر العربي ، وتعرض بالتفصيل لقواعده وأصوله وكل جزئياته المتعلقة به ، وكان للنثر الديواني القسط الأوفى من المؤلف ، والحق ان كاتب الرسائل في كل عصر كان يتمتع في الدولة الاسلامية بمكانة رفيعة يغبطه عليها أقرانه ونظراؤه فموقعه « في ارفع محل وأشرف قدر ، يكاد ان لا يكون عند الملك أخص منه ولا الزم لمجالسته ، ... يلقون اليهم أسرارهم ، ويخصونه بخفايا أمورهم ، ويطلعونهم على ما لم يطلع عليه أخص الاخصاء من الوزراء والاهل والولد » (١) .. ولكونه يحظى بهذه المنزلة ويتمتع بهذه المكانة من دست الحكم فانه يمثل اليد اليمنى للسلطان ومستودع

النثر والشعر صنوان متسابقان في حياة الامة العربية منذ أيام ما قبل الاسلام ، ثم غدت للكلمة أهمية عظيمة ومنزلة كبيرة لدى العرب اجمع وذلك بنزول القرآن الكريم الذي كان يمثل تحدياً لهم في ميدان لاحتب فرسانه وأبطاله ، يتبارى الرجال فيما بينهم بالكلمة المحكمة او بالعبارة المتقنة او بالبيت الشعري المبدع الذي يثير أعجاباً او يوجد دهشة او يخلق انبهاراً . فتنناقل الألسن تلك الحكايات والمقولات ذات الافكار والمعاني الطريفة النادرة . واذا كان الشعر - كما قيل - ميدان العرب ، فالنثر سجلهم الذي دونت فيه كل مآثرهم وأخبارهم ، وكثير من تفاصيل حياتهم ، وبخاصة حياتهم السياسية والعسكرية وما يتعلق بالفتوحات ونشر الدعوة الاسلامية في أصقاع المعمورة شرقاً وغرباً ، بل ان تاريخ الملوك والسلاطين والامراء وما يدور حولهم يمثل صفحات واسعة وعريضة من تراث الامة العربية ، واذا كان النثر التاريخي لا يدخل ضمن موضوعنا فان المكاتبات الرسمية التي صدرت من مركز الحكم الى الامراء والولاة والحكام والقضاة وغيرهم من اتباع السلطة الذين يمثلونها وينفذون اوامرهم وتوجيهاتها ، وكذلك المكاتبات التي صدرت من هؤلاء واولئك لتمثل بالتاكيد جانباً أساسياً في معرفة حركة الدولة ومسيرتها وتوجيهاتها ، ولكنها في الوقت نفسه تدخل ضمن النثر الفني الابداعي لما تتمتع به من خصائص ومميزات فنية وأسلوبية وبلاغية ، وما تحرص عليه من طرائق وقواعد وأسس هي بمثابة مراسيم تقليدية متبعة لدى الكتاب ، لا يحددون عنها الا ليسلكوا طرقاً او قواعد اخرى احسن منها وأفضل ، ناهيك عما يولون كتاباتهم من عناية ودقة ، وجهد وتنقيف ،

اسراره وشريك ذهنه وفكره ، « وانه اول داخل على الملك وآخر خارج عنه ، ولا غنى له عن مفاوضته في آرائه ، والافضاء اليه بمهامه ، وتقريبه من نفسه في آناء ليله وساعات نهاره وأوقات ظهوره للعامة وخلواته ، واطلاعه على حوادث دولته ومهمات مملكته ، فهو لذلك لا يتق باحد من خاصته ثقته به ، ولا يركن الى قريب ولا نسيب ركونه اليه ، ومحل منه في عائدة خدمته وأثرة دولته محل قلبه الذي يؤامره في مشكل رأيه حتى يتنقح ويراجعه في مهم تدبيره حتى يتضح ، ولسانه الذي يقرر بتدريجه أولياءه على الطاعة والموافقة ، ويستنفر بترهيبه عن المعصية والمشاقة ، ويقز بأوامره ونواهيه أمور سلطانه ، وينزلها منازلها في متمهد مجالسها ، ويتمكن من سياسة أجناده ، وعمارة بلاده ، ومصلحة رعيته وأجتلاب مودتهم ، واستخلاص نياتهم »^(٧).

ومن هنا تتضح لنا خطورة موقع كاتب الرسائل والصلاحيات المعطاة اليه ، حتى لكانه شريك الملك ، وصنوه ، فباشارة منه او كلمة يرفع أناساً ويحط آخرين ، اما قلمه فانه « لسان الدولة ، وفارس الجولة ، : ولقمان الحكمة ، وترجمان الهمة ، وهو البشير والنذير ، والشفيع والسفير ، به تستخلص الصياصي^(٨) ، وتملك النواصي ، ويقنات العاصي . ويستدني القاصي ، وصاحبه بريء من التبعات ، آمن كيد السمات^(٩) » . وتأسيساً على ما سبق فقد كانت وظيفة كاتب ديوان الرسائل من ارفع الوظائف وأشرفها وأخطرها ، وكان لابد من ان يتصف من يختار لهذا الموقع ، بعدة صفات خلقية وخلقية ، اضافة الى تمكنه من الكتابة وتفوقه في النثر خاصة ، ولقد تعرض الفلقشندي لصفات من يرشح لهذه الوظيفة^(١٠) وأهمها « ان يكون صبيح الوجه ، فصيح الالفاظ ، طلق اللسان ، اصيلاً في قومه رقيقاً في حيه ، وقوراً حليماً مؤثراً للجد على الهزل ، كثير الاناة والرفق ، قليل العجلة والخرق^(١١) ، نزر الضحك ، مهيب المجلس ، ساكن الظل ، وقور النادي ، شديد الذكاء ، متوقد الفهم ، حسن الكلام اذا حدث ، حسن الاصفاء اذا حدث ، سريع الرضا ، بطيء الغضب ، رؤوف بأهل الدين ، ساعياً في مصالحهم ، محباً لأهل العلم والادب ، راغباً في نفعهم وان يكون من كتمان السر بالمنزلة التي لا يدانيه فيها أحد ، ولا يقاربه فيها بشر ، حتى يقرر في نفسه امانة كل حديث يعلمه ويتناس كل خبر يسمعه »^(١٢) ، وعلى كل حال فان ما ذكر عن اهمية الكاتب ودوره في تسيير دفة الدولة والتاثير في حركتها وتوجهاتها ، وعن خطورة قلمه وما يكتبه عن سيده

وما اشترط للمؤهلين لهذه المواقع من سمات وخصائص وصفات جسمانية وعقلية وثقافية ، كل ذلك يشير بصراحة الى اهمية الناثر الرسمي ، والى خطورة الكتابة الرسمية والديوانية منها بشكل خاص في حياة الامم والشعوب ، وما قد تأتي به من خير على الدولة او ما قد توقعه من خراب بها . ومن هنا فاننا نتوقع ان يتصف مثل هذا النثر في تراثنا بالدقة في اختيار العبارات والجمل ، وحسن انتقائها ، وبالموضوعية والوضوح وتجنب كل ما من شأنه الابتعاد عن ذلك او الخروج عنه .

واذا عدنا الى موضوع بحثنا فانه يتحدد في السنوات التي حكم الموحدون فيها الاندلس حتى خروجهم منها وقيام دولة بني الاحمر في غرناطة بحدود ما بين سنة ٥٤٢ هـ وسنة ٦٤٦ هـ . كما انه يقتصر على معالجة الموروث الكتابي الذي صدر من امراء المؤمنين الموحديين او من احد أبنائهم الملوك والامراء الى ولاية الاندلس وحكامها وشعبها او بالعكس .

ولم نتعرض لمراسلات نثرية وقعت بين دويلات اندلسية اخرى لم تكن تابعة للعرش الموحيدي وبين تابعين ، لان ذلك سيوسع رقعة البحث ، على رغم ما في الامر من تداخل ، لان النثر في هذه الفترة الزمنية لا يخرج بطبيعته وأساليبه ورسومه عن الاطار العام الذي يحكم نثر العصر . ولان الكتاب هم انفسهم الذين كتبوا لهؤلاء وأولئك ، من امثال ابن الابار وابي المطرف بن عميرة وغيرهما .

تميز عصر الموحديين بانه كان عصراً مشحوناً بالأحداث والصراعات والثورات السياسية والاعمال العسكرية ، والانتصارات والانهازات ومملوءة بالنشاطات الثقافية والادبية والفكرية ، والدينية ، فهو عصر تز و غني بموروثه في مختلف المجالات والميادين ، واننا نعتقد بان للنثر الرسمي قسطاً وافياً من هذا الموروث ، فلقد كانت الرسالة أسلوباً ناجعاً للتواصل ، بل هي من أهم أساليب توصيل أوامر القيادة الى الآخرين وتوجيهاتها وتصوراتها في تسيير دفة الحكم ، وكيفية التعامل مع فئات الشعب ، وكيفية ردع أعداء الأمة من الطامعين والتاثرين والمتمردين ، ولكن وينظره سريعة الى ما هو متوفر من رسائل ومكاتبات رسمية أبان عصر الموحديين ندرك بان هذا الموروث لا يشكل الا جزءاً يسيراً من التراث الادبي لهذه الفترة ، ولا يغطي الا زمناً قصيراً من أزمنتهم

الطويلة التي استغرقت بحدود القرن ، وليس من تفسير لذلك سوى ضياع تلك المراسلات وفقدانها من خزائن المسؤولين والحكام ، مع الوفاء المؤلفات التي فقدت واندثرت من تراثنا الأندلسي اثناء تعرض البلاد للتخريب والتشريد والاضطهاد ، وما عاشته من أيام سود على ايدي الاسبان المتطرفين الذين بذلوا كل جهدهم وامكاناتهم للقضاء على كل ما يمت الى الاسلام والعروبة بصلة ، ومع ذلك فان المتوفر من مكاتبات الموحدين الرسمية يسعفنا في رسم ملامح النثر الأندلسي الرسمي للفترة المذكورة والتعرف على خصائصه وأساليبه وأصول بناء الرسالة ، وما أصابها من تطور او تهقر خلال ذلك القرن من حكم الموحدين .

ولقد عرفت هذه الفترة كتاباً كباراً وأسماء لامعة من الأندلسيين في ميدان الكتابة الرسمية من أبرزهم : ابو جعفر بن عطية وأخوه ابو عقيل ، وابو عبد الله بن عياش ، وابو الحسن بن عياش ، وابو الحكم بن المرخي ، وابن سعيد المغربي : الأب والأبن ، وأبو الحسن الرعيني ، وخلف الغافقي القبتوري ، وأبو المطرف بن عميرة ، وابن الجنان ، وابن الابار . ويمكن التعرف على تراثهم في المصادر التي نقلت مكاتباتهم ، ومعظم المصادر اوردت تلك النصوص في معرض الحديث عن احداث سياسية او اخبار رسمية ، ولكن بعضها الآخر أفرد مؤلفاً مستقلاً لتلك النصوص . فمن المصادر التي احتوت شيئاً من رسائل الموحدين الأندلسية لفترتنا ، نظم الجمان ، المن بالامامة ، البيان المغرب ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، القدر المعلى ، الذيل والتكملة ، الانيس المطرب ، الاحاطة في أخبار غرناطة ، نفح الطيب ، أزهار الرياض ، صبح الاعشى ، وغيرها .

اما الكتب التي انفردت لرسائل موحدية اندلسية فمنها كتاب « مجموع رسائل موحدية من انشاء كتاب الدولة المؤمنية » ، وكتاب رسائل ديوانية من سبته في العهد العزفي من انشاء خلف الغافقي القبتوري » ، ومجموع ابي المطرف ابن عميرة » .

ومن دراسة النصوص المتوفرة للرسائل الموحدية الأندلسية في عصر الموحدين نستطيع ان نصنفها الى صنفين :

الاول : الرسائل التي وجهها الديوان الرئاسي للدولة الذي كان يمثل امير المؤمنين الموحدي ومقره مراكش الى السادة الموحدين من ملوك البلدان ورؤسائها وأمرائها وحكامها

او توجه الى الناس والطلبة .

الثاني : الرسائل والكتب التي كانت ترفع من القيادات الدنيا او من الشيوخ والطلبة الى امير المؤمنين ، او ترفع من الاتباع الى القيادات الصغرى من ملوك او امراء او قواد او قضاة .

ولاجل تيسير البحث سوف نتناول كل صنف من صنف تلك الرسائل والمكاتبات على انفراد ، لنقف عند موضوعاتهما وجوانبهما الشكلية ، من حيث البدايات والنهايات وما بينهما من كلام هو في الواقع صلب الموضوع وجوهره ، ثم نعالج الجوانب الفنية فيهما من حيث اللغة والاسلوب والاقتباس والاطناب والايجاز الى غير ذلك .

الصنف الاول :

من المؤكد ان « الرقاص » او ساعي البريد كان يتنقل بلا انقطاع بين بلاط امير المؤمنين وبين قصور الملوك والامراء والحكام التابعين للدولة الموحدية المنتشرين في أصقاع البلاد ، لنقل التوجيهات والأوامر والبشائر ، وغيرها . ومن المؤكد ايضاً ان ما كتب على امتداد عصر الموحدين الذي قارب المائة عام كان كثيراً وكثيراً جداً ، ولا يشكل النثر الذي بين ايدينا ، المنشور منه او المخطوط ، الا سفراً صغيراً من بين تلك الاسفار الكبيرة الكثيرة . وعلى كل حال ، فان الموجود منه يغني عن المفقود في دراسة النثر الرسمي بعامة والديواني منه بخاصة والتعرف على اساليبه وصيغه وفنيته ، ولكن الجزء المفقود منه افقدنا الشيء الكثير من المعرفة التي نحن بحاجة اليها في الجانب التاريخي والسياسي .

ومراجعة النصوص الصادرة عن الديوان الموحدي نقف على طبيعة الموضوعات التي كانت تعالجها تلك المكاتبات وتنحصر حولها ، وهي تكاد تدور في موضوعات محددة تقتضيها ادارة الحكم واردة الحاكم ، مثل الحث على الجهاد ، او الحث على التمسك بالدين والدعوة الى التوحيد والهدى ، او بالرفق بالعباد والمعدل بين الناس ، او بشارة بفتح مدينة او استرجاع حصن ، او بناء مدينة او طلب بيعة او عقد هدنة ، او غير ذلك من امور تقتضيها الظروف وتدعو اليها مهمات الحكم وتبعاته ومستلزماته .

واذا كانت طبيعة الموضوع الذي كتب النص من اجله تقتضي صيغة ملائمة وأصولاً متبعة في تكوين الاطار العام الشكلي للرسائل وفي بناء مضمونها وحشوها فانه جعل لكل

رسالة تقريباً أطارها الخاص بها وأفردا عن غيرها ، ولكننا ومن أجل ان نلم اطراف البحث نحاول ان نشخص انواع الصيغ والقوالب التي جرت عليها مكاتباتهم الرسمية او صبت فيها ثم بعض ذلك نتعرض لبنائها الداخلي .

من خلال وقفة متأنية عند الموروث النثري الصادر عن ديوان أمير المؤمنين الموحدي الى تابعيه في الاندلس ، اتضح لدينا عدد من الصيغ التي سلكتها الرسالة الديوانية الاندلسية آنذاك .. والتي كانت تكوّن اطاراً عاماً يتبع من قبل الكاتبين ويتمسك باصوله وقواعده . وهذه الصيغ هي :

١ . أن تبتديء الرسالة بذكر المكتوب عنه او يلقيه والدعاء له بما يليق ، وبعد ذلك يذكر اسم المكتوب اليه او صفته مع الإشارة الى مكان اقامته ثم يدعى له بما يناسب ، ويؤتى بعد ذلك بتحية الاسلام ، ثم بالبعدية التي تعقبها الصلاة على النبي محمد ، وعلى آله وصحبه ، والترضية عن الامام المهدي المعصوم ، وبعد جمل من الصفات والنعمت للامام المهدي يلج الكاتب صلب الموضوع ، مبتدئاً بفعل الكتابة كان يقول : « كتبناه ، او « كتابنا اليكم » وغير ذلك ، ثم يردفها بجملة دعائية اعتراضية تناسب معنى الكتابة ، قد تقصروقد تطول ، ويذكر بعدها اسم المكان الذي كتبت به الرسالة مقترناً بالدعاء له بما يناسب ... ثم يؤتى بالموضوع الى آخر الرسالة التي تختتم بالسلام .

فمن امثلة ذلك رسالة من انشاء الكاتب ابي جعفر بن عطية : « من أمير المؤمنين — ايده الله بنصره ، وامده الله بمعونته — الى الطلبة والموحدين الذين بفرنطة — اعزهم الله وادام كرامتهم بتقواه — سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

اما بعد حمد الله الذي على عونه مستند الاعتصام والصلاة على محمد عبده ورسوله موضح سبل السلام والاسلام

وعلى آله وصحبه البررة الكرام ، والرضا عن الامام المعصوم ، المهدي المعلوم ، المخصوص بالعلامات الصادقة والاعلام ، المبشر من ظهور امره العلي ، وتعيينه المراد المعنى ، بما فاضت تباشيره وسالت اساريه ، على صفحات الليالي والايام .

فانا كتبناه اليكم — كتب الله لكم تعرف الالاء المستجدة ، وبركة المواهب التي هي من بحر عطائه مستمنة — من منزل الموحدين — أظهرهم الله — بظاهر

المهدية — (فتحها الله) — ووعد الله لاوليائه قد فض الانجاز ختامه ... الخ ... »^(٨) .

وجاء في آخرها « والله يعرف اليمن في ذلك والخيرة ، ويجعله عنوان الاقبال وفاتحة النصر بمنه ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

ولقد ذكر القلقشندي هذا اللون من رسوم المكاتبات السلطانية — فاجز رسمه بقوله (« ان تفتتح المكاتبة بلفظ » من فلان الى فلان » ويدعى للمكتوب اليه ثم يقع التخلص الى المقصود بما بعد ، ويؤتى عليه الى آخره ، ويختتم بالسلام »^(٩) . واعتبر ذلك الاسلوب الاول من بين الاساليب الاربعة التي اشار اليها . وان كان في الاصل قد تحدث عن ثلاثة اساليب فقط^(١٠) .

٢ . وقد تحددت مكاتباتهم حذو النموذج السابق من حيث البناء الهيكلية ، ولكنها تزيد عنها بأن تبتديء بالبسملة والصلاة على النبي وبالعلامة المباركة التي دخلت الى الرسائل الديوانية لأول مرة في عهدهم^(١١) ، ونقصد بالعلامة المباركة عبارة « والحمد لله وحده » ثم يؤتى بآخر الرسالة بتاريخ كتابتها . اما عدا ذلك فانها تجري مجرى النموذج السابق . ومن مكاتباتهم التي تمثل هذا اللون رسالة أمير المؤمنين يوسف الى الشيخ الاجل اخيه السيد ابي سعيد واصحابه الطلبة الذين بقرطبة ، حيث بدأها بما نصه « بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على محمد وآله وسلم ، والحمد لله وحده ، من أمير المؤمنين ... الخ »^(١٢) وتأتي بقية الرسوم تباعاً دون اي تغيير حتى يصل الى الختام وفيه يثبت تاريخ كتابة الرسالة الذي هو في هذه الرسالة الثالث من شهر رمضان المعظم سنة احدى وستين وخمس مائة .

٣ . ومن المكاتبات ما اخذ رسماً آخر يبتديء بمخاطبة المكتوب اليهم مباشرة ويشير الى مدينتهم ثم يؤتى بالدعاء لهم بما يناسب ثم بالبعدية وينتقل بعدها مباشرة الى جوهر الموضوع ويدون اية تحميدات او غيرها من ديباجات ورسوم متبعة في مكاتبات أخرى عرفها العصر . ومن تلك المراسلات ، ما كتبه بخطه أمير المؤمنين ادريس بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الملقب بالعامون الى اهل اندوجر^(١٣) ، جاء فيها « الى الجماعة والكافة من اهل فلانة ، وقاهم الله عثرات الالسة وأرشدهم الى محو السيئة بالحسنة ، اما بعد فانه قد وصل من قبلكم كتابكم الذي جرد لكم اسهم الانتقاد ، ورامكم من السهاد ، بالداهية الساد ، اتعتذرون من المجال بضعف

الحال ، وقلة الرجال ، اذاً لنحکم بریات الحجال الخ «^(١٤) وهكذا يستمر حتى آخر الرسالة

٤ . وفي صيغة أخرى لبناء الرسالة الرسمية تختلف تماماً في مقدمتها عما عرفناه من رسوم وأساليب فهي ان تستهل الرسالة بالبعدية مباشرة دون بسملة او مقدمة او غير ذلك من استهلاكات مستخدمة في مكاتباتهم التي مرت بنا سابقاً ، وقد اشار القلقشندي الى هذا النوع من الرسائل واعتبره على ضربين ، حندهما : بقوله « الضرب الاول تُعقب البعدية بالحمد لله ، ويؤتى على الخطبة الى آخرها ، ثم يتخلص الى المقصود ويختتم بالسلام »^(١٥) ، اما الضرب الثاني فهو « ان تُعقب البعدية بذكر المقصود من غير خطبة ثم يؤتى على المقصود الى آخره »^(١٦) ومن النثر الذي جاء على الصنف الاول من هذه الطريقة التي تبتديء بالبعدية دون اية مقدمات اخرى مقرونة بحمد الله وشكره رسالة الكاتب ابي الحسن بن عياش عن الخليفة عبد المؤمن الى طلبة بعض مدن الاندلس يخبرهم فيها بوصول كتابهم في غزواتهم على الروم ، بدأها بقوله « اما بعد حمد الله الذي عمّ بنواله ، والرضا عن الامام المعصوم ، والمهدي المعلوم .. فانا كتبناه اليكم — كتب الله لكم اعمالاً زاكية نامية ، — من حضرة مراکش — حرسها الله الخ »^(١٧) ، ويستمر الكاتب في رسالته والجأ صلب غرضه المقصود ليصل الى خاتمتها التي تؤرخ الرسالة .

٥ . ومن المكاتبات ما تبتديء بالتحميد ثم الصلاة على النبي وآله ثم الترضية عن الامام ، ويعقبها بآشارة الى الكتاب ومكان تحريره ليلج بعد ذلك الى جوهر المقصود ، وخير مثال ماكتبه ابو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عياش عن الامير محمد الناصر الموحي مُخبراً باستيلاء الموحيين على منورقة ويابسة وميورقة بدأها بقوله « الحمد لله فاتح الاغلاق ، ومانع الاعلاق مُمّد هذه الدعوة الامامية من السبع اطباق ... الخ »^(١٨) ، حيث تستمر الرسالة ضمن الرسوم التي اشرفنا اليها . ولعل تحليل استفتاحها بالتحميد دون غيره من مستهلات ومقدمات ان الكاتب وهو بغمرة الفرح والابتهاج بتحقيق النصر انصرف أولاً وقبل كل شيء الى تسجيل الحمد والشكر لله تعالى على ما حققه للمسلمين من نصر مبين .

٦ . ولم تقتصر المكاتبات الديوانية على النثر بل كانت بعض مكاتباتهم الرسمية تعتمد الشعر في جزء منها^(١٩) او في اجزائها كلها^(٢٠) ، والنوع الاخير يكون عبارة عن قصيدة شعرية متكاملة خالية من اي ديباجة نثرية وهي خارجة عن تقاليد

مكاتباتهم السلطانية وغير ملتزمة باي رسم من رسومهم ، ومن نماذج هذا اللون من المراسلات : القصيدة الرسالة التي وجهها امير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن الى عرب افريقيا يستدعيهم فيها ويحرضهم على الجهاد وهي من نظم ابن طفيل ، ولما تاخروا عن تلبية الدعوة خاطبهم ثانية بقصيدة اخرى من قول ابن عياش^(٢١) وكان مطلع الاولى :
الا فابعثوها همة عربية تحف بأطراف القنا والقواضب
اما مطلع الرسالة الثانية فهو :

اتيئوا الى العلياء عوج الرواحل

وقدوا الى الهيجاء جريهم المواهل

الصنف الثاني :

بعد ان اتضحت امامنا صيغ المراسلات الرسمية التي كان يصدرها امير المؤمنين الى أعوانه وتابعيه من ابنائه الامراء ومن الولاة والقضاة وغيرهم . ننقل الى معرفة رسوم المكاتبات التي كان يرفعها الامراء والوزراء والولاة وغيرهم الى امير المؤمنين او الى ملك البلاد الذي يمثل آنذاك السلطة المركزية العليا . ونقف عند انواع الصيغ واشكالها التي كان الكتاب يحرصون عليها ويعتمدونها أسساً وقواعد لما ينشئون من رسائل . ومن خلال دراسة ما توفر لدينا من نصوص نثرية لفترة الموحيين تمكناً من تشخيص الرسوم التالية لمكاتباتهم الرسمية :

١ . ان تفتتح الرسالة بلفظ « كتابنا » او « هذا كتابنا » او ما شابه ، ثم يذكر مكان تدوين الخطاب ثم يلج الكاتب صلب الموضوع حتى يأتى الى آخرها . فمن ذلك رسالة ابي جعفر ابن عطية عن ابي حفص الموحي الى الخليفة امير المؤمنين عبد المؤمن بن علي وهي التي « اورثته الرتبة العلمية السنية والوزارة الموحدية المؤمنية »^(٢٢) ، حيث ابتدأها كاتبها بقوله « كتابنا هذا من وادي ماسة بعدما تجدد من أمر الله الكريم ونصر الله تعالى المعهود المعلوم (وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم) فتح بهر الانوار اشراقاً »^(٢٣) .

فالبدية جاءت بدون اية ديباجة من بسملة او صلاة على النبي او ترضية عن الامام المعصوم او دعاء لامير المؤمنين الى غير ذلك مما سنجد عند كتاب آخرين كتبوا بعد ابن عطية ، وفي هذا النوع يعالج الكاتب المقصود مباشرة ويجعله محوره الاساس ، ولما كان موضوع الرسالة هو بشارة بفتح ،

فكان الكاتب يستعمل الأمر ويسابق السطور ليؤلف البشرى الى الخليفة فيتجاوز المقدمات والتهديدات .

٢ . وتأخذ رسائل رسمية أخرى ديباجة مختلفة في بعض رسومها عما سبق من نماذج ، ففي رسالة صدرت من العزفيين الى السيد ابي اسحاق الموحدي اخي امير المؤمنين المرتضى ، تتحدث عن رغبة العزفيين في ارسال وفد لتقديم البيعة الى المرتضى^(٢٦) تبتيديء هذه الرسالة باسم المرسل اليه كاملاً مع الالقاب : السيد الاجل الاعز ابو اسحاق بن سيدنا الامير الطاهر المرحوم ابي ابراهيم اين سيدنا الخليفتين الامامين اميري المؤمنين^(٢٧) ثم يدعو لمقامهم بالعلو والبقاء . ويعددها يشير الى المكتوب عنه فينعتة بلفظ (خديمهم) ويصفه بما يناسب من خصائص الخادم وصفاته ويأتي باسمه « خديمهم المتمم من خدمتهم ما حق عليه اتمامه ، الملتزم من تعظيم مقامهم واكباره ما يتعين حق الاخلاص له التزامه ... المستنهض لصالح الدين والدنيا عنايتهم الميسرة كل امل عز مراره ، فلان^(٢٨) ثم يؤتى بالبعدية والتصلية على النبي وآله ثم الرضا عن الامام المعصوم .. فالدعاء للحضرة الخلفية بما يليق مقتزنة باسم الخليفة .. والدعاء لحضرة سيدنا ومولانا الخليفة الامام المرتضى امير المؤمنين ابي حفص ابن سيدنا الامير الطاهر ابي ابراهيم ابن سيدنا الامامين اميري المؤمنين باطراد السعد الكفيل بذل مناويها ، وعز مواليتها ... الخ » ليدلف بعد ذلك الى المقصود بلفظ « كتب مصحوباً بالدعاء المقتبس من معاني الكتابة للمقام الاسمى ... وهكذا يستمر الكاتب حتى ختام الرسالة التي تنتهي بالدعاء مُجَنداً لجلالة المكتوب اليه ومقامه العالي .

٣ . ومن مكاتباتهم ما تبتيديء بعد البسملة والصلاة على النبي بذكر اسم المكتوب عنه ثم اسم المكتوب اليه والدعاء له بما يليق ثم تحية الاسلام ، وبعد ذلك تأخذ الرسالة مسارات الرسائل الاخرى من حيث البعدية والتحميد بلفظ « اما بعد حمد الله » أو « بعد حمد الله » والصلاة على النبي والترضية والدعاء لامير المؤمنين او لولي العهد - احياناً - ثم يؤتى بالمقصود ... الى آخر الرسالة التي تختتم بالسلام ويذكر تاريخ انشائها .

منه ما كتبه السيد الاعلى ابو حفص عمر عن نفسه ، معروفاً بفتح « غمارة » الى الشيخ الاجل ابي عبد الله بن الشيخ ابي ابراهيم « بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على

محمد وآله وسلم ، من عمر بن امير المؤمنين الى الحافظ ابي عبد الله محمد بن ابراهيم ادام الله كرامته بتقواه ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد حمد الله والثناء عليه ، والصلاة على محمد رسوله وعلى آله ، والرضا عن الامام المعصوم والدعاء لسيدنا امير المؤمنين ولولي عهده الامير الاجل ... »^(٢٧) وفي مختتمها يقول « والسلام الجزيل عليكم ورحمة الله وبركاته ، كتب في الرابع عشر من شوال سنة ثنتين وستين وخمس مائة » .

٤ . وفي بعض مكاتبات المبايعة يكون الابتداء بعد البسملة بالصلاة على النبي ثم الاشارة الى الامامة وتنعت بما يليق بها من صفات ، ثم يؤتى بالترضية عن الامام المعصوم ، والدعاء لامير المؤمنين ، ثم ينتقل الى المقصود مبتدئاً بلفظ .. أم بعد .. ويختتمها بذكر التاريخ ، وهذا غالباً ما يكون في رسائل المبايعات ، ويمكن ان نستشهد له بما كتبه أهل اشبيلية بمبايعة أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وهي من انشاء أحمد بن محمد^(٢٨) ، « بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم ، الحمد لله الذي جعل الامامة قواماً للحق ونظاماً للخلق ، وتاماً على الذي احسن برعاية العدل والرفق ، وأوجب الاعتصام بطاعتها والانتظام بجماعتها ، والصلاة على محمد نبيه المنيعت بنور الحق الساطع الاضواء والرضا عن الامام المعصوم ، المهدي المعلوم ... والدعاء لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين الخليفة المرتضى متم انوار الهدى ... وللامام الاعلى الهدي سيدنا ومولانا امير المؤمنين أبي يعقوب بن امير المؤمنين بدوام النصر والاستيلاء اما بعد فانه لما اجتمعت طائفة التوحيد ، وهم الذين تحضرهم من الله حاضرة التوفيق على تجديد البيعة المباركة لسيدنا أمير المؤمنين أبي يعقوب ... الخ »^(٢٩) .

وتتكمال البيعة بقوله في آخرها « وعلى مضغن ما نص فوق هذا التزم أهل اشبيلية كافة ، وكتبوا على ذلك شهادتهم في النصف من جمادي الاخرة سنة ثلاث وستين وخمس مائة » . او أن يؤتى بعد البسملة بقوله من فلان الى فلان ثم يؤتى ببقية الخطوات مثل النموذج السابق ، ومنه رسالة من انشاء أبي الحسن عبد الملك بن عياش جاء فيها .. بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وآله وسلم ، من عمر وعثمان ابني أمير المؤمنين الى الطلبة والاشياخ والاعيان

والكافة باشبيلية أدام الله كرامتهم بتقواه . سلام عليكم ورحمة الله وبركاته » أما بعد فالحمد لله الخ^(٢٠) .

٥ . وقد تاخذ رسائل طلب البيعة شكلاً آخر فتبتديء بلفظ من فلان الى فلان — دون بسملة — ويؤتى بالبعدية وحمد الله وشكره ثم الصلاة على النبي وبعد خطبة قد تطول يلتفت الى الترضية عن الامام المعصوم وعن صاحبه خليفة المسلمين أمير المؤمنين ... ثم الدعاء للمولى الامام أمير المؤمنين ... لينتقل الكاتب بعد ذلك الى جوهر الموضوع الذي هو طلب البيعة مستخدماً لفظ « وهذا كتابنا اليكم » مدخلاً للمقصود ، وغالباً ما يذكر اسم البلد الذي حررت فيه الرسالة مع الدعاء له بما يناسب ، ويمضي الخطاب الى غايته ليختم — بالدعاء ثم بالسلام والتاريخ . ومن نماذجه رسالة أنشأها ابو الفضل بن طاهر بن محشرة^(٢١) ، عن الأمير يعقوب بن أمير المؤمنين من اشبيلية الى الطلبة والموحدين والاشياخ والاعيان بفرنطة .. جاء فيها « من الأمير يعقوب بن سيدنا أمير المؤمنين بن سيدنا أمير المؤمنين — أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته الى الطلبة والموحدين والاشياخ والاعيان والكافة — بفرنطة — أدام الله كرامتهم بتقواه وعرفهم عوارف نعماء ورحمائه — سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . اما بعد فانا نحمد اليكم الله الذي لا اله الا هو ، ونشكره على آلائه ونعمه ، ونصلي على محمد نبيه المصطفى ورسوله والرضا عن الامام المعصوم ، المهدي المعلوم وعن صاحبه وخليفته سيدنا الامام أمير المؤمنين القائم من الانتهاض بأمر الله مقامه ... والدعاء لسيدنا ومولانا الامام أمير المؤمنين بن سيدنا أمير المؤمنين ... وهذا كتابنا اليكم — أسمعكم الله من بشائر هذا الامر العزيز ما يملأ قلوبكم ارتياحاً ... من حضرة اشبيلية — حرسها الله الخ^(٢٢) » ثم يختتمها بالسلام وبالتاريخ .

٦ . أن تبتديء الرسالة بلفظ « الحضرة » مذيلة بعبارات المديح والثناء ، وآيات الدعاء ، ثم يؤتى باسم كاتبها مقترناً بصفة العبودية أو الخادمة ، ثم بتحية السلام على الحضرة المعظمة والمقدسة والمفخمة ، ويؤتى بعدها بالتحميد والصلاة على النبي والترضية عن الامام المعصوم ، ثم بالدعاء للمقام العالي بما يناسبه ، وبعدها يؤتى بالمقصود ، وخير مثال على ذلك رسالة كتبها ابن سعيد الاب من اشبيلية الى أبي محمد عبدالواحد بن أبي يعقوب بن عبد المؤمن مهتماً له بالخلافة حين بويغ بها بمراكش ، وكان قبل ذلك كاتباً له

ومختصاً به ، جاء فيها « الحضرة العلية ، السامية السنية ، الطاهرة القدسية ، حضرة الامامة ، وجنة دار الاقامة ، مد الله على الاسلام ظلها ، وأنمي في سماء السعادة تمامها وكمالها ، وهنا المسلمين باستقبال امارتها ، وأدام لهم بركة خلافتها ، عبد أيديها ، وخديم ناديها ، المتوسل بتقديم الخدمة المتوصل بعميم النعمة وكريم الحرمة ، المنشد بلسان المسرة ، حين أطلع الزمان هذه الغمرة :

أنته الخلافة منقادة اليه تجرر أذيالها

فلم تك تصلح الا له ولم يك يصلح الا لها

موسى بن محمد بن سعيد لا زال هذا الامر العلي محموداً سعيداً

سلام الله كريم يخص حضرة الاجلال والتعظيم والتقديس والتفخيم ، ورحمته وبركاته ، وبعد حمد الله والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبيه الكريم والرضى عن الامام المهدي المعلوم الذي أفاء الله به على الدين الحنيفي ظلاله ، وأذهب عنه طواغيته وضلاله ، والدعاء للمقام العالي الكريم بالسعد المتوالي والنصر الجسيم الخ^(٢٣) .

وهكذا يستقص الكاتب ويزيد في اسباغ النعوت والصفات على الحضرة وساداتها ما أسعفته القواميس وفاضت به قريحته اللغوية .

ويبدو لنا ان مثل هذا الاسلوب قد عرف أواخر الحكم الموحيدي ، لأننا لم نجد نظيره قبل ذلك .

وقد يأخذ هذا الرسم أسلوباً آخر بان يؤتى باسم المرسل اليه بعد ذكر الحضرة مقترناً بها ، كان يقال « حضرة سيدنا الخليفة الامام العادل أمير المؤمنين ... »^(٢٤) أو ما يشبه ذلك . ٧ . اذا كانت بعض المكاتبات تبتديء بلفظ « الحضرة » فان بعضها الآخر يستخدم لفظ الحضرة مسبوقه بالبسملة والصلاة على رسول الله محمد — ص — وتعرف الحضرة باسم صاحبها أو لقبه ويشار الى اسم المكتوب عنه ثم يحيي الكاتب الحضرة بما يليق ثم يقتفي بعد ذلك أسلوب الآخرين في الرسوم الاخرى من الرسالة ، فيؤتى بالحمد والصلاة والترضية ثم يلج الموضوع الرئيس بلفظ « كتب » أو فكتب » ويذكر اسم البلد الذي كتبت فيه . ليختم بعد ذلك رسالته بالسلام وذكر تاريخ الكتابة .

منه رسالة وجهها الشيخ الاجل أبو عبدالله بن أبي ابراهيم : الى أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن :

المصرية ، وكتبهم تختم بالسلام غالباً ، وربما ختمت بالدعاء ونحوه « ويمكن أن نضيف الى تلك الخصائص : أنهم يترضون أيضاً عن الامام المهدي وينعتونه بالعصمة . بحيث أصبح هذا تقليداً درج عليه جميع كتّابهم وغدا سمة مميزة لمراسلات الموحدين ومخاطباتهم .

الجانب الفني :

في بداية البحث تحدثنا عن منزلة الكتابة الرسمية في هيكل الدولة ، ومكانة القائمين عليها من الكتّاب ، وتعرفنا على أهمية شاغل هذا الموقع وما يجب ان يتصف به من سمات وخصائص ، وما يتميز به من خلق وعلم وثقافة ، وما يتمتع به من امتيازات سلطوية ومادية تجعل منه شخصاً مؤثراً ومشاركاً في رسم كثير من القرارات التي توجه دفة الحكم وتسير أمور الدولة وشؤونها الكبرى . ومن هنا يغدو التنافس والتدافع للحصول على هذا الموقع والوصول اليه ، بأساليب ميكافيلية أو غيرها ، أمراً متوقفاً ، كما هو أمر متوقع أن نجد من هؤلاء الكتّاب من دفع رأسه أو حريته ثمناً بحق أو غير حق نتيجة وشاية أو حسد أو حقد من الآخرين .

وعلى كل حال فان كتاب الدواوين كانوا حريصين على نوال رضا رؤسائهم وزيادة الحظوة لديهم متوسلين الى ذلك بما يقدمونه من أبداع في مكاتباتهم ، ومن قدرات على فهم ما يدور في خاطر السلطان أو الامير أو المخدوم وما يرغب في التعبير عنه وايصاله الى الآخرين ممن تكتب اليهم الرسائل ، ولذا فاننا نقدر ان الرسائل الرسمية قمة في الجودة الفنية ، لان منشئها يوظف كل قدراتهم الفنية والعلمية والثقافية وما يمتلكه من معارف لاجرا رسائله في أبهى رونق وأحسن شكل ، والطف لفظ وأعمق معنى وأوضح دلالة ليثير أولاً دهشة مولاه ولينتزع ، ثانياً ، اعجاب المجلس الثقافي الذي ينصت الى تلك الرسائل ، سواء في الحضرة التي تكتب فيها او الحضرة التي تكتب اليها ، فهي صنعة تحتوي على شيء من المصلحة المتبادلة بين الكتّاب والمخدوم ، « مصلحة شخصية للكتّاب ، وحرص من قبل السلطان على صيانة الدولة وتوطيد دعائمها وإحكام تدبير شؤونها »^(٢٩) .

ولكون كتّاب السلطة يعالجون موضوعات مختلفة ومنوعة ويعبرون عن توجيهات الحكام ووصاياهم وآرائهم في مختلف القضايا والشؤون ، فان طبيعة عملهم تتطلب منهم بالضرورة

« بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على محمد وعلى آله وسلم ، الحضرة السامية ، حضرة سيدنا ومولانا الامام الاعدل ، الخليفة الصالح المنصور بالله عز وجل أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته ، من ملتزم أوامرهم العلية المتبرك بمعاليمهم السنية محمد بن أبي ابراهيم : سلام على حضرة سيدنا ومولانا أمير المؤمنين ... الخ »^(٣٠) .

وهكذا يستمر الكتّاب الى آخر الرسالة .

٨ . ومن رسائلهم ما يبتدئ بلفظ « محل » مضافاً الى ما يُعرفه كأن يقال « محل الشيخ الاجل » ويؤتى بوصف يليق به ثم يؤتى باسم المخاطب بالرسالة ... ويختتمها بالسلام وبالتوقيع باسم المرسل . من نماذج ما كتبه محمد بن ابراهيم المواعيني^(٣١) ، أبو القاسم الى السيد محمد بن أبي ابراهيم اسماعيل بن الخليفة أمير المؤمنين مهناً حينما تولى أمر اشبيلية حيث بدأها بقوله « محل الشيخ الاجل ، الحبيب المبارك الافضل محل لا يدانى سموه الاسبق ونموه الاسبق وكيف لا وشيخ الموحدين ، وطائفة الحق المهتدين ... أبو ابراهيم أبوه ، أضفى الله عليه ظلاله وأوسع في منازل الزلفى مراتبه وجلاله ، هو قعدده الشامخ ، ومستندده الباذخ ... »^(٣٢) ، ويقول قبل ختامها : « والسلام الاكرم الادوم على حضرة الشيخ الاجل الموقر المعظم أبي عبد الله ورحمة الله وبركاته » وأبو عبد الله هذا هو ابن أبي ابراهيم وأخ محمد ابن اسماعيل ثم يأتي بأخرها باسمه منعوتاً بصفات الطاعة والخضوع « ملتزم أمرهم ومعظم حقهم ، رهين شكرهم محمد بن ابراهيم » .

ومن خلال ما تقدم في الصنفين ، الأول والثاني ، نبدولنا ان لمكاتباتهم الرسمية رسوماً وتقاليد معروفة لا يصح الخروج عليها ، يلتزمون بها ويقتفون آثارها ويحرصون على التمسك بها ، كما غدت لها خصائص ومميزات ذات قيمة ، اعتبرها القلقشندي من الأمور التي انفرد بها الكتّاب الأندلسي عن كتاب المشرق والديار المصرية ، ومن تلك الخصائص والسمات « ان المخاطبة تقع للمكتوب اليه بميم الجمع مع الانفراد ، كما تقع الكتابة عن المكتوب عنه بنون الجمع مع الانفراد »^(٣٣) ومنها « أنهم ملتزمون الدعاء بمعنى الكتبة عند قولهم : كتبنا ... وأنهم يترضون عن الخليفة القائمين بدعوته في كتبهم .. وأنهم يذكرون اسم المكتوب اليه في أثناء الكتاب ، وباقي مكاتباتهم على نحو مكاتبات أهل الشرق والديار

ثقافة موسوعية وخزناً من المعارف والمعلومات التاريخية والدينية والأدبية وغيرها ، ليكون الكاتب قادراً ومتمكناً من تناول تلك الموضوعات والتعبير عنها بوضوح ودقة تحقيقاً هدف المكتوب عنه وغايته ، وتصييان ما في نفسه ، خاصة وان مثل هذه المكاتبات تعالج موضوعات عديدة واغراضاً متنوعة وكثيرة ، كان تعالج وصفاً لمواقع حربية او بشارة بنصر او فتح حصن او عقد سلم او تحريض على الجهاد او طلب المبايعة أو تولية الامراء على الاصقاع والاقطار او التوجيه السياسي ، أو الحث على التمسك بالدين الحنيف او وصف الاحوال العامة للرعية او التهنية او التعزية وغيرها من امور لها مساس بالسلطة ويتطلبها الحكم وتقتضيها ظروف الدولة السياسية والدينية والاجتماعية .

ومن هنا نلاحظ ان طبيعة هذه المكاتبات وأساليبها وصيغها ورسومها ليست مثل بقية كتاباتهم النثرية وانما تشمل مختلف مناحي الحياة وشتى ميادينها . وفي وقفة متأنية عند دراسة الجوانب الفنية لهذا اللون النثري سيتضح لنا مقدار الجهد الذي يبذله الكاتب في بناء تلك الرسائل ، جهد قد يضر أحياناً ، بسبب مبالغته واسرافه في التصنع^(٤٠) بقيمة النثر الفنية ويقلل من جودته وجماليته .

وعلى كل حال فان المتابع للنثر الرسمي خلال فترة الموحدين يمكن ان يلمس خصائص وسمات معينة واضحة تطبع نتائجهم بطابعها ، وتوشم ملامحه بوشمها ، فننظريه معالم وابعاداً تحدد شخصيته ، الى حد ما ، وتميزه عن غيره من النثر الأندلسي في فترات سابقة أو لاحقة ، فمن ابرز الخصائص والسمات التي تميز بها :

١ . ميل الكتاب الى اضاء صيغة دينية على رسائلهم ، وتوشيحها بالآيات القرآنية والاحاديث النبوية وتوشيعها وتعطيرها باخبار السيرة والصحابة ، وتعزيزها باحكام الفقه والشريعة الى غير ذلك مما يشيع جواً دينياً على روح الرسائل ، ويكثر ذلك في المكاتبات التي تعالج موضوعات مثل الحث على الجهاد أو الانتصار على الكفار او دعوة الجمهور الى التمسك بالدين والتقيد باحكام الاسلام او في وصف تساقط المدن والقواعد وراثتها والتصبر على محنتها . وغيرها من اغراض تتطلب طبيعة موضوعاتها الاستشهاد بالقرآن الكريم او بالاحاديث النبوية والاحكام الفقهية لتعزيز الموقف واسناد الرأي بالحجة القاطعة والقول الفصل .

ولعل أسباب طغيان الروح الدينية على النثر الادبي في

هذه الفترة ، اضافة الى مقتضيات طبيعة الموضوع ، تعود الى طبيعة التعليم المعتمدة أساساً في الأندلس التي يتلقاها المتعلم منذ سنواته الاولى والتي تقوم على بناء قاعدة عريضة من الثقافة الاسلامية قوامها القرآن وأحاديث النبي وما يتعلق بهما من علوم ودراسات وأحكام نظمت وقعدت عبر القرون . فكان لكل ذلك تأثير كبير على ذهنية المثقف وطريقة تفكيره ، خلفت آثارها وتركت بصماتها على نتاجه^(٤١) كما ان ظروف العصر وما صاحبها من مواقف سياسية ومعارك وصراعات دينية ، وما تمخضت عنه ، وبخاصة أواخر أيام الموحدين ، من سقوط بعض المدن الاسلامية الأندلسية بيد الاسبان ، كان لها دورها وأثرها في نزوع المخاطبات الرسمية نزعة دينية ، « فالعصر كان عصر جهاد وصراع بين الاسلام والصليبيين والفرنج في العالم الاسلامي عامة والأندلس خاصة ، وفي ذلك ما يدعو الى اصطباغ الأدب / شعراً / ونثراً ، بصبغة الحماسة الدينية »^(٤٢) .

ينضاف الى ما تقدم سبب آخر يقوي الطابع الديني الذي تتسم به المخاطبات الرسمية هو متانة العلاقة بين الدين والسلطة ، فالسلطان او امير المؤمنين في زمن الموحدين كان يمثل السلطتين الدينية والدنيوية فهو الرئيس الديني كما انه الرئيس السياسي ، ويتجلى ذلك خاصة في مراسلاتهم التي تعالج أمور الشريعة كالحث على التزام قواعد الاسلام واحكامه في المعاملات وفي الحياة اليومية ودعوة الحكام والولاة الى تطبيق الشريعة والعدل بين الناس والدعوة الى الجهاد في سبيل الله ونصرة دينه الى غير ذلك من موضوعات ذات علاقة بالدين الاسلامي الحنيف^(٤٣) .

ويتضح الطابع الديني الاسلامي فيما أوجده من رسوم غدت تقاليد وقواعد في كتاباتهم الرسمية والديوانية ، وبخاصة ما تكون عليه مقدمات المكاتبات وخواتمها من مثل البسملة والتحميد والصلاة على النبي محمد - ص - وآله وصحبه ، والترضية عن الخلفاء أو السادة الرؤساء والترضية عن الامام المعصوم وما تختم به من دعاء وسلام ، كل ذلك يضيف على رسائلهم جواً دينياً ، يضاف اليه ما يعزز انشأهم وكتاباتهم من نصوص تراثية أو اقتباسات دينية تأتي في حشو رسائلهم حسب مقتضى الحال ، لكنها تأتي بمقدار مقبول وغير طاغ ، ومن أمثلة تلك المراسلات الديوانية التي تعبقت بجو ديني ، رسالة كتبها ابو جعفر بن عطية عن امير المؤمنين عبد المؤمن بن علي الى شيخ - لم يسمه - وجماعة المشيخة بقرطبة :

جاء فيها بعد السلام : « اما بعد فانا نحمد اليكم الله الذي يصل الفتوح لأوليائه بفتوح ، ويلهم الراشدين من عباد الله الى كل رأي نجيب ، ويقرب للمقربين بالتوبة النصوح ، كل أم شاسع ومامل نزوح ، ونشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة من علم وحدانيته على جلاء من آياته ووضوح ، ونصلي على محمد نبيه المصطفى صلاة يستقبل بها من رحمته شطر باب مفتوح ، ونستنزل ببركتها على جنابه الانضر كل سحاب سفوح ، وعلى آله الاكرمين وأصحابه الظافرين من هدها بحظ ريح ... ونصل الرضوان المستدام على ما وجب الله الاقتداء به والائتمام ، الامام المعصوم ، المهدي المعلوم ، القائم بامر الله قيام من كان لله ولرسوله ولكافة المؤمنين خير نصيح .. »^(١١) وبعد ذكر المكان الذي كتبت فيه الرسالة يعود الكاتب ليشير الى رسالة وردت الى الخليفة من جماعة المشيخة بقرطبة وفيها - كما يفهم من حشو الرسالة - بيعة ، فيقول الكاتب ... « ويفضله - جلّت قدرته - ما استفاض ببركة هذا الامر المبارك من نور قدسي وخير معنوي وحي ، وما قرّبه بيمنه من امل قصي ، ولحبه من شديد قسي ويسمعه أوليائه من نبا انسي واستمسك الراشدون منه بعروة لا تنفصم واعتصموا بما لا ينجى من دعوته الربانية ويعصم ، وخاب عن هذه الرحمة الواسعة الناكس المتأخر والالذ الخصم ، » وهكذا يستمر الكاتب في جوهر موضوعه داعياً أبناء قرطبة الى التمسك بالعروة الوثقى والى طاعة الله ونبيه ومهديه « ... وعضوا على طاعة الله ونبيه ومهديه بالنواجز عضا مسكباً لباحثها مفيداً واشهدوا الله تعالى على التزامها والدخول تحت إحكامها » . ويؤكد على التمسك بامر المهدي « فهو سبب النجاة والخلاص ، والمأمّن من نوائب الانتكاس والانتقاص » فهذه الرسالة بموضوعها وجوها ولغتها لا تخرج عن الجو الديني ، ولكنها تتمتع بأسلوب جميل مسجع محبب ، ولغة سليمة سلسلة قادرة على الوصول الى المتلقي ببسر وسهولة .

ومثال آخر في استخدام التراث الديني وشواهد التاريخ الاسلامي خلال كتاباتهم السلطانية وبخاصة موضوعات الجهاد والحرب ، رسالة كتبها ابن عيّاش لامير المؤمنين الناصر تتضمن اعتذاره عن الهزيمة التي حلت به في موقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ ، جاء فيها « ... كان بين المسلمين وبين أعدائهم يوم ذي كواكب نازعت فيه المواكب على المواكب ، وموقف نرجو أن يراه الله لنا وان يقبل فيه عملنا ، اشتد فيه

الكفاح وأرخصت فيه الارواح ، لكن أراد الله فكانت العاقبة المطلقة هي لاهل الاسلام والايمان هي الحروب قضى الله ان تكون سجّالاً ، وان يجعل الله فيها لكل قوم مجالاً ، كذلك كانت في زمن النبي - ص - والوحي غصّ نضير ، وجبريل من السماء الى الارض في كل وقت سفير ، وكذلك كانت في زمن الخلفاء رضي الله عنهم ، كل ذلك ليعلم الشاكر والصابر عنهم فما كان الله ليترك المؤمنين حتى يأخذ أعداءهم أخذاً ويبيلاً ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ... »^(١٢) فقد استخدم الكاتب الآيات القرآنية بمعانيها كما انه أشار الى تاريخ النبي والخلفاء من بعده وما تعرضوا له في حروبهم من اخفاقات وهزائم في بعض الاحيان ، لكنها كانت هزائم تعقبها انتصارات للمسلمين .

٢ . ولا يقف اعتماد الكتاب على مصدر واحد هو الثقافة الدينية في بناء رسائلهم وترصينها وسبك أسلوبها ، بل كانوا ينهلون من الثقافة الادبية والتاريخية كذلك ، فيضمنون مراسلاتهم شعراً وأمثالاً وأقوالاً مقتبسة وحوادث واخباراً تاريخية معروفة وغيرها . وقد اشار القلقشندي الى تقاليد ذلك ورسومه في المشرق والمغرب . حيث قال : « وأما الشعر فيورده حيث يحسن ايراده ، ويمنعه حيث يحسن منعه ، وليس كل مكاتبة يحسن فيها ايراد الشعر ، بل يختلف الحال في ذلك بحسب المكتوب عنه والمكتوب اليه »^(١٣) ، ثم قرر انه لا يتمثل بالشعر في المكاتبات الصادرة عن الملوك والصادرة اليهم ممن هم دونهم ولكن « الملوك والخلفاء اذا كتبوا الى من ضاهاهم في أبهة الملك وقاربهم في علو الرتبة فانه لا يمنع التمثل بابيات الشعر فيها ، تطريزاً للنثر بالنظم . وجمعاً بين جنسي الكلام اللذين هما خلاصة مقاصده »^(١٤) ، ولكننا في الاندلس والمغرب نجد ان المكاتبات الرسمية لن تتخرج من التمثل بالشعر بل ان بعضها تجاوز ذلك فكان كله شعراً - كما ذكرنا سابقاً - أو جزء كبير منه شعراً . بغض النظر عن الجهة التي خوطبت بالرسالة ومستوى المخاطب والمخاطب فمن ذلك رسالة وجهها الخليفة عبد المؤمن بن علي الى أهل اشبيلية ليؤلف اليهم بشرى فتح مدينة (المهدية) سنة ٥٥٤ هـ . حيث جاء في آخر الكتاب قطعة شعرية تتكون من اثني عشر بيتاً يعتقد انها من نظم أمير المؤمنين نفسه وأولها : ولما قضينا بالمشارك أمرنا وتم مراد الله في كل مطلب^(١٥) ومنه ما كتبه السيد الامير ابو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن امير اشبيلية يستنجد بوالده ويدعوه للقدوم اليه

للقضاء على فتنة ابن مردنيس وقد ضمن رسالته شعراً من نظم
الاستاذ أبي العباس ابن سيد المالقي وأولها :
هو الامر أمر الله ليس له ردّ يؤيده أيد ويسمو به جدّ^(٥١)
ومجموع الابيات خمسة عشر بيتاً حسب رواية ابن
صاحب الصلاة ، وكان جواب أمير المؤمنين رسالة طويلة فيها
شعر على وزن الابيات اللاتي تضمنتها رسالة ولده وقافيتها
ولا يعرف من هو كاتب الرسالة او ناظم الشعر . وأول هذه
الابيات التي يصل عددها الى خمسة وثلاثين بيتاً قوله :
تسنى لاهل الحق نيل مرادهم وطاب لهم فيما يرومونه^(٥٢) الورد

وفي رسالة ابن سعيد الاب التي كتبها الى عبد الواحد
الموحدي ملك المغرب مهنئاً له بالخلافة حين بوبع بها
بمراكش ، تضمن لشعر من نظمه ومن نظم غيره من
الشعراء^(٥٣) ، وفيها اقتباس من التراث الادبي والتاريخي . مثل
قوله : « خليفة له النفس العُمرية ، الآراء العُمرية ، والفراصة
الإيائية ، ولا ينبئك مثل خبير »^(٥٤) .

وفي الرسالة التي وجهها كاتب الخلافة أبو جعفر أحمد
بن عطية القضاعي الى مخدومه أمير المؤمنين عبد المؤمن بن
علي مستعظماً اياه اثناء محنته ، كثير من الانكاء على التراث
الادبي والتاريخي والديني واستحضار لمخزون حافظته
وعلموه سخرها كلها لخدمة هذه الرسالة التي كانت شفيعة
ورسوله الى الخليفة وقد ختمها بشعر رقيق جميل مؤثر في
الاستعطاف^(٥٥) .

والرسالة بجملتها عبارة عن تذكير بأحداث تاريخية
تشير الى عصيان اصحابها ونكرانهم وكفرهم ولكن أبا جعفر
يشير الى انه لو كان واحداً منهم واقترب عظامهم اعمالهم
المنكرة او كان قد تحمل ذنوب الدنيا كلها وكتب له ان يأتي
حضرة الامام المهدي المعصوم لائذاً وعائذاً لكان ذلك كافياً
لسماع عذره وغفران خطيئاته وذنوبه (وأن يمسحها ويعفو
عنها) ولكن هذه الرسالة كانت صرخة في واد فلم تنفع ولم
تشفع ، ورسالته تذكرنا برسالة ابن زيدون الجديدة التي كتبها
هو الآخر من السجن الى ابن جهور من حيث الأسلوب واللغة
ومن حيث استخدام التاريخ وحوادثه واستحضار ثقافته العامة
للوصول الى غرضه الذي هو العفو .

ومثله يكثر ابو المطرف بن عميرة في استخدام التراث
في بعض رسائله ، منها رسالته التي كتبها نظماً ونثراً لأحد
الرؤساء بشاطبة والتي جاء فيها بكثير من الامثال والاعلام

التي تحتاج الى ثقافة تراثية واسعة لفهمها ومعرفة
مدلولاتها^(٥٦) .

٣ . وامتازت الرسائل الرسمية لهذه الفترة بسمات شكلية
مظهرية تعنى باللفظ من حيث جرسه وصوته ، ومن حيث توافق
الوحدات الصوتية وتناسق مقاطعها حتى ليفدو نثرهم قريباً
الى الشعر وقد يبالغ بعضهم فيلتزم ما لا يلزم أو يلتزم حرفاً
واحداً يتكرر في كل مفردات رسالته . ويحلوا لبعضهم ان يحقق
براعة في صوره النثرية عن طريق استخدام وسائل بلاغية
عديدة من جناس أو طباق أو تشبيه أو استعارة أو كناية أو
غيرها . وكل ذلك يكون مقبولاً ومعقولاً في حالة استخدامه
كالمح في الطعام ، ولكنهم كانوا أحياناً يتزيدون منه حتى
يفدو جميل نثرهم قبيحاً وحسن كلامهم مشوهاً ، ولطيفه ثقيلاً
ممجواً .

وكثيرة هي الرسائل الرسمية التي تعتمد السجع
والمحسنات اللفظية الأخرى في موروث فترتنا . من ذلك رسالة
كتبها ابو عبد الله بن عياش في نزول الناصر على المهدي براً
وبحراً واسترجاعها من ايدي الملتجئين حيث شبه المدينة
بمروس تزف الى فارسها ، وكان مهرها رؤوس المقاتلين
الشجعان ، وحنائها دماءهم ، « ... ولما اجتلينا منها عروسا ،
قد مد بين يديها بساط الماء ، وتوجت بالهلال وقرطه بالثرى
ووشحت بنجوم السماء والسحب تسحب عليها أردانها
فترتديها تارة مثلثة ، وطوراً سافرة خطبناها فارادت
التنبيه على قدرها ، والتوفير في اعلاء مهرها ، ومن خطب
الحسنة لم يُغله المهر ، فتمنعت تمنع المقصورات في
الخيام ، وأطالت أعمال العامل في خدمتها وتجريد الحسام ،
الى أن تحققت عظم موقعها في النفوس ، ورأت كثرة ما ألقى
لها من نثار الرؤوس ، جنحت الى الاحسان بعد النشوز ، ورأت
اللجاج في الامتناع من قبول الاحسان لا يجوز ، وامتعته على
رغم رقيها بعناقتها ورشف رضاها ، فبانت معرّساً ، حيث
لا حجال الا من البنود ولا خلوق الا من دماء ابطال
الجنود »^(٥٧) .

ولا يخفى ما في الرسالة من جمالية سواء في التصوير
والتشبيه او في استخدام المحسنات اللفظية من الجناس
والطباق لاضفاء روعة وبهاء اضافيين الى جمالية الصورة .
ونموذج ثان تمثله قطعة من رسالة لابي جعفر بن عطية
كتبها عن أبي حفص عمر اينتي في موقعة الماسي : « فتح بهر
الانوار إشراقاً ، وأحلق بنفوس المؤمنين إحداقاً ، ونبه للأمانى

النائمة جفونا وأحداقاً ، واستغرق غاية الشكر إستغراقاً ، فلا تطبيق اللسن لكُنْ وصفه إدراكاً ولا لحاقاً ، جمع أشنات الطلب والادب ، وتقلب في النعيم أكرم مُنقلب ، وملا دلاء الأمل الى عقد الكرب ... الخ «^(٩٦) ، وهكذا يستمر في سجعته متنقلاً من حرف الى حرف ، يبنى عليه ما أسعفته القريحة من سجعات قد تطول وقد تقصر .

وليس من قاعدة ثابتة في سجعهم ، ولكنهم بشكل عام كانوا يكثرّون من السجعتين او الثلاث ، ويقلّون في الاكثر من ذلك ، وفي الحالة الاخيرة تبدو على نثرهم ظلال الثقل والتكلف .

وفي النموذجين السابقين نلاحظ السجعات المزدوجة والثلاثية والخماسية ، اما الرباعية فمثاله ما جاء في رسالة الأمير الاعلى أبي يعقوب الى الخليفة أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي .

« ... ان من الواجب الحتم والمفترض الجزم ، ان يقدر أولاً النعمة بكمالها ، ويعمر خاطره بتفصيل اجمالها ، ويحضر في ذهنه بهجة جمالها ، ويسرح عين اعتباره في مناقل أحوالها ... »^(٩٧) .

وقد تصل السجعات في بعض مكاتباتهم الى احدى عشرة سجة مثل ما جاء في رسالة لابي الحسين بن عياش عن أمير المؤمنين أبي يعقوب في فتنة غمارة ومقتل سبيع بن متحفاد . منها « ... مواقف خيرته وندمه ، كما ان من ضلّ في الاعتلاق بحبله والتمسك بعصمه ، وركن الى ذراه وروى الى حرمة ، فقد أخذ بالوثيق من عهود ذممه ، وارتقى في مرتقى فوزه في سببه المتين وسلمه ، ونصلي على محمد رسوله ونبيه الذي ابتعثه بباهر حكمه ، ومعجز كلمه ، فهدى الى نهج الحق وأمه ، ودلّ على سحنته ولُقمه ، وأثار برسائله الجامعة ما غطى من غياهب الضلال وظلمه ، وأبلغها حنيفية . سمحة الى عرب الانام وعجمه ... »^(٩٨) . وبعدها يأتي بسجعتين مختلفتين ثم يعود الى السجة السابقة نفسها ليأتي بثمان متتاليات منها . والملاحظ ان سجعاتهم لا تأخذ على العموم توازناً ولا تناسقاً في عدد مفرداتها وفي أحوالها وانما تتفاوت وتتباين بين سجة وأخرى .

ومن الملاحظ ان الكاتب ابا عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عياش قد استخدم الطريقة السابقة نفسها في احدى رسائله ، وذلك بان يأتي بمجموعة جمل ذات سجة واحدة ثم يأتي بجملتين بسجة مفارقة ليعود بعدهما الى

سجته الاولى فيبنى عليها عدة جمل قد تزيد من العدد الاول او تنقص ثم يغير النظام بجملتين متوافقتين في سجعتهما ولكنهما مغايرتين لما قبلهما وما بعدهما ، ويكرر سجته الاولى التي بدأ الرسالة بها ... وهكذا ... ومثاله قوله في مقدمة رسالة كتبها عن الامين محمد الناصر الموحدى « الحمد لله فاتح الاعلاق ، ومانح الاعلاق ، مد هذه الدعوة الامامية من السبع الطبايق ، وناصرها في البحار المرتجة الغوارب النازحة الافاق ، الواحد الذي فطر هذه العصابة على التظافر في اعزاز دينه والاتفاق ، وأغناهم في كل موطن ومازق طعن وضرب عن السمر العوالي والبيض الرقاق ، والصلاة على سيدنا محمد نبيه ورسوله الناشيء في أشرف المناسبات وأكرم الاعراق ، المنبعت لتغيير السنة الجاهلية ولتتميم مكارم الاخلاق »^(٩٩) . وبعد هذه السجعات القافية يأتي الكاتب بجملتين على سجة مفارقة لما سبق فيقول « ... المصطفى على حين فترة من الرسالة ، وعموم من الجهالة والضلالة » وبعدهما يعود الى سجته القافية السابقة ، فيكمل كلامه بقوله « بالآيات الساطعة الوضوح النيرة الاشراق ، الداعي الى الله بالمواعظ المستولية على القلوب والسيوف المستعالية على الاعناق ... الخ » وهكذا يستمر الكاتب الى ما شاءت له قريحته ثم يغير سجعته بسجة مزدوجة لتغيير النبرة وإبعاد الملل الذي قد يولده في نفسه او نفس السامع كثرة تكرار السجع على صوت واحد وحرف واحد .

وفي رسالة اخرى له اتبع أسلوباً آخر في طريقة صياغة الرسالة حيث يعتمد سجة معينة تكون هي الام او العمود الفقري في هيكل الرسالة ، وتنضوي داخل كل سجة سجتان فرعيتان ، وبذلك يخلق الكاتب تسجيماً داخلياً ضمن التسجيع العام للرسالة ، ولكن هذا الاسلوب ليس هو الترصيع الذي أشار اليه الاقدمون لانه يختلف عنه في طريقته^(١٠٠) . من نماذجه رسالة كتبها ابو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عياش عن الأمير محمد الناصر الموحدى يقول فيها « الحمد لله الحق بكلماته ، ومبطل الباطل برغم دعائه ، وناصر هذا الحزب في حركاته وسكناته ، ومظهره في مآم يؤمّه ، وشعث يلمّه ، على عاداته ، ومنجده على كل منوي قريب او قصي ، بصانق عاداته ، الواحد الذي قرن النصر المؤزر ، والفتح الميسر ، بعزماته ... الخ »^(١٠١) ، فقد كانت سجعته الام مبنية على حرف الهاء المسبوق بالتاء والالف ، ولكنه وفي رغبة منه في زيادة الجذب الموسيقي الذي تولده الاصوات المتناسقة المنبعتة عن

السجع أوجد أصواتاً جديدة وجرساً اضافياً بما أوجده من سجمات داخلية هي في النص السابق تتكون من المفردات : يومه ... يلمه ، مئوي قصي ، المؤزر ، الميسر .

وهذا اللون من النثر المسجوع لا يخلو من تصنع وتكلف تبعده عن السلاسة والانسيابية .

ويخلو لبعض الكتاب ان يظهر مقدرة اللغوية فيتعلم الاتيان بسجمات ملتزمة بالكثير من حرف وهو ما يسمى في الشعر « لزوم ما يلزم » ، منه ما جاء في رسالة ابي عقيل عطية بن عطية التي كتبها عن امير المؤمنين عبد المؤمن بن علي اذ يقول فيها ... « وهم يتذمّمون من اصرارهم ، ويتوسلون بخلوص اعلانهم وإسرارهم ، ويصرحون بأن ما سلف من سلف ، ليس من إعمارهم ، ... ثم صدروا على بركة الله وقد ظفر بالرحمة أنهم وتائبهم ، وشكرت مواقع النعمة السنتهم وحقائبهم »^(٦٢) ومن رسائلهم في اضاء بهاء وجمالية على نثرهم تطعيمه بالمحسنات البلاغية ، والبهارات اللفظية التي تخلق تناغمات صوتية ، او تناسقات في مقاطع الكلام ، او اشارات في ذات القاريء او السامع تخلفها وتحفزها ما تولده المفردات من صور وتشبيهات واستعارات يكون للجناس والطباق والتشبيه وغيرها من أساليب بلاغية معروفة قسط واف في بنائها وتشكيلها ... وبما ان ذوق العصر آنذاك كان يطرب لمثل ذلك ، ويعجب به ، فقد أعطى النثر والكتاب هذا الجانب أهمية خاصة وعناية ملحوظة في اساليبهم ، فلا تكاد رسالة من رسائلهم تفتقر الى تلك الالوان او تخلو من تلك الاصباغ والمجملات البيانية والبديعية . وان استخدامها بمقدار وحسب مقتضى الحال يكون جميلاً ورائعاً ، ولقد اكد ذلك الدكتور ابن شريفة وهو بصدد الحديث عن خصائص نثر أبي المطرف بن عميرة حيث قال « ان خصائص نثره هي على العموم الخصائص ذاتها التي عرفت في النثر الفني منذ القرن الرابع الهجري وظلت تتطور وتتعدّد بعد ذلك ، وهي خصائص تقوم على السجع والجناس بمختلف أشكاله وعلى باقي ضروب البديع والوانه »^(٦٣) .

ومن امثلة تنكية نثرهم بالعناصر البلاغية ، وتحسين جرسه وصوره وشكليته قطعة نستلها من رسالة ابي عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عياش من امير المؤمنين الى الطلبة والاشياخ « ... وعند ذلك تحرّك الموحدون على ما جاءت به السنة الحنيفية من الاعداد والارهاب ، عالمين بأن لا عدة ولا مدة ولا قول ولا صول الا بما يفيض عليهم من خزائن رحمة

ربهم العزيز الوهاب ، عائذين بالله من الاعجاب بأن يركبوا له طرفاً جامعاً ويقدوا اليه طرفاً طامحاً »^(٦٤) ... فالعبارات السابقة تتزين بما ذكرناه من محسنات بديعية بيانية وسجعية ، تحقق لها شيئاً من الجمالية والرونق ، ومن امثلة استخدامهم للجناس والطباق بكثرة ما جاء في رسالة خلف الغافقي القبتوري عن ابي القاسم العزفي الى ابي اسحاق الموحدي نقتبس منها العبارات التالية في الغرض المذكور « والبركات الكفية لبدد الاسلام بالنظم ، ولشعث الانام باللم ، والنظر الجميل الذي يفرغ له فيفل غرب مزعج الفرع ، ويصرف صرف مُذهل الغم ... وبحسب هذه المقدمات التي صرحوا بها وأشاروا ، وشادوا على أصدق الوفاء وأوفى الصدق ما منها شادوا ، ... وعكّس على من رامه ورماه من الاعداء رومه ورمائته ... ومرمي مرموم من مشرك أو شرّ منه في الاجلاب عليه معه مشترك »^(٦٥) .

٤ . ومن خواص نثر الموحدين الرسمي ميله الى « الاسهاب والتطويل على عكس ما نرى في الرسائل المرابطية »^(٦٦) ، وعند الرجوع الى رسائلهم الديوانية تتأكد لدينا هذه الخاصية ، ويتضح ذلك أكثر في رسائل الخلفاء الى الرعية عندما يكون موضوعها في مجالات الاصلاح والنصيحة والدعوة الى الالتزام بشريعة الاسلام او المحافظة على القوانين وتنفيذها . وغير ذلك من توجيهات وتعليمات تصدرها مراكز السلطة^(٦٧) وبالمقابل فاننا نجد رسالة أميرية تميزت بالقصر والايجاز البلاغي الجميل ، فلم تزد عن سطرين هما عبارة عن تظهير لرسالة وردت الى المركز من الفونسو الثامن ملك قشتالة الى أمير المؤمنين المنصور التي تضمنت سخرية واستخفافاً بالموحدين ، فاثارت حفيظتهم ودفعتهم الى الجهاد لردّ كيد المعتدين . فكانت موقعة الارك التي انتصر فيها المسلمون^(٦٨) ، اما الجواب فكان - كما قلنا - تظهيراً للرسالة مختصراً ولكنه بليغ محكم ، اذ أجاب عليه ابن المنصور الأمير محمد الناصر ما نصه « قال الله العظيم : ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجهن منها أذلة وهم صاغرون ، الجواب ما ترى لا ما تسمع »^(٦٩) .

فمقتضى الحال ، وطبيعة الظرف ، وأسلوب التحدي والتناول التّن كُتبت بها الرسالة كل ذلك فرض نوع الجواب وطريقته ورسمه ، فكان جواباً موفّقاً صادقاً معبراً عما جاشت به الصدور وتزاحمت به المشاعر .

١. القلقشندي: صبح الاعشى (تحقيق محمد حسين شمس الدين) ١ / ١٣٥ دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٧ .
٢. نفسه .
٣. الصياصي: الحصون .
٤. القلقشندي: صبح الاعشى ١ / ٨٧ نص منقول عن مقامات الحريري .
٥. انظر: نفسه ١ / ١٣٩ وما بعدها .
٦. الاخرق: هو الاحمق .
٧. القلقشندي: صبح الاعشى ١ / ١٣٩ - ١٤١ .
٨. لافي بروفانسال: مجموع رسائل موحدية من انشاء الدولة المؤمنية ص ٩٥ وما بعدها . المطبعة الاقتصادية - الرباط ١٩٤١ .
٩. القلقشندي: صبح الاعشى (٣١ / ٧) ٣١ / ٧ .
١٠. انظر: نفسه / هامش ٣١ / ٧ .
١١. ذكر الدكتور عبد الهادي التازي في هامش كتاب « المن بالامامة » أن الموحدين اتفقوا على وضع علامة « الحمد لله وحده » منذ شهر رمضان ٥٦١ هـ ، وذلك على ما يقول ابن خلدون اقتداء بالامام : هامش صفحة ٧٨ .
١٢. عبد الملك بن صاحب الصلاة : المن بالامامة (تحقيق الدكتور عبد الهادي التازي ص ٢٢٥ ، ط ٣ / دار الغرب الاسلامي بيروت ، لبنان ١٩٨٧ .
١٣. اندوجر: هي بلدة أندلسية تقع في شمال قرطبة على نهر الوادي الكبير ، وبالإسبانية ANDUJAR (انظر: ابن الخطيب : الاحاطة هامش ١ / ٤٢٢) .
١٤. لسان الدين ابن الخطيب : الاحاطة في اخبار غرناطة (تحقيق محمد عبدالله عنان) ١ / ٤٢٢ طبعة الخانجي - القاهرة ١٩٧٣ .
١٥. القلقشندي: صبح الاعشى ٧ / ٣٤ .
١٦. نفسه ٧ / ٣٧ ، وانظر الانموذج الذي ذكره القلقشندي لهذا النوع من المكاتبات في الصفحة نفسها .
١٧. لافي بروفانسال: مجموع رسائل موحدية ص ٩٣ .
١٨. نفسه ٢٤١ .
١٩. عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص اخبار المغرب (تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي) ص ٢٢٥ ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ط ١ ١٩٤٩ م - ١٣٦٨ هـ ، ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ٧٢ ، ٧٦ .
٢٠. ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب - قسم الموحدين - (تحقيق الاساتذة محمد ابراهيم الكتاني ، محمد بن تاويت ، محمد زنبير ، عبد القادر زمامة) ص ١١٥ ط / دار
- الفرب الاسلامي - بيروت ١٩٨٥ ، ١٤٠٦ هـ .
٢١. نفسه ١١٥ ، ١١٦ .
٢٢. المقرئ: نفع الطيب (تحقيق د. احسان عباس) ٥ / ١٨٧ ، ط . دار صادر بيروت ١٩٦٨ ، ١٣٨٨ هـ .
٢٣. نفسه .
٢٤. انظر: خلف الغافقي القبتوري: رسائل ديوانية من سبته في المهدي العزفي (تحقيق دكتور محمد الحبيب الهيلة) ص ٤٨ .
٢٥. نفسه ص ١٠٩ .
٢٦. نفسه ، ولم يذكر الاسم هنا في الاصل ، ويبدو ان الناسخ اسقطه عمداً ، ولكن الرسالة ، وحسبما هو معروف من اصل الكتاب انها مرسلة من قبل ابي القاسم محمد بن احمد العزفي ملك سبته . وانظر رسالة اخرى مماثلة لها في رسومها ، ذكر فيها اسم مرسلها كاملاً ، في كتاب ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ٣٠٤ .
٢٧. ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ٢٤٤ ، ص ٢٧٧ .
٢٨. هو أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد الرعيني الاشبيلي ، كان على صلة بالموحدين ، وقد توفي أواخر سنة ٦٠٤ هـ ، (انظر: المن بالامامة هامش صفحة ٢٥٩) .
٢٩. ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ٢٥٩ .
٣٠. نفسه ٢٠١ .
٣١. ابن محشرة : هو أبو الفضل جعفر بن محمد بن علي بن طاهر بن تميم القيسي من اهل بجاية ، وكان كاتباً لعبد المؤمن بن علي في مراكش ، ولد بحدود سنة ٥٤١ هـ ، وتوفي سنة ٥٩٨ هـ (انظر : نفسه) .
٣٢. لافي بروفانسال: مجموع رسائل موحدية ص ١٥٨ .
٣٣. المقرئ: النفع ٢ / ٣٦٢ . وانظر مثال آخر في: القبتوري: رسائل ديوانية ص ١١٥ .
٣٤. المراكشي: البيان المغرب - قسم الموحدين - ص ٢٧١ .
٣٥. ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ٢٦٣ .
٣٦. محمد بن ابراهيم بن خيرة الموعيني ابو القاسم من اهل قرطبة وسكن اشبيلية ، وله توالييف ، توفي نحو سنة ٥٧٠ هـ (انظر: ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ، هامش صفحة ٢٢٤) .
٣٧. ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ٢٢٤ .
٣٨. القلقشندي: صبح الاعشى ٧ / ٣٠ - ٣١ .
٣٩. البشير المجذوب: حول مفهوم النثر الفني ص ١٤ الدار العربية للكتاب تونس ١٩٨٢ .

٤٠. د. شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٣٣٧ ط ٤ دار المعارف بمصر ١٩٦٥ .
٤١. محمد بن شريفة : أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي ص ١٨٠ منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي - الرياض ١٩٦٦ .
٤٢. نفسه ١٨١ .
٤٣. انظر : د. حسين نصار ، نشأة الكتابة ص ٩٧ ، ط ٢ / ١٩٦٦ مكتبة النهضة المصرية .
٤٤. |. ليفي بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ١٣ .
٤٥. المراكشي : البيان المغرب . قسم الموحدين ص ٢٦٤ .
٤٦. القلقشندي : صبح الاعشى (تحقيق د. يوسف علي طويل) ٢٩٦ / ٦ .
٤٧. نفسه ٢٩٥ / ٦ .
٤٨. ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ٧٣ .
٤٩. نفسه ٧٦ .
٥٠. نفسه ٨٠ .
٥١. انظر الرسالة في : المقري : النسخ ٢ / ٣٦٢ وما بعدها .
٥٢. نفسه ٢ / ٣٦٤ .
٥٣. انظر الرسالة في : نفسه ٥ / ١٨٤ ، ابن الخطيب : الاحاطة ١ / ٢٦٧ ط ٢ القاهرة ١٩٧٣ .
٥٤. ابن سعيد المغربي : القدر المعلى (تحقيق ابراهيم الابياري) ص ٥٠ ط ٢ . دار الكتب الاسلامية ٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .
٥٥. ابن الخطيب : الاحاطة ٢ / ٤٨٦ .
٥٦. ابن الأبار : اعتاب الكتاب (تحقيق الدكتور صالح الاشر ص ٢٢٧ . طبعة مجمع اللغة العربية دمشق ١٩٦١ ، المقري : النسخ ٥ / ١٨٧ .
٥٧. ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ٧٨ .
٥٨. نفسه ٢٣٤ .
٥٩. |. ليفي بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ٢٤١ .
٦٠. انظر : ابن شريفة : أبو المطرف ٢١٩ .
٦١. |. ليفي بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ٢٤٨ - ٢٤٩ .
٦٢. نفسه ٨٤ .
٦٣. ابن شريفة : أبو المطرف ٢١٨ .
٦٤. |. ليفي بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ٢٣١ .
٦٥. انظر الرسالة في : القبتوري : رسائل ديوانية ص ١١٥ - ١٢١ .
٦٦. ابن شريفة : أبو المطرف ١٨١ .
٦٧. انظر مثلاً : ابن القطان : نظم الجمان (تحقيق الدكتور محمود علي مكي - الرياض ص ١٥٠ - ١٦٧ ، رسالة طويلة لابن عطية اورد فيها اطاراً عاماً لسياسة الدولة وأوامرها وتوصياتها وتوجيهاتها لابناء الاندلس .
- وكذلك : |. ليفي بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ١٢٦ - ١٣٨ في الغرض نفسه .
٦٨. انظر : علي ابن ابي زرع : الانيس المطرب ص ٢٣٠ وما بعدها طبعة دار المنصور - الرياض ١٩٧٣ .
٦٩. نفسه ٢٢١ والآية من سورة النمل رقم ٣٧ .

١. ابن الأبار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن القضاعي (ت ٦٥٨ هـ) .
- اعتاب الكتاب : تحقيق الدكتور صالح الاشر بعة مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٦١ .
- ١٩٧٣ . المنسوب خطأ لابن ابي زرع
٢. ابن الخطيب : لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد التمساني (ت ٧٧٦ هـ) : الاحاطة في اخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، طبعة الخانجي - القاهرة ١٩٧٣ .
٣. ابن سعيد المغربي : أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد ، (ت ٦٨٥ هـ) اختصار القدر المعلى : تحقيق ابراهيم الابياري ط ٢ / دار الكتب الاسلامية ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .
٤. ابن صاحب الصلاة عبد الملك : المن بالامامة : تحقيق الدكتور

المصادر والمراجع

- عبد الهادي التازي ، دار الغرب الاسلامي بيروت - لبنان ١٩٨٧ .
- ٥ - ابن عبد الرحيم ، أبو محمد صالح : الانيس المطرب ، مطبعة دار المنصور للطباعة - الرياض ١٩٤٣ ، ونسب للكتاب خطأ الى ابن ابي زرع
٦. ابن عذارى المراكشي : أبو العباس أحمد بن محمد (كان موجوداً سنة ٧٠٦ هـ) : البيان المغرب في اخبار ملوك الاندلس والمغرب ، قسم الموحدين - تحقيق الاساتذة (محمد ابراهيم الكتاني ، محمد بن تاويت محمد زنبير ، عبد القادر - زمامة) دار المغرب الاسلامي - بيروت ١٩٨٥ - ١٤٠٦ هـ .
٧. ابن القطان : نظم الجمان (جزء منه) تحقيق الدكتور محمود علي مكي - الرياض .
٨. |. ليفي بروفنسال ، مجموع رسائل موحدية من انشاء الدولة

١. ابن الأبار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن القضاعي (ت ٦٥٨ هـ) .
- اعتاب الكتاب : تحقيق الدكتور صالح الاشر بعة مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٦١ .
- ١٩٧٣ . المنسوب خطأ لابن ابي زرع
٢. ابن الخطيب : لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد التمساني (ت ٧٧٦ هـ) : الاحاطة في اخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، طبعة الخانجي - القاهرة ١٩٧٣ .
٣. ابن سعيد المغربي : أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد ، (ت ٦٨٥ هـ) اختصار القدر المعلى : تحقيق ابراهيم الابياري ط ٢ / دار الكتب الاسلامية ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .
٤. ابن صاحب الصلاة عبد الملك : المن بالامامة : تحقيق الدكتور

والسابع ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، طبعة دار الكتب العلمية / بيروت ١٩٨٧ ، الجزء السادس : تحقيق الدكتور يوسف علي الطويل .

١٤ . محمد بن شريفة : أبو المطرف احمد بن عميرة المخزومي ، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي — الرباط ١٩٦٦ .

١٥ . المراكشي : عبد الواحد بن علي (ت ٦٤٧ هـ) / المعجب في تلخيص اخبار المغرب / تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي .

مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٩٤٩ م — ١٣٦٨ هـ .

١٦ . المقرئ : احمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١ هـ) ، نفع الطيب : تحقيق الدكتور احسان عباس ، بيروت ، دار صادر ١٩٦٨ .

المؤمنية ، المطبعة الاقتصادية — الرباط ١٩٤١ .

٩ . البشير المجذوب : حول مفهوم النثر الفني ، الدار العربية للكتاب — تونس ١٩٨٢ .

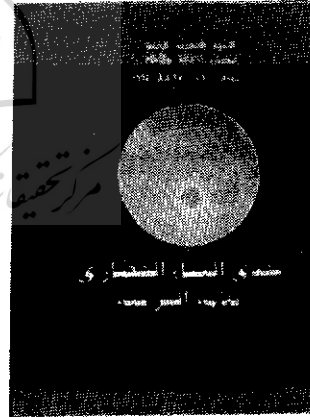
١٠ . حسين نصار : نشأة الكتابة الفنية ، ط / ٢ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦ .

١١ . شوقي ضيف / الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ط / ٤ دار المعارف بمصر ١٩٦٥ .

١٢ . القبتوري : خلف الغافقي : رسائل ديوانية من سبتة في العهد العزفي ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة ، المطبعة الملكية ، الرباط ١٩٧٩ — ١٣٩٩ هـ .

١٣ . القلقشندي : أبو المباس احمد بن علي بن احمد (ت ٨٢١ هـ) ، صبح الاعشى في صناعة الانشا / الجزء الاول

• • • • •



صدر من دار الشؤون الثقافية العامة

الجهاد في خطابة صدر الأسلام

ناهي ابراهيم العبيدي

الجامعة التكنولوجية - هندسة البناء والانشاءات

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

في عصر الرسالة .
وقد اشتمل البحث على تمهيد وثلاثة مباحث ، تحدثت
في التمهيد عن الخطابة في العصرين الجاهلي والاسلامي :
نشأتها ، وانواعها ، وبواعي تطورها وازدهارها في الاسلام .
وتكلمت في المبحث الاول عن الجهاد في خطب معارك
الاسلام الاولى (في غزوات الرسول (ﷺ) ، وفي حروب
الردة) ثم تحدثت في المبحث الثاني عن الجهاد في خطب
الفتوحات الاسلامية (في فتوحات الجبهة الشرقية ، وفي
فتوحات الجبهة الغربية) أما المبحث الثالث فتحدثت فيه
عن الخصائص الفنية لخطب الجهاد في صدر الاسلام .
أرجو أن أكون قد وفقت في كتابة هذا البحث ، وأسأل الله
أن يوفقنا ، ويجنبنا الخطأ ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

التمهيد

١ - الخطابة في العصر الجاهلي

لاريب أن العرب عرفوا فن الخطابة قبل الاسلام بزمان
طويل ، إذ كانت الحياة العامة في ذلك العصر تستدعي وجود
هذا الفن . فالحياة القبلية ومانستتبعه من منازعات
وخصومات وحروب ، وماتؤدي اليه هذه الحروب أحياناً من
محاولات لاصلاح ذات البين ونشر السلم بين القبائل
المتنازعة . واضطراب الحياة الدينية ومارافق هذا الاضطراب
من محاولات للارشاد والدعوة لنبد عبادة الاوثان . والحياة
السياسية وماكانت تفرضه على العرب من صلات سلمية أو
حربية بالامم المجاورة لهم ، وصلات افراد المجتمع القبلي
بعضهم ببعض ، من تزواج وتعامل وتفاخر وتفاخر ، ومافطر عليه
العرب من فصاحة ولسن وحضور بديهة - كل اولئك أمور كانت
تستدعي معرفة العرب بالخطابة ، بل أن تصيب خطأ ما من
الرقى^(١) .

موضوع هذا البحث هو « الجهاد في خطابة صدر
الاسلام » ونعني به جهاد الكلمة المؤمنة الصادقة المؤثرة في
النفوس التي صدحت بها حناجر اولئك الرجال العظام في
ميادين الجهاد إبان غزوات الرسول (ﷺ) ، وحروب الردة ،
والفتوحات الاسلامية . تلك الكلمة التي عجز فيها الخطباء
المجاهدون عن انتمائهم الحقيقي الى الاسلام وايمانهم القوي
به ، والتضحية في سبيله . ويأتي في المقام الاول منهم النبي
محمد (ﷺ) ، وخلفاؤه رضوان الله عليهم ، والقادة والامراء
والمقاتلون .

لقد كانت الخطابة يومذاك وسيلة المجاهدين في
استنهاض الهمم والدفاع عن الدين ، وإرهاب الاعداء ، وجمع
كلمة المؤمنين ، بل كانت بحق عماداً وسنداً للرسالة التي آمنوا
بها ، وسبباً من أقوى الاسباب في تحقيق اهدافهم العظيمة
وغاياتهم النبيلة ، لذلك فإن الحديث عن أثر خطبة الجهاد في
عصر الرسالة هو إبراز لأهمية الخطابة ، وتأكيد لأثرها في حث
المؤمنين الصابرين من أبناء شعبنا وأمتنا على مواصلة
الجهاد ضد قوى الشرك والضلال التي شنت عدوانها اللثيم
على قطرنا المجاهد ، وتسعى الآن بكل الوسائل الى خلخلة
الإيمان وإضعافه في نفوس المجاهدين ، ومنعهم من تحقيق
رسالتهم الانسانية في الحياة ، التي استلهموا معانيها
ومبادئها من رسالة الاسلام وقيمه السمحاء .

لقد حان الوقت لأن تعيش أمتنا العربية عيشة كريمة
كغيرها من الامم ، ولاسبيل لها الى ذلك إلا بالجهاد العملي
الذي أساسه الرغبة في التضحية والحب في الاستشهاد . من
هنا جاء هذا البحث ليقدم للمجاهدين المؤمنين صورة ذلك
الجهاد العملي الذي مارسه المجاهدون بسيوفهم وألسنتهم

وبالرغم من أن العرب قد عرفوا الخطابة قبل الاسلام ، وكان لهم نصيب وافر منها ، إلا أنهم كانوا يقدمون الشاعر على الخطيب من جهة أن الشعر أعلق بالاذهان وأسرع تلقياً في البلاد ، فهو أرفع صوتاً بمفاخرهم ، وأكثر إذاعة لمطالب أعدائهم . وتقديم العرب للشاعر على الخطيب ، أو إقبالهم على حفظ الشعر أكثر من إقبالهم على حفظ الخطب ، كان السبب في قلة ما وصل إلينا من خطبهم في الجاهلية^(٢) ولايعني هذا الإقبال على حفظ الشعر نون النثر أن العرب لم يعتنوا بخطبهم ونثرهم ، بل على العكس من ذلك إنهم اعتنوا بهما غاية الاعتناء . وهذا ماوضحه الجاحظ حين قال : « ماتكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به العرب من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عشرة ، ولاضاع من الموزون عشرة »^(٣) ولهذا ضاع قدر كبير من خطبهم قبل عصر التدوين « لأن الخطيب إنما كان يخطب في المقام الذي يقوم فيه في مشافهة الملوك ، أو الحالات ، أو في الإصلاح بين العشائر ، أو خطبة النكاح ، فإذا انقضى المقام حفظه مَنْ حَفِظَه ، ونَسِيَه من نَسِيَه ، بخلاف الشعر »^(٤) الذي ضاع منه قدر قليل . وطبيعي أن يبقى الشعر ويتفوق في بقائه على النثر ، لجريانه على ألسنة الناس ، وسهولة حفظه بسبب وزنه وقافيته^(٥) .

ويمكن أن نضيف أن شيوع الأمية ، وبعد المسافة بين العصر الذي قيلت فيه الخطابة وعصر تدوينها ، كانت هي الأخرى سبباً في قلة ما وصل إلينا من خطبهم ، ولو كانت العرب أمة كاتبة ، يدونون آثارهم في صحف ، أو ينقشون كغيرهم من أمم التاريخ في الأحجار ، لاستطاع الناس أن يجدوا من آثار بلاغتهم في المساجلة بالخطب ، والمناقلة بالحوار شيئاً كثيراً ، غير أنك لاتزال تعد كثيراً من أسماء خطبائهم وساداتهم ، ثم لاتجد لهم أو لأكثرهم شيئاً من القول مذكوراً^(٦) .

ومن ألوان الخطابة التي كانت معروفة قبل الاسلام :

١ - المنافرات والمفاخرات :

وقد روت لنا كتب الادب جانباً من هذه المنافرات ، كمنافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل العامريين ، وكان الحكم بينهما هرم بن قطبة الفزاري ، وكان المتنافران يتنافسان على الرياسة في بني عامر ، ويزعم كل منهما أنه أولى من صاحبه ، فيعبد مآثره ومناقبه ، يقول عامر : « والله لانا أكرم منك حسباً ، وأثبت منك نسباً ، وأطول منك قصبا » فقال علقمة : لانا خيرٌ منك ليلاً ونهاراً ، ثم تنافرا آخر الأمر الى هرم بن قطبة ، فسوى بينهما بأن جعلهما كركبتي البعير ،

وحقن بذلك دماء القوم^(٧) .

٢ - خطب الحث على القتال أو على الأخذ بالثار :

وأشهرها خطبة هاني بن مسعود الشيباني في قومه يحرضهم على قتال الفرس يوم ذي قار^(٨) .

٣ - خطب إصلاح ذات البين والدعوة الى الصلح وحقن الدماء :

ومن أشهرها خطبة قيس بن خازجة التي قالها إثر حرب داحس والغبراء ، وقد قيل إنه ظل يخطب الى الليل ، وقد سماها العرب « العذراء » لأنه كان أباً عذراً^(٩) . ولم تصل إلينا هذه الخطبة ، شأنها شأن كثير من الخطب المشهورة .

٤ - خطب الإملان أو الزواج .

وكان يتولاها عادة شريف من رهط الرجل الراغب في الزواج ، فيخطب معداً مآثر ذلك الرجل ، ويحييه رجل من رهط المرأة بمثل مقاله . وكتب الادب والسيرة تروي لنا خطبة ابي طالب حين اراد الرسول محمد (ﷺ) الزواج من السيدة خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها) . وكان لهذا النوع من الخطب أصول وآداب معينة ، والسنة فيها أن يطيل الخاطب ويقتصر المجيب . وقد ذكر الجاحظ صورة خطبة النساء في الجاهلية وهي : « باسمك اللهم ، ذكرك فلانة ، وفلان بها مشغوف ، باسمك اللهم ، لك مأسالت ، ولنا ما أعطيت »^(١٠) .

٥ - خطب الوعظ والارشاد :

وكان يتولاها من له في قومه منزلة الحكيم الناصح المرشد ، ولعل خطبة قس بن ساعدة التي قيل لنا إنه قالها في سوق عكاظ ، وأن الرسول (ﷺ) رواها عنه^(١١) هي أشهر هذا الضرب .

٦ - خطب المحافل والوفود :

وكانت تلقى عادة في الاسواق والمواسم وفي مجالس الملوك عند وفادة سادة القبائل عليها مفاخرين أو مهنئين أو معزين أو لغير ذلك من الاسباب ، ومن جيد الخطب الحفلية خطبة اكثم بن صيفي التي عرّى بها عمرو بن هند عن أخيه^(١٢) .

٧ - الوصايا :

وهي في الغالب يوجهها الرجل الى آله أو عشيرته عند احساسه بدنو منيته ، ليرشدهم فيها الى الطريق الذي ينبغي أن يسلكوه ، أو الآداب التي ينبغي أن يتحلوا بها . ومن أشهر هذه الوصايا وصية عامر بن الظرب العدواني لبنيه^(١٣) ، ووصية اكثم بن صيفي لقومه^(١٤) ، ووصية أمانة بنت الحارث لابنتها أم اياس^(١٥) .

٦ - سجع الكهان :

وعُرف هذا الضرب من الخطابة الجاهلية بهذا الاسم لالتزامه السجع، ولأن الذين عرفوا به هم طائفة الكهان الوثنيين في الجاهلية، وكان الناس يفزعون إليهم ليطلعوهم على أمور الغيب، ويفسروا لهم أحلامهم ورؤاهم وكثيراً ما كانوا يحتكمون إليهم في المناقرات. وكتب التاريخ تحدثنا عن منافرة هاشم بن عبد مناف وأمّية بن عبد شمس، واحتكامهما إلى الكاهن الخزاعي الذي نفر هاشماً على أمّية^(١٧).

هذا وتذكر لنا كتب الأدب والتاريخ أسماء طائفة كبيرة من الخطباء المشهورين في العصر الجاهلي، منهم: قس بن ساعدة^(١٨)، هند بنت الخس المعروفة بالزرقاء^(١٩)، لقيط بن معبد^(٢٠)، أكتم بن صيفي^(٢١)، ضمرة بن ضمرة المجاشعي^(٢٢)، حاجب بن زرة، قيس بن عاصم^(٢٣)، كعب بن لؤب^(٢٤)، عتبة بن ربيعة^(٢٥)، هاشم بن عبد مناف^(٢٦)، هاني بن مسعود الشيباني^(٢٨)، وغيرهم كثيرون، ولكن جل هؤلاء لم يصل إلينا شيء من خطبهم، وإن ما وصل إلينا منها يعد قليلاً جداً، وقد اعتبره بعض الباحثين منتحلاً لا يمت إلى الجاهليين بصلة^(٢٩)، ولكن عدم الاطمئنان إلى صحته لا يفضي بنا إلى انكار وجود الخطابة عند العرب قبل الإسلام.

تلك كانت الخطابة وموضوعاتها في العصر الجاهلي، فلما جاء الإسلام وأحدث تغييره الهائل في العرب، كان من الطبيعي أن ينعكس هذا التغيير على الخطابة، إذ اعتمد عليها في إرساء دعوتها اعتماداً يكاد يكون كلياً.

٢- الخطابة في العصر الإسلامي

ولاعجب إذا قلنا أن الخطابة في العصر الإسلامي قد توافر لها من دواعي التطور والازدهار ما لم يتوافر لها مثل في العصر الجاهلي. ويتفق الباحثون على أن الخطابة في هذا العصر قد حققت رقياً وازدهاراً لم يتحقق لها في أي عصر من العصور، وكان ذلك بسبب عوامل مختلفة^(٣٠) يمكن إجمالها بالآتي:

١- القرآن الكريم:

منذ أن نزل القرآن وأعجز العرب ببلاغته أصبح معينا للادباء، ينهلون منه ويقتبسون، ويسعون إلى محاكاة أسلوبه. وكان أثره في النثر أبرز منه في الشعر. فكذا نجد أثره في خطابة هذا العصر واضحاً قوياً، سواء من حيث الأسلوب والصياغة، أو من حيث الأفكار والمعاني، أو من حيث الصور والأخيلة. هذا فضلاً عن اقتباس آيات منه، وتوشيح الخطبة بها، حتى أنهم سمو الخطبة التي لم توشح بالقرآن،

ولم تزين بالصلاة على النبي (ﷺ) بـ «الشوهاء»^(٣١).
٢- لقد أضافت احاديث الرسول (ﷺ) إلى اللغة ثروة من المعاني وثروة من الأساليب التي كانت تعد من النبي (ﷺ) ابتداءً وابتكاراً، مثل قوله (حمى الوطيس) وقوله (مات حتف أنفه) وقوله (رويدك رفقا بالقوارير) فضلاً عن ذلك أنها هذبت اللغة تهذيباً قريباً من تهذيب القرآن، إذ سهل الفاظها، ورق أساليبها، وزهد بالحوشي منها، فكان لكل هذا أثره في الخطابة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن كثيراً من الخطباء كان يستشهد في خطبه بشيء مما أثر عن الرسول (ﷺ). تيمناً بقوله، وتأكيداً على صحة ما يدعون.
٣- إن العرب، مع القول بوجود الكتابة بينهم، كانت الأمية شائعة بينهم، وفي هذه الحال تصبح الخطابة هي الوسيلة الوحيدة لدعوتهم إلى الدين الجديد، واقتناعهم به، وإيصال شرائعهم إليهم.

٤- إن الإسلام عندما جاء أعلى من شأن العقل، ورفع من قدره، إذ اتجه إلى الاقتناع بالمنطق والحجة، وجعل هذا شرطاً في صحة العقيدة، وهو أصل من أصول الدين مكن الخطابة من أن يكون لها دور بارز يتراجع معه الشعر الذي يخاطب العاطفة لتحل الخطابة محله، ويفسح لها المجال لمخاطبة العقل حتى يدرك كل ما جاء به الدين من أصول تتصل بالعقيدة.
٥- لقد ارتبطت الخطابة بالدين ارتباطاً وثيقاً، فقد كانت في البداية أداة للدعوة إلى الإسلام، ثم اتخذت بعد ذلك وسيلة للتشريع ورسم الحدود التي تقوم عليها الدولة في الإسلام، ونظم الحياة في المجتمع الجديد.

٦- إن المجتمع العربي بعد الإسلام نال حظاً من الرقي السياسي والاجتماعي، فقد أصبحت تلك القبائل التي كانت تتناحر في الجاهلية أمة واحدة، تخضع لرؤية واحدة هي الإسلام، ويقودها قائد واحد هو الرسول (ﷺ) ومن بعده خلفاؤه الراشدون، (رضي الله عنهم) ومن ثم دعت الحاجة إلى الخطابة لتكون الصلة بين الرعية والنبي (ﷺ) وخلفائه، ثم بين مجتمعات الامصار، وولاتها، والجيوش وقادتها.

٧- إن المواقف التي عاشها المسلمون بعد وفاة الرسول (ﷺ) من جدل حول الخلافة، وارتداد بعض العرب عن الإسلام، ووقوع الفتنة بين المسلمين بعد مقتل الخليفة عثمان (رضي الله عنهم) والخلافات التي ظهرت في زمن الامام علي (رضي الله عنه) كل هذه المواقف أدت إلى أن تكون للخطابة مجالها الفسيح الذي جعلها ترقى وتزدهر.

٨- وإذا كانت الاحداث الداخلية كلها عاملاً فعالاً في ازدهار

الخطابة في صدر الاسلام ، فان الفتوح الاسلامية التي اتسع نطاقها في زمن الخليفين عمر وعثمان (رضي الله عنهما) والحياة الحضرية الجديدة التي عرفها العرب ، ولقيام حكومة نظامية لها دستورها وانظمتها ، ثم اختلاط العرب بالامم والحضارات الاخرى ، كان لهذا كله اثره في تطور الخطابة في هذا العصر ، واتسامها بسمات جديدة لم تعرفها من قبل .

٩ - ومما أعان أيضاً على تطور الخطابة وازدهارها في هذا العصر نظام الشورى الذي كان سائداً آنذاك ، وهو من أسس الحكم الديمقراطي السليم . وقد جاء القرآن الكريم فوضع للمسلمين دستوراً يتبعونه بقوله « وَأُفْرَهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ »^(٢٢) وسار الرسول (ﷺ) على خطة الشورى ، فكان كثيراً ما يستشير اصحابه فيما يعرض له من الامور العامة ، شأنه يوم أحد ويوم الخندق مثلاً ،^(٢٣) وكذلك شأن خلفائه من بعده ، فعمّر (رضي الله عنه) عندما أراد الخروج على رأس جيش لقتال الفرس خطب بالمسلمين واستشارهم في الامر^(٢٤) .

١٠ - وفضلاً عن ذلك كله ان العرب كانوا أهل لسن وفصاحة ، وكانوا يجيدون القول اعداداً وارتجالاً ، وكانوا بطبعهم قادرين على تصريف وجوه الكلام بصورة تثير الإعجاب ، وتدل على تفتح في الذهن وسلامة في الطبع . والخطابة كما تقوم على الاعداد تقوم على الارتجال ، ومقدرة العرب في الضربين تهيء لها الازدهار والرقى ، وبخاصة حين تنبعث الدواعي وتتعدد الاغراض .

موضوعات الخطابة في هذا العصر :

وقبل أن نعرض لموضوعات الخطابة في هذا العصر لابد من الإشارة الى أن الاسلام قد قضى على بعض ضروبها التي كانت معروفة في العصر الجاهلي لزوال دواعيها ، وعدم توافقها مع مبادئه وتعاليمه ، فمن ألوان الخطابة التي قضى عليها الاسلام (المنافرات والمفاخرات) لاتصالها بطبيعة الحياة الجاهلية ، والروح القائمة على العصبية القبلية ، والتنافر والتفاخر بالانساب والتنازع بالالقباب . ومع ان هذه المفاخرات قد انقرضت تماماً بمجيء الاسلام ، إلا أنها عادت الى الظهور ، ولكن في صور اخرى ، مثل صور المفاخرات التي كانت تحدث في مجالس الرسول (ﷺ) حين كانت تقدم عليه وفود القبائل ، من ذلك مفاخرة بني تميم للرسول (ﷺ) حين قدم عليه وفدهم ، وكان خطيبهم ثابت بن قيس بن الشماس وشاعرهم الزبيرقان بن بدر . وانتهت المفاخرة باعتناق وفد تميم للاسلام^(٢٥) .

ومن الانواع الاخرى التي انقرضت في هذا العصر (سجع

الكهان) وذلك لإتصاله بالوثنية التي قضى عليها الاسلام . وقد ظهر في هذا العصر ضرب من السجع قصد به محاكاة القرآن الكريم ، وهو هذا السجع الذي جرى على السنة المنتهين والدعاة امثال مسيلمة الكذاب وسجاح التميمية^(٢٦) . أما بشأن موضوعات الخطابة التي ابقاها الاسلام وطورها فهي :

١ - الخطب الدينية :

وقد شملت العقائد ، والدعوة الى الاسلام ، والتشريع بما فيه من تبين الحدود واقامة معالم الحلال والحرام ، والوعظ والارشاد بما فيه من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، وحث على مكارم الاخلاق ، وتبشير وانذار ، مثل خطبة الرسول (ﷺ) بمكة^(٢٧) عندما نزل قوله تعالى : (فَأَصْدَغُ بِمَا تُؤْمَرُ ، وَأَعْرِضُ عَنْ الْمُشْرِكِينَ)^(٢٨) وموعظته في أول جمعة بالمدينة^(٢٩) ، وخطبته في فتح مكة^(٣٠) وخطبته في حجة الوداع^(٣١) ، ومثل مواعظ الخلفاء الراشدين والصحابه (رضي الله عنهم اجمعين) التي كانوا يقولونها في مناسبات مختلفة .

٢ - خطب الحث على الجهاد :

مثل خطبة رسول (ﷺ) يوم بدر الكبرى^(٣٢) ، وخطبة ابي بكر (رضي الله عنهم) حين عزم على تنفيذ وصية الرسول (ﷺ) بتوجيه الجيوش لفتح الشام^(٣٣) ، وخطبة عمر (رضي الله عنهم) حين نذب الناس لفتح العراق وبلاد فارس^(٣٤) وخطبة الامام علي (رضي الله عنه) في أهل الكوفة^(٣٥) ومثل خطب امراء الجيوش والقواد ورجال الحرب في المعارك التي خاضوها ضد الفرس والروم إبان الفتوحات الاسلامية . هذا وسوف يكون مدار حديثنا في الفصول القادمة على هذا النوع من الخطب إن شاء الله .

٣ - خطب المحافل والوفود : مثل خطبة عطار بن حاجب بين يدي الرسول (ﷺ)^(٣٦) وخطبة الاحنف بن قيس بين يدي عمر (رضي الله عنه)^(٣٧) .

٤ - خطب السياسة وبيان منهج الحكم : مثل خطب الخلفاء عند توليهم الخلافة^(٣٨) ، وخطب المهاجرين والانصار في سقيفة بني ساعدة^(٣٩) .

٥ - المناظرات : مثل المناظرات التي قامت بين الامام علي (رضي الله عنه) وانصاره من جانب ، وبين الخوارج من جانب آخر^(٤٠) .

٦ - خطب الاملاك او النكاح : مثل خطبة بلال التي قالها عندما خطب على امرأة من قريش^(٤١) .

٧ - الوصايا : مثل وصية ابي بكر لعمر (رضي الله عنهما) حين عهد اليه بالخلافة من بعده^(٤٢) ووصية عمر (رضي الله عنه)

لسعد بن ابي وقاص حين وجهه الى العراق عند ابتداء امر القادسية (٥٣) ، ووصية المثنى بن حارثة الشيباني للمسلمين في يوم البويب (٥٤) .

والآن ، وقد عرضنا موضوعات الخطابة الاسلامية وطابعها العام ، مقارنة بموضوعاتها قبل الاسلام ، ينبغي أن نشير الى أشهر الخطباء العرب في عصر صدر الاسلام ، ويأتي في المقدمة منهم مثلهم الاعلى الرسول محمد (ﷺ) وخلفاؤه من بعد ، ابو بكر وعمر وعثمان وعلي (رضوان الله عليهم اجمعين) والصحابة الآخرين والقادة الميدانيين ، من امثال خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وابو عبيد بن الجراح ، ومعاذ بن جبل ، والمثنى بن حارثة الشيباني ، وثابت بن قيس ، ومن النساء عائشة والخنساء ، وغيرهم كثيرون . هذا وسوف نقف عند بعض خطبهم في الصفحات القادمة .

المبحث الاول

الجهاد في خطب معارك الاسلام الاولى

كتب على المسلمين الجهاد (٥٥) ، منذ أن بشر الرسول محمد (ﷺ) بالرسالة الاسلامية ، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة وصريحة في الدعوة الى الجهاد ، من مثل قوله تعالى : (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ) (٥٦) وقال : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (٥٧) وقال : (فَلَاتُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا) (٥٨) وقال : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَا لَهُمْ جَهَنَّمَ بَيْنَهُ وَالْمُصْرِ) (٥٩) قال : (وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) (٦٠) وقال : (تَوَاصَوْا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (٦١) وقال : (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ) (٦٢) وقال : (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ) (٦٣) وقال : (وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ) (٦٤) وقال : (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) (٦٥) وقال : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنَيَانٌ مَرْصُوصٌ) (٦٦) وقال : (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (٦٧) وقال : (وَاتَّقُوا اللَّهَ كَمَا تَقَاتِلُونَ كَمَا قَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) (٦٨) وقال : (أَلَمْ يَلِدْ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ ، إِلَّا أَنْ

يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ) (٦٩) وقال : (أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (٧٠) وقال : (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ) (٧١) وقال : (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُزْزِفُونَ) (٧٢) .

وانطلاقاً من هذه الآيات البيّنات شرع رسولنا الكريم (ﷺ) يخرّص المؤمنين على الجهاد في جُل خطبه واحاديثه النبوية . فعن ابي سعيد الخدري ، قال : قال رجل : أي الناس أفضل يارسول الله ؟ قال : « مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله » ، قال : ثم من ؟ قال : رجل مُقْتَرَلٌ في شعبٍ من الشعب يُغَبِّدُ رُئُوسَهُ ، وَيَذَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ » (٧٣) عن ابي هريرة قال : قال رسول الله (ﷺ) : « والذي نفس محمد بيده لَوُيْدَتْ أَنْ أُغْزَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلَ ، ثُمَّ أُغْزَا فَأُقْتَلَ ، ثُمَّ أُغْزَا فَأُقْتَلَ » (٧٤) وعن عبدالله بن عمر ان رسول الله (ﷺ) قال : « رِبَاطٌ يَوْمَ خَيْبَرٍ مِنْ صِيَامِ شَهْرِ قِيَامِهِ » (٧٥) .

وحين تدعو الآيات القرآنية ، والسنة النبوية ، الى حقيقة الجهاد وضرورته ، فهي إنما تدعو الى الخير كله ، سواء الجهاد في سبيل الله تعالى أو الجهاد في سبيل الحق والواجب والوطن أو الجهاد في سبيل اصلاح ذات انفسنا . ويجب ألا يفهم من فرض الجهاد في سبيل الله ، أنه من أجل قتل المشركين والكافرين ظلماً وعدواناً ، أو اكراههم على أن يكونوا مسلمين ، أو من أجل مطمح في غزو ، يراد به التوسع الاقليمي ، أو من أجل الحصول على الغنائم ، فذلك أبعد مايكون عن رسالة الاسلام التي ماجاءت الا لخير الانسانية ، ونشر الاخوة والسلام بين الناس جميعاً (٧٥) . ويؤكد ذلك قول الله تبارك وتعالى : (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) (٧٦) . ومن أجل تسليط الاضواء على الدور الذي لعبته خطب الجهاد في معارك الاسلام الاولى ، نبدأ أولاً بغزوات الرسول (ﷺ) ثم ننتقل بعد ذلك الى حروب الردة .

١ - في غزوات الرسول (ﷺ)

والى جانب هذه الآيات وهذه الاحاديث التي أحالت الصحابة الى أبطال خلّقوا للجهاد في سبيل الله ، أبطال لا يخشون الموت ولا يهربونه ، وقفت الخطابة في عصر صدر الاسلام تناصر المسلمين ، وتشدّد أزرهم ، وتحثهم على الجهاد حيثما كانوا ، فاحتضنها الاسلام وشجعها ، واتخذها الرسول (ﷺ) أدواته في نشر دعوته ، واعلان مبادئه ، وعونه في استنهاض همم المسلمين ، وإرهاب المشركين ، وهذه الحقيقة

والفعل ، وفي استجابة الانصار لدعوة الرسول (ﷺ) ما يشير الى هذا التوجه الصائق حين وقف سعد بن معاف ، يبين ايمان الانصار ، او التقافهم حول قائدهم ونبيلهم ، فقال : « والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ! قال : أجل ، قال : فقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا ، على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت ، فو الذي بعثك بالحق ، ان استمرضت^(٨٢) بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما خلف منا رجلاً واحداً ، وما نكره أن تلتقى بنا عدونا غداً ! إنا لصبر عند الحرب ، صُتق عند اللقاء ؛ لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ؛ فسر بنا على بركة الله »^(٨٣) .

وسر الرسول بقوله ، وتوجه الى القوم ، فقال لهم : « سيروا على بركة الله وأبشروا ، فإن قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني الآن انظر إلى مصارع القوم »^(٨٤) .

وسار رسول الله (ﷺ) مع جنده من المهاجرين والانصار حتى نزل بماء بدر ، وأقبلت قريش بصناديدها ورجالها في جيش كثيف يبلغ أضعاف جيش المسلمين ، والتقى الجمعان ، ونهض النبي (ﷺ) الى أصحابه يحرضهم ويحثهم ويستنهضهم قائلاً : « والذي نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل ، فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مذبر ، إلا أدخله الله الجنة »^(٨٥) .

فأثارت هذه الكلمات حمية عمير بن الحمام الانصاري ، وكانت في يده تمرات ياكلهن ، فقال : « بخ بخ^(٨٦) ، فما ببني وبين أن أدخل الجنة ، إلا أن يقتلني هؤلاء ! » ثم قذف التمرات من يده ، وأخذ سيفه ، فقاتل القوم حتى قُتل^(٨٧) وهو يقول :

رُحُضاً إلى الله بغير زاب إلا التقي وعمل المعاري
والصبر في الله على الجهاد وكل زاب غرضة النفاذ
غير التقي والبر والرشا^(٨٨)

وهجم أصحاب رسول الله (ﷺ) على الفئة الضخمة الباغية ، يقتلونهم ، ويحتزون رؤوسهم ، ويأسرونهم ، حتى ولوا الاديبار وهم صاغرون ، وقد قتل من قتل ببذر من أشرف قريش ورؤسائهم^(٨٩) ومضت قلوب المشركين تئن من هول المعركة ، وارتفع الصياح والعيول والنحيب في كل بيت ، وأجمعت قريش أن تعود لحرب محمد وأصحابه ، وما زالت تعد لذلك ، حتى خرجت ونزلت بجوار أحد قرب المدينة^(٩٠) .

ولما علم الرسول (ﷺ) باجتماع قريش في أحد لقاته ، جمع أصحابه واستشارهم في الخروج من المدينة لملاقات المشركين بعدما قص عليهم رؤيا رآها ، وفيها بقر تُذبح ، وكان

تؤكدها خطب الرسول (ﷺ) وخطب أصحابه (رضوان الله عليهم) في ميادين الجهاد . فيوم تهايا المسلمون لقتال المشركين ببدر الكبرى ، خطب النبي محمد (ﷺ) يومئذ ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال وهو يأمرهم ، ويُريغهم في الاجر :

« أما بعد ، فإنني أحتكم على ما حثكم الله عليه ، وأنهاكم عما نهاكم الله عنه ، فإن الله عظيم شأنه ، يأمر بالحق ، ويحُب الصلح ، ويُعطي على الخير أهله ، على منازلهم عنده ، به يُذكرون وبه يتفاضلون ، وإنكم قد أصبحتم بمنزل من منازل الحق ، لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهه . وإن الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله به الهم ، ويُنجي به من الغم ، وتُدركون به النجاة في الآخرة . فيكم نبي الله يحذرکم ويأمرکم ، فاستحيوا اليوم أن يطلع الله عز وجل على شيء من أمرکم يمقتكم عليه ، فإن الله يقول : (لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ)^(٩١) أنظروا الى الذي أمرکم به من كتابه ، وأراكم من آياته ، وأعزكم بعد ذلك ، فاستمسكوا به يرض ربيكم في هذه المواطن أمراً ، تستوجبوا .. الذي وعدكم به من رحمته ومغفرته ، فإن وعده حق وقوله صدق ، وعقابه شديد . وإنما أنا وأنتم بالله الحي القيوم ، اليه ألجأنا ظهورنا ، وبه اعتصمنا ، وعليه توكلنا ، وإليه المصير ، يغفر الله لي وللمسلمين »^(٩٢)

ومضى رسول الله (ﷺ) حتى اذا كان دُونَ بدر ، أتاه الخبر بمسير قريش لقاتله ، فجمع أصحابه واستشارهم ، هل يقيم على حرب قريش ونزالها أو يحجم ؟ فقام أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) فقال وأحسن ، ثم قام عمر (رضي الله عنه) فقال وأحسن ، ثم قال :

« يا رسول الله ، إنها قريش وعزها ، والله ما دلت منذ عزت ، ولا أمنت منذ كفرت ، والله لا تسلم عزها ابداً ، ولتقاتلنك فأتب لذلك أهبت ، واعد عدته »^(٩٣) .

ثم قام المقداد بن عمرو أحد المهاجرين ، فقال : « يا رسول الله ، أفض لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى : (اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ههنا قاعدون)^(٩٤) . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا معكما مقاتلون ، فو الذي بعثك بالحق ، لو سرت بنا الى برك الغمام لجالدنا معك من دونه ، حتى تبُلغه » فقال له رسول الله (ﷺ) خيراً ، ودعا له به^(٩٥) .

وتمثلت الخطب بكثير من المعاني التي كانت تدور على ألسنة المجاهدين في ذلك اليوم ، وهم يعبرون عن التزامهم بالدفاع عن الرسالة ، وتحقيق المطامح المشروعة التي جاءت بها ، مؤكدين صلابة العقيدة التي كانت تتجسد في القول

رأيه ألا يخرج من المدينة لهذه الرؤيا ، فابى قوم من الصحابة إلا الخروج منهم حمزة بن عبدالمطلب ، وسعد بن عباد ، والنعمان بن مالك بن ثعلبة ، وغيرهم . وقد وقف بعضهم خطيباً بين يدي رسول الله (ﷺ) ، ليعلم عن رغبته الملحة في قتال المشركين لينال إحدى الحسنين ، فقال مالك بن سنان أبو أبي سعيد الخدري :

« يا رسول الله ، نحن والله بين إحدى الحسنين - إما يُظفرنا الله بهم فهذا الذي نريد ، فيذللهم الله لنا فتكون هذه وقعة مع وقعة بدر ، فلا يبقى منهم إلا الشريد ، والآخرى يا رسول الله ، يرزقنا الله الشهادة ، والله يا رسول الله ، ما أبالي أيهما كان ، إن كلاً لفيه الخير » (٩٧) .

وخطب حمزة بن عبدالمطلب (رضي الله عنه) فقال : « والذي أنزل عليك الكتاب ، لأطعم اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيقي خارجاً من المدينة » . وكان يقال كان حمزة يوم الجمعة صائماً ، ويوم السبت صائماً ، فلاقاهم وهو صائم (٩٨) وخطب إلياس بن أوس ابن عتيك : « يا رسول الله ، نحن بنو عبد الأشهل من البقر المذبذب ؛ نرجو يا رسول الله أن نذب في القوم ويذب فينا ، فنصير إلى الجنة ويصيرون إلى النار ، مع أنني يا رسول الله لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون : حصرتنا محمداً في صياصي يثرب وأطامها فيكون هذا جرأة لقريش ، وقد وطنوا سمعنا فإذا لم نذب عن عرضنا لم نزرع ، وقد كنا يا رسول الله في جاهليتنا والعرب والعرب ياتوننا ، ولا يطمعون بهذا منا حتى نخرج إليهم بأسيفنا حتى نذهب عنا ؛ فندحن اليوم أحق إذ أيدنا الله بك ؛ وعرقنا مصيرنا ، لا نحصر أنفسنا في بيوتنا » (٩٩) .

وخطب آخرون غيرهم (١٠٠) فخاف عليهم رسول الله (ﷺ) فلما أتوا إلا الخروج رسول الله (ﷺ) الجمعة بالمسلمين ، ثم وعظهم وأمرهم بالجد والجهاد ، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا (١٠١) .

وعندما تقابل الجمعان ، قام رسول الله (ﷺ) فخطب الناس فقال : « يا أيُّ الناس ، أوصيكم بما أوصاني الله في كتابه من العمل بطاعة التناهي عن محارمه ، ثم إنكم اليوم بمنزل أجرٍ وذخرٍ لمن ذكرني عليه ثم وطن نفسه له على الصبر واليقين والجد والنشام ، فإن جهاد العدو شديد ، شديد كزيه قليل من يصبر عليه إلا من عزم الله رشده ، فإن الله مع من أطاعه ، وإن الشيطان مع من عصاه ، فافتتحو أعمالهم بالصبر على الجهاد ، فالتمسوا بذلك ما وعدكم الله .. » (١٠٢) وهي خطبة طويلة رائعة ، وقد اجتزنا منها هذا المقطع على سبيل الاستشهاد بها .

ونشب القتال في ذلك اليوم ، وكانت الدولة أول النهار للمسلمين على الكفار ، فانهزم أعداء الله وولوا مدبرين . ولما رأى الرماة هزيمة الكفار نزلوا مركزهم الذي أمرهم رسول الله بحفظه ، فجاز منه المشركون وأحاطوا بالمسلمين ، فأكرم الله من أكرم منهم بالشهادة وهم سبعون بينهم حمزة بن عبد المطلب ، وخلص المشركون إلى رسول الله فجرحوه وكسروا رياعيته ، وقد صرخ الشيطان بأعلى صوته بأن محمداً قد قتل . فاقبل ثابت بن الدحاح يومئذ والمسلمون أوزاع قد سقط في أيديهم ، فجعل يصيح :

« يا معشر الانصار ، إلي ، إلي ، أنا ثابت بن الدحاح . إن كان محمداً قد قتل ، فإن الله حي لا يموت فقاتلوا عن دينكم ، فإن الله مُظهركم وناصرهم » (١٠٣) .

فتأبث في خطبته الموجزة هذه عبّر عن رسوخ العقيدة الثابتة في قلبه وضميره ، وإصراره على القتال دفاعاً عن دين الله حتى وإن قُتل الرسول (ﷺ) ، لانه مؤمن بأن الله حي وغيره يموت ، وأن الله سينصر المسلمين ويذل المشركين . فنهض إليه نفر من الانصار ، فجعل يحمل بمن معه من المسلمين ، فقاتلوا حتى قُتلوا ، وصبر الرسول (ﷺ) على الرغم من جراحه أصابت وجهه الكريم ، صبر مع صحابته حتى انقشعت الغمرة (١٠٤) .

ولما فرغ الرسول (ﷺ) من عمرة القضاء وعاد إلى المدينة ، بعث جيشاً مكوناً من ثلاثة آلاف لحرب الروم في الشام ، وجعل قيادته لزيد بن حارثة ، ثم قال : إن أصيب زيد فالقيادة لجعفر من أبي طالب ، فإن أصيب خلفه عبدالله بن رواحة . ومضوا حتى نزلوا معان ، فبلغهم أن هزقل امبراطور بيزنطة نزل مدينة ماب من أرض البلقاء ، في مائة الف من الروم . فلما بلغ ذلك زيداً وأصحابه أقاموا في معان يومين ينظرون في أمرهم . وقال نفر : نكتب إلى رسول الله (ﷺ) ونخبره بعدد عدونا ، فإما أن يمدنا برجال ، وإما أن يأمرنا بأمر فتمضي له . ووقف عبدالله بن رواحة قبل بداية المعركة يشجع المسلمين على الصبر والثبات . لِقَلِّهَم من عدد الروم فقال : « والله ما كنّا نقاتل الناس بكثرة عدو ، ولا بكثرة سلاح ، ولا بكثرة خيول ، إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به . انطلقوا ! والله لقد رأيتنا يوم بذّر مامعنا إلا فرسان ، ويوم أحد فرس واحد ، وإنما هي إحدى الحسنين : إما ظهورٌ عليهن فذلك ما وعدنا الله ووعدنا نبيّنا ، وليس لوعده خُلْف ، وإما الشهادة فنلحق بالآخوان نرافقهم في الجنان » (١٠٥) .

فهزت هذه الخطبة مشاعر المسلمين ، وزحفوا إلى العدو ، وقد امتلأوا حماسة وحمية ، وكل منهم يؤذ لو لقي مصرعه حتى

تكتب له الشهادة ، وهكذا تمضي الخطابة في غزوات الرسول (ﷺ) تحت المسلمين على حمل الرسالة والدفاع عنها ، حتى غدا الجهاد من أبرز موضوعاتها .

٢ . في حروب الردة

واشدت الامور ، وتعاضمت الخطوب ، بعد وفاة الرسول (ﷺ) إذ ارتدت أعداد كبيرة من قبائل العرب عن الاسلام ، وتعرضت الرسالة الى خطر كبير كاد يودي بها ، لولا عناية الله وحفظه لها ، ووقفه الصحابة الابرار الذين ثبتوا على اسلامهم ، ودافعوا عنها بأرواحهم واموالهم والسنتهم . وكان من بينهم اولئك المجاهدون الخطباء الذين واكبوا احداث الردة ، وشاركوا في معظم معاركها ، فقاتلوا المرتدين بسيوفهم ، وخطبوا المؤمنين على الصبر والثبات وجمع القلوب وتوحيد الصفوف على نصر الله . وكان على رأسهم الخليفة أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) الذي وقف يومذاك ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال مخاطباً المسلمين :

« الحمد لله الذي هدى فكفى ، وأعطى فاغنى ، إن الله بعث محمداً (ﷺ) والعلم شريد ، والاسلام غريب طريد ، قد رث حبله ، وخلق عهده ، وضل أهله منه ، ومقت الله اهل الكتاب فلا يعطيهم خيراً لخير عندهم ، ولا يصرف عنهم شراً لشر عندهم ، قد غيروا كتابهم ، وألحقوا فيه مائيس منه ، والعرب الامنون يحسبون أنهم في منعة من الله لا يعبدونه ولا يدعونه ، فاجهدهم عيشاً ، وأضلهم ديناً ، في ظلف من الأرض مع ما فيه من السحاب ، فختهم الله بمحمد ، وجملهم الأمة الوسطى ، نصرهم بمن اتبعهم ، ونصرهم على غيرهم ، حتى قبض الله نبيه (ﷺ) فركب الشيطان مركبه الذي أنزله عليه ، وأخذ بأيديهم ، وبغى هلكتهم (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) (١٠٠) إن من حولكم من العرب منعوا شاتهم ويعبرهم ، ولم يكونوا في دينهم - وإن رجعوا إليه - أزهدهم يومهم هذا ، ولم تكونوا في دينكم أقوى منكم يومكم هذا ، على ما قد تقدم من بركة نبيكم (ﷺ) وقد وكلكم الى المولى الكافي ، الذي وجده ضالاً فهداه ، وعائلاً فاغناه (وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا) (١٠١) والله لأدع ان أقاتل على أمر الله حتى ينجز الله وعده . ويوفي لنا عهده ، ويقتل من قتل منا شهيداً من اهل الجنة ، ويبقى من بقي منها خليفته وذريته في أرضه ، قضاء الله الحق ، وقوله الذي لاخلف له (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ) (١٠٢) ثم نزل . » (١٠٣)

فأبو بكر (رضي الله عنه) في خطبته المذكورة آنفاً ذكر المسلمين بسالف عهدهم ، وفضل الله والاسلام والرسول عليهم ، ثم وضعهم امام واقع من الامر ، وهو أمر الله ، فاقسم أن يقاتل في هذا الامر الى أن ينجز الله وعده ، ويوفي عهده ، ومادام القتال في أمر الله ، وقد وعد ، فلا شك في الانجاز ، فالنصر واقع ، ومن يقتل أو قتل من المسلمين فهو شهيد من اهل الجنة ، ومن بقي منهم وعمل صالحاً ، فهو خليفة الله في أرضه . هذا وعده الحق ، وقضاؤه المبهر ، وحُكْمُهُ الذي لا يتخلف . وهكذا يكون الترغيب في الجهاد الذي دعا اليه الاسلام وحث عليه . (١٠٤)

وعندما أرتدت معظم القبائل العربية عن الاسلام ، حاول نفر منها أن يدعي النبوة ، فتبعه خلق كثير من مختلف القبائل ، من امثال مسيلمة الكذاب في بني حنيفة ، وطلحة الاسدي في بني أسد ، وسجاح التميمية في بني تميم . وقد امتنع هؤلاء المرتدون عن دفع الزكاة ، واجتمعت أسد وغطفان وطيء على طليحة الاسدي ، ويعتوا وفوداً الى أبي بكر (رضي الله عنه) فقال : « لو منعوني عقلاً لجاهدتهم عليه » فردهم ، فرجعوا الى أقوامهم واخبروهم بصنيع الصديق (رضي الله عنه) وحذوهم عن قلة المسلمين بالمدينة ، واطمعوهم فيهم . وعلم أبو بكر (رضي الله عنه) بذلك فخطب المسلمين بمسجد المدينة يحثهم على قتالهم :

« إِنَّ الْأَرْضَ كَافِرَةٌ (١٠٥) وقد رأى وفدكم منكم قلة ، وإنكم لاتدرون أليلاً تؤتون أم نهاراً ، وإذناهم منكم على ما يريد ، وقد كان القوم يأملون أن نُقْبِلَ منهم ونؤادعهم ، وقد أبينا عليهم ، فاعذوا واستعدوا » (١٠٦) .

وكانت هذه الخطبة إيذاناً بنشوب القتال مرة أخرى بين المسلمين والمشركين وهم سائر القبائل التي اعلنت بتعنّت وجبروت ردتها عن الاسلام ، فدارت معارك كثيرة شملت انحاء عديدة من الجزيرة العربية ، منها يوم ذي القصة ، والبطحاء ، وجؤاثا ، واليمامة ، وصنعاء ، وقد انتصر المسلمون في جميع هذه المعارك ، وتمكنوا من اخضاع المرتدين فيها الى كلمة الاسلام وسلطانه . (١٠٧)

على ان هذه الردة وما صاحبها من حروب كان لها أثر واضح في الخطابة يومذاك . فقد هب الخطباء من كل حذب وصوب يبينون خطئ الردة ، ويهاجمون المتنبيين ، ويحثون المسلمين على الثبات وعدم الارتداد . ففي اليمامة دعا أئمة بن آثال (قومه الى عدم اتباع مسيلمة وتصديقه ، فقال : « إياكم وأمر مظلم لا نور فيه ، وإنه لشقاء كذب الله - عز وجل - على من أخذ به منكم ، ونلاء على من لم يأخذ به منكم

نصر، واهازيج فرح خالدة، تغنى بها المجاهدون الخطباء، وخلدها التاريخ بالرغم من ضياع الكثير منها، وخلد ابطالها وفرسانها، فكانت بحق ملاحم بطولية خالدة.

المبحث الثاني

الجهاد في خطب الفتوحات الاسلامية

وبعد أن قضى الاسلام على حركة المرتدين، واصبحت القبائل العربية كلها تدين بدين الاسلام، انطلقت جحافل الفتح الاسلامية لتتلي نداء الواجب المقدس الذي كتبه الله لها خارج الجزيرة العربية، قال تعالى: « أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ »^(١١٥) فاخذ سيول الجيوش الفاتحة تتدفق على العراق والشام، وأخذ الجهاد يتجلى في أعظم معارضة وصوره، في الرجال والنساء اللائي كن يشهدن المعارك محرضات محمسات، بينما كان الشعراء والخطباء الفرسان يدوون كالنحل باشعارهم وخطبهم الحماسية^(١١٦) وبغية تلمس دور الخطابة في الفتوحات الاسلامية، يحس بنا أن نعرض لهذا الدور في كل جبهة على حدة.

١. في فتوحات الجبهة الشرقية

لقد دارت معارك ضارية على امتداد هذه الجبهة الطويلة، شنّها المسلمون على الاكاسرة، فاستمد امراء الجيوش والقواد ورجال الحرب الخطابة، يلهبون مشاعر الجند ويشعلون حماسهم، ويمنونهم النصر العاجل، والفوز الاجل^(١١٧) فخالدين الوليد بعد أن أمره الخليفة ابو بكر (رضي الله عنه) بالتوجه نحو العراق لقتال الفرس، ارتفع صوته في ذلك اليوم، فخطب في الناس يحضضهم على الجهاد في سبيل الله، فقال: « الحمد لله، واللّه أهله، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، أما بعد: فإنّ خليفة رسول الله - ﷺ - كتب إلينا يحضنا على طاعة ربنا، وجهاد عدونا وعدو الله، وبالجهاد في سبيل الله أنجز الله دعوتنا، وجمع كلمتنا وامنيتنا، والحمد لله رب العالمين، ألا واني خارج ومعسكر وسائر - إن شاء الله - ومُعجّل، فمن أراد ثواب العاجل والاجل فَلْيَنْكَبْ »^(١١٨) وتوجه خالد بن الوليد نحو العراق، وخاض المسلمون بقيادته سلسلة من المعارك، انتهت جميعها بانتصار المسلمين وهزيمة الفرس. وعقب انتصارهم في وقعة الولجة وقف خالد بن الوليد في الناس خطيباً يحثهم على الجهاد، وقد أثار في خطبته الى ثراء الارض التي يقاتلون فيها، فقال:

يا بني حنيفة^(١١٨).

ولما لم يستجب بنو حنيفة الى دعوة ثمامة هذه، واصتروا على ارتدادهم توجه اليهم خالد بن الوليد، فنزل على كثيب يشرف على اليمامة، ف ضرب به عسكره، فاصطدم المسلمون والكفار، فكانت جولة، وانهزمت الاعراب حتى دخلت بنو حنيفة خيمة خالد بن الوليد، وقاتلت بنو حنيفة قتالاً لم يعهد مثله، وجعلت الصحابة يتواصون بينهم، ويقولون: يا أصحاب سورة البقرة، بطل السحر اليوم، وحفر ثابت بن قيس لقدميه في الأرض الى أنصاف ساقيه، وهو حامل لواء الانصار بعدما تحنط وتكفن^(١١٩) وخطب المسلمين فقال:

« يامعشر المسلمين، أنتم حزّب الله وهم أحزاب الشيطان، والعزة لله ولرسوله ولأحزابه، أروني كما أريكم »^(١٢٠)

وخطب زيد بن الخطاب في ذلك اليوم فقال مخرضاً المسلمين على القتال: « لا والله لا أتكلّم اليوم حتّى نهزمهم أو ألقى الله فأكلمه بحجتي! عضوا على أضراسكم أيّها الناس، واضربوا في عدوكم، وامضوا قدماً »^(١٢١).

وهذه الخطب على رغم قصرها، وانها شبيهة بالارجاز التي يرتجزها المقاتلون في سوح الوغي، استطاعت ان تلهب حماس المسلمين يومذاك، فأصروا على جهاد المرتدين « فرثوهم الى مصافهم حتى أعادوهم الى أبعد من الغاية التي خيروا اليها من عسكرهم »^(١٢٢).

وفي البحرين وقف العلاء بن الحضرمي خطيباً بحث المسلمين على مطاردة المرتدين الغازين الى دارين، فجمعهم وقال:

« إنّ الله قد جمع لكم أحزاب الشياطين وشردّ الحرب في هذا البحر، قد أراكم من آياته في البرّ لتعتبروا بها في البحر، فانهضوا الى عدوكم، ثم استعرضوا البحر إليهم، فإن الله قد جمعهم »^(١٢٣).

فأثارت هذه الخطبة حمية المسلمين، فتنأخوا فيما بينهم حتى اقتحموا البحر، فأجازوا الخليج العربي بإذن الله يمشون على مثل زفلة ميثاء، فوقها ماء يغمز أخفاف الأبل، وإن ما بين الساحل ودارين مسيرة يوم وليلة لسفن البحر في بعض الحالات، فالتقوا بها، واقتتلوا قتالاً شديداً، وقهروا المرتدين واحتازوا غنائمهم، ثم رجعوا، فعبروا الى موضعهم الاول^(١٢٤) وهكذا كانت الخطابة تؤدي دورها الجهادي في معارك الاسلام الاولى ضد المشركين والمرتدين، وتعبّر بصدق عن عظمة اولئك الرجال الذين صدقوا ماعاهدوا الله عليه، وجاهدوا في سبيله بالسنتهم، فكانت خطبهم في ميادين الجهاد وانا شيد

« الا تَرَوْنَ الى الطَّعام كَرْفَعُ (١٢٨) التراب ، وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء الى الله عز وجل ولم يكن الا المعاش ، لكان الرأي ان نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ، ونوَلِّي الجوع والإقلال مَنْ تَوَلَّاهُ مِنْ أَثْقَلِ عَمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ » (١٢٩)

وتتوقف عمليات خالد بن الوليد بعد وقعة الفراض ، إذ أمره الخليفة ابو بكر (رضي الله عنه) بالسير نحو بلاد الشام ليكون عوناً للمسلمين هناك (١٣٠) ، فتوَلَّى المثنى بن حارثة الشيباني قيادة جيش المسلمين ، وخاض معركة ضارية ضد الفرس في تلال بلابل ، وانهزم الفرس وتبعهم المسلمون الى المدائن يقتلونهم ، وأقام المثنى بعد هذه المعركة ينتظر أن تأتيه الامدادات من ابي بكر (رضي الله عنه) لكن انتظاره طال ، وابطا عليه رد الخليفة ، فخلف على المسلمين (بشير بن الخصاصية) وخرج متوجهاً الى ابي بكر (رض) فقدم المدينة وقابل الخليفة الراشد وهو على فراش الموت ، واخبره بان الفرصة مواتية لارسال جيش (١٣١) كبير الى العراق ، فاهتم الخليفة برأي المثنى واقتنع به ، وقال : « عليَّ بِعُمَرُ » فجاءه فاوصاه أن يندب الناس مع المثنى ، فندب عمر (رضي الله عنه) الناس لحرب الفرس ، فتتابعوا فخطبهم ، فقال : « إِنْ الْحِجَازَ لَيْسَ لَكُمْ إِلَّا عَلَى النَّجْفةِ ، ولا يَقْوَى عَلَيْهِ أَهْلُهُ إِلَّا بِذَلِكَ ، أَيْنَ الطُّرَّاءُ الْمُهَاجِرُونَ عَنْ مَوْعِدِ اللَّهِ ! سَيُؤَا فِي الْأَرْضِ الَّتِي وَعَدَكُمْ اللَّهُ فِي الْكِتَابِ أَنْ يورثَكُمُوهَا : فَإِنَّهُ قَالَ : (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) (١٣٢) وَاللَّهِ مَظْهَرُ دِينِهِ ، وَمَعْرَاضُ نَاصِرِهِ ، وَمَوْلَى أَهْلِهِ مَوَارِيثُ الْأُمَمِ . أَيْنَ عِبَادُ اللَّهِ الصَّالِحُونَ ! » (١٣٣) .

ثم خطب المثنى فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، لَا يَغْظُمَنَّ عَلَيْكُمْ هَذَا الْوَجْهَ ، فَإِنَّا قَدْ تَحِبَّحْنَا رِيفَ فَارَسَ ، وَغَلَبْنَا هُمْ عَلَى خَيْرِ شَقِي السَّوَادِ ، وَشَاطَرْنَا هُمْ ، وَفَلْنَا مِنْهُمْ ، وَاجْتَرَأَ مَنْ قَبْلَنَا عَلَيْهِمْ ، وَلَهَا أَنْ شَاءَ اللَّهُ مَا بَعْدَهَا » (١٣٤) .

وقد تركت هاتان الخطبتان تأثيراً كبيراً في نفوس المجاهدين يومذاك ، فتطوع منهم عدد كبير ، كان في مقدمتهم ابو عبيد بن مسعود الثقفي (١٣٥) .

وفي البويب تقابل المسلمون والفرس ، فوقف المثنى على الرايات راية راية ، يحضض المسلمين ، ويأمرهم بآمره ، ويهزم بأحسن ما فيهم تحضيضاً لهم ، ولكلهم قال : « إِنِّي لَأَرْجُو الْآلَ تَوْتِي الْعَرَبُ الْيَوْمَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، وَاللَّهِ مَا يُسْرُنِي الْيَوْمَ لِنَفْسِي شَيْءٌ وَهُوَ يُسْرُنِي لِعَامَتِكُمْ » (١٣٦) وَقَتِلَ الْفَرَسَ الْمُشْرِكُونَ فِي تِلْكَ الْوَقْعَةِ شَرِّقَتَهُ ، وَتَبِعَهُمُ الْمُسْلِمُونَ إِلَى اللَّيْلِ ، وَمَنْ الْغَدَا إِلَى اللَّيْلِ ، وَمَالَ الْمَثْنَى عَلَى الَّذِينَ أَرَادُوا أَنْ يَسْتَقْتَلُوا مِنْ مُنْهَزِمَةِ يَوْمِ الْجَسْرِ ، فَخَاطَبَهُمْ بِقَوْلِهِ :

« أَيْنَ الْمُسْتَبْسِلُ (١٣٨) وَأَصْحَابِهِ ، انْتَدَبُوا فِي آثَارِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ إِلَى الْمَشِيبِ ، وَابْلَغُوا مِنْ عَدُوِّكُمْ مَا تَقِيطُونَهُمْ بِهِ ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَاعْظُمُ أَجْراً (وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (١٣٩) » (١٤٠) .

وانتدب المثنى الناس لملاحقة فلوس الفرس المدعورة في تلك الوقعة الى المشيب ، فخطب جرير بن عبدالله في قومه بجيلة يحثهم على ذلك فقال :

« يَامَعْشَرَ بَجِيلَةٍ ، أَنْتُمْ وَجَمِيعٌ مِنْ شَهِدَ هَذَا الْيَوْمَ فِي السَّابِقَةِ وَالْفَضِيلَةِ وَالْبَلَاءِ سَوَاءٌ ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي هَذَا الْخُمُسِ غَدَاً مِنَ الثَّمَلِ مِثْلَ الَّذِي لَكُمْ مِنْهُ ، وَلَكِنْ رُبَّ خَمْسَةِ نَقْلًا مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَسْرَعَ إِلَى هَذَا الْعَدُوِّ وَلَا أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْكُمْ لِلَّذِي لَكُمْ مِنْهُ ، وَنِيَّةٌ إِلَى مَا تَرْجُونَ ، فَإِنَّمَا تَنْتَظِرُونَ إِحْدَى الْحُسْنَيْنِ : الشَّهَادَةَ وَالْجَنَّةَ أَوْ الْغَنِيمَةَ وَالْجَنَّةَ » (١٤١) .

وبعد البويب قلق أهل فارس كثيراً ، وتذمروا ، فما بعد بغداد وسباط وتكرت إلا المدائن ، فشرع يزدجرد ملك الفرس يومذاك بتنظيم الجيش من جديد ، وتعيين قاده له ، وأمر باعلان النفي العام ، وارسال الجيوش الى العراق لمهاجمة المسلمين ، ولما علم الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بأمر الفرس واجتماعهم أخيراً على يزدجرد أعلن النفي العام في الجزيرة العربية استعداداً لليوم الفاصل (القادسية) وقال : « وَاللَّهِ لَا ضَرِيْنَ مُلُوكِ الْعَجَمِ بِمُلُوكِ الْعَرَبِ » ثم دعا المسلمين الى اختيار من يقودهم الى الجهاد والقتال لفتح العراق ، فاختاروا سعد بن ابي وقاص ، فاحضره عمر (رضي الله عنه) وعيّنه قائداً عاماً للعمليات الحربية بالعراق ، ووضع أمامه جملة من الوصايا ليفيد منها في مهمته الجديدة (١٤٢) .

وسار سعد بن ابي وقاص بالمسلمين الذين تطوعوا لقتال الفرس ، حتى نزل القادسية من أرض العراق . وعندما تقابل الجيشان . المشركون الفرس على شفر العتيق ، والمسلمون أمام قديس ، والخندق من ورائهم ، وقف سعد أمام جنده ليعظهم ، ويحثهم على الجهاد ، وقد أثار عزائمهم ، وألهب حماسهم بخطبة حماسية مؤثرة ، كان لها وقع كبير على المسلمين ، فارتفعت لذلك معنوياتهم ، وتشجعوا أكثر على القتال ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

« إِنْ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ لِأَشْرِيكَ لَهُ فِي الْمُلْكِ ، وَلَيْسَ لِقَوْلِهِ خَلْفٌ ، قَالَ اللَّهُ جَلُّ ثَنَاوَهُ : (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) (١٤٣) إِنْ هَذَا مِيرَاثُكُمْ وَمَوْعِدُ رَبِّكُمْ ، وَقَدْ أَبَاحَهَا لَكُمْ مِنْذُ ثَلَاثِ جَحِجٍ ، فَأَنْتُمْ تَطْعَمُونَ مِنْهَا ، وَتَاكُلُونَ مِنْهَا ، وَتَقْتُلُونَ أَهْلَهَا ، وَتَجْبُونَهُمْ وَتَسْبُونَهُمْ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ بِمَا نَالَ مِنْهُمْ أَصْحَابُ الْآيَّامِ مِنْكُمْ ، وَقَدْ جَاءَكُمْ مِنْهُمْ

الأسد ، ويختطف بعضاً اختطاف الذئاب ، فانصروا
الله ينصركم ، وتنجزوا من الله فتح فارس ، فإن إخوانكم من
أهل الشام قد أنجز الله لهم فتح الشام ، وانتشال القصور
الخمر ، والحصن الخمر» (١٣٩) .

وتعالت اصوات القادة في ليلة الهرير من يوم عماس ،
وكانت خطبهم في تلك الليلة قد فعلت فعلها في إثارة حماس
المقاتلين ، وأشرت بوضوح السبل الكفيلة لتحقيق النصر ،
فخطب ثريد بن كعب النخعي ، وكان معه لواء النخع ، فقال :
« إن المسلمين تهينوا للمزاحقة ، فاسبقوا المسلمين الليلة
الى الله والجهاد ، فإنه لا يسبق الليلة أحد إلا كان ثوابه على
قدر سببه ، نافسوه في الشهادة ، وطيبوا بالموت نفساً ، فإنه
أنجى من الموت ، إن كنتم تريدون الحياة ، وإلا فالآخرة
ما أردتم » (١٤٠)

وفعل الأشعث بن قيس ، وطليحة الأسدي ، وغالب بن
عبدالله اللثني ، وأهل النجدات من جميع القبائل مثل
ذلك (١٤١) ، فتصاعد حماس المسلمين ، وارتفعت معنوياتهم ،
وقاتلوا الفرس بكل قوة ، وبقي القتال مستمراً حتى صباح اليوم
الرابع ، وهو يوم القادسية ، الذي قتل فيه رستم ، وهزم جيشه
شر هزيمة (١٤٢)

واستمرت الخطابة تجوب ميادين الجهاد في جبهة
العراق ، فارتفع صوتها على لسان سعد بن أبي وقاص في
بهرسير ، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي ، وجريز بن عبدالله
البجلي ، وهاشم بن عتبة ، والقعقاع بن عمرو التميمي في وقعة
جلولاء (١٤٣)

وتواصل جحافل العقيدة الاسلامية انطلاقها في جبهة
العراق من أجل نشر رسالة العدل والحق حتى تدخل بلاد
فارس ، فتخوض معارك ضارية مع الفرس المشركين في غفر
دارهم ، وكانت الخطابة تنتقل مع السيف من خندق الى خندق ،
تحت المؤمنين وترهب المشركين أعداء الله ، فيرى ان النعمان بن
مقرن وقف على الرايات في يوم نهاوند وخطب المسلمين ، فقال
بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« قد علمتم ما أعزكم الله به من هذا الدين ، وما وعدكم من
الظهور ، وقد أنجز لكم هواي ما وعدكم وصدوره ، وإنما بقيت
أعجازه وأكارع ، والله منجز وعده ، ومتبغ آخر ذلك أوله ،
وانكروا ماضى إذ كنتم أذلة ، وما استقبلتم من هذا الامر وانتم
اعزة ، فانتم اليوم عباد الله حقاً وأولياؤه ، وقد هطمتم انقطاعكم
من إخوانكم من أهل الكوفة ، والذي لهم في ظفركم وعزكم ،
والذي عليهم في (١٤٤) هزيمتكم وذلكم ، وقد ترون من أنتم بإزائه
من عدوكم ، وما أخطرتكم وما أخطروا لكم ، فاما ما أخطروا لكم

هذا الجمع ، وأنتم وجوه العرب وأعيانهم ، وخيار كل قبيلة ،
وعز من وراءكم ، فإن تزهّدوا في الدنيا وترغبوا في الآخرة جمع
الله لكن الدنيا والآخرة ، ولا يقرب ذلك أحداً إلى أجله ، وإن
تفضلوا وتهنوا وتضعفوا تذهب ريحكم ، وتوبقوا آخرتكم » (١٣٤)

والتقى الجيشان في حرب ضروس استمرت أربعة أيام
وثلاث ليالي ، متصلة الحرب حامية الوطيس ، وقد أدت
الخطابة دورها في هذه المعركة ، فلم يكن القتال يبدأ قبل أن يمر
الخطباء والشعراء بين الصفوف يرغّبون الناس ، ويقدحون
عزمهم ، فينشأ أهل الرأي والنجدة القتال ، بينما يشعل
الخطباء والشعراء أوار الحماس (١٣٥) .

ففي يوم أرمت - وهو اليوم الأول من معركة القادسية -
أقبل سعد يتخلل الصفوف ويقول :

« أيها الناس هذا يوم تجلّ فيه الحليل ، ونزل فيه النصر
جبريل ، انكروا قصور الجنة وما أعد الله فيها من المنّة ،
واعلموا أن يومكم هذا يوم عظيم ، لا يقتل فيه الا كل كريم يتكرم
بنفسه في مرضاة ربه ، أما والله أن أبواب السموات فتحت ،
والجنة لكم أزلقت ، والنار أحميت ، وأعمالكم الصالحة إليه
رُفعت ، ثم تلا (إليه يضعذ الكليم الطيب ، والعمل الصالح
يرفعه) (١٣٦) وان الله قد جعل الصبر بمنزلة الرأس من
الجسد ، وما تنتظرون من الصبر إلا أحد الحسنين ، إما فرجاً
عاجلاً او خيراً أجلاً ، والصبر يدعو الى الطاعة ، والجزع يدعو
الى المفسدة » (١٣٧)

فحزكت هذه الخطبة شعور المسلمين ، وحفزتهم على
الجهاد ، فبرز أهل النجدات فانشبوا القتال ، وأندفع الأمراء في
خطبهم ، يحضون المسلمين على الصبر في الجهاد ، وأن يكونوا
كأسود الغاب ، وأن يسارعوا الى مغفرة من ربهم ، وجنة عرضها
السموات والأرض ، أعدت للمتقين ، فخطب في ذلك اليوم كل
من : عاصم بن عمرو التميمي ، وقيس بن هبيرة الأسدي ، ونشر
بن أبي رهم الجهني ، وربيع بن البلاد السعدي ، وربيع بن
عامر ، وطليحة بن خويلد الأسدي ، والأشعث بن قيس (١٣٨)
واستمر القتال في يوم أرمت حتى غروب الشمس ، وتمضي
الخطابة في انكاء جذوة الحماس ، وتحرض المسلمين على
القتال طيلة أيام القادسية . ففي يوم عماس - اليوم الثالث من
المعركة - شرع قادة الجيش الاسلامي كعادتهم يشجعون جندهم
على الجهاد بأروع الخطب ، فقام قيس بن المكشوح المرادي في
المجردة ، فخطب فيمن يليه ، فقال :

« يامعشر العرب ، إن الله قد منّ عليكم بالإسلام ،
وأكرمكم بمحمد ﷺ ، فاصبحتم بنعمة الله إخواناً . نغوثكم
واحدة ، وأمركم واحد ، بعد إذ أنتم يعدون بعضكم على بعض غد

فهذه الرثة^(١٤٥) وماترون من هذا السواد ، وأما ما أخطرتهم لهم فدينكم وبئضتكم ، ولا سواء ما أخطرتهم وما أخطروا ، فلا يكونن على دنياهم أحصى منكم على دينكم ، واتقى الله عبد صدق الله ، وأبلى نفسه فاحسن البلاء ، فإنكم بين خيرين منتظرين ، إحدى الحسنين ، من بين شهيد حي مرزوق ، أو فتح قريب وظفر يسير ، فكفى كل رجل ما يليه ، ولم يكل قزئه إلى أخيه ، فيجتمع عليه قزئه وقزّن نفسه ، ذلك من الملازمة ، وقد يقاتل الكلب عن صاحبه ، فكل رجل منكم مسلط على ما يليه ، فإذا قضيت أمري فاستعدوا فإنني مكبّر ثلاثاً ، فإذا كبرت التكبير الأولى فليتهيأ من لم يكن تهيأ ، فإذا كبرت الثانية فليشد عليه سلاحه ، وليتأهب للنهوض ، فإذا كبرت الثالثة ، فإنني حامل إن شاء الله فاحملوا معاً ، اللهم اعز دينك ، وانصر عبادك ، واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك^(١٤٦) .

وكان النعمان أول شهيد في نهاوند . ويمضي الجيش العربي الاسلامي بعد هذه الوقعة مقيمًا بلاد فارس ، ويحطم كل مقاومة تلقاه في خراسان واذريجان وارمينية . وفي كل المدن الفارسية الاخرى ، حتى يصل الى حدود الصين ، وكانت الخطابة مرافقة لجميع الاحداث ، ومناصرة للسيف العربي الاسلامي في كل الوقائع .

٢ - في فتوحات الجبهة الغربية

وفي الجبهة الغربية - جبهة الشام وشمال افريقية - سحق العرب في عهد أبي بكر وعمر وعثمان (رضي الله عنهم) الروم سحقاً ذريعاً اضطروهم الى ان يرفعوا ايديهم عن الشام ومصر ، وأخذوا يرفعونها عن افريقية مكرهين مهزومين مهزورين ، حتى إذا ولي الامويون تقدموا إلى المحيط الاطلسي وعبروا المضيق الى إسبانيا حيث سهلت خيولهم فرسانهم على مشارفها الشمالية . وكان طبيعياً أن يرتفع صوت الخطابة في هذه الفتوحات التي كلفت الجيوش العربية خطوباً شداداً وأهوالاً من المعارك والقتال والصراع والنزال ، وفي كل معركة وكل فتح تتجلى بطولتهم ، وتتجلى امجادهم الحربية ، ويتجلى معها ما نظموه من أناشيد حماسية شعراً كان ام خطابة^(١٤٧) .

فمنذ اللحظة الاولى التي عزم فيها ابو بكر الصديق (رضي الله عنه) على توجيه الجيوش لفتح الشام ، جمع ابو بكر (رضي الله عنه) اصحاب رسول الله (ﷺ) في المسجد ، وقام فيهم خطيباً يستشيرهم في ذلك ، ويحثهم على تنفيذ وصية الرسول (ﷺ) له قبل وفاته ، فحمد الله واثنى عليه ، وصلى

على رسوله ، ثم قال :

« يا أيها الناس رحمكم الله تعالى ، اعلموا أن الله فضلكم بالإسلام ، وجعلكم من أمة مُحَبَّبٍ عليه السلام ، وزادكم إيماناً و يقيناً ، ونَصَرَكم نَصراً مُبِيناً ، وقال فيكم : (أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)^(١٤٨) واعلموا أن رسول الله (ﷺ) كان عول أن يصرف همته الى الشام ، فقبضه الله واختار له ما لديه إلا واني عازم أن أوجه ابطال المسلمين الى الشام باهليهم ومالهم ، فإن رسول الله (ﷺ) نباني بذلك قبل موته ، وقال رويت لي الارض فرايت مشارقتها ومغاربها ، وسيبلغ ملك امتي ما رؤي لي منها ، فما قولكم في ذلك ؟ فقالوا : يا خليفة رسول الله مرنا بأفرك ، ووجهنا حيث شئت فان الله تعالى فرض علينا طاعتك ، فقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم)^(١٤٩) .

ومن هنا تشكلت ملامح فكرة فتح بلاد الشام وفتح ديارها للإسلام والمسلمين ، وكانت امتداداً لأول صدام جرى بين العرب والروم في عهد النبي (ﷺ) . وقد استجاب الصحابة الكرام لما دعا إليه ولي أمرهم طاعة لله في خليفة رسوله ، ففرح ابو بكر وشرع في كتابة الكتب الى ملوك اليمن وأهل مكة يدعوهم فيها الى الجهاد لفتح بلاد الشام وانتزاعها من أيدي الكفار والطغاة^(١٥٠) .

ولما تكاملت الجيوش واقامت مجتمعة في المدينة عقد ابو بكر الرايات وأمر القادة ، ثم ذكرهم ، وأوصاهم وودعهم . فانطلق يزيد بن أبي سفيان في ألف فارس حتى نزل الجابية ، ولما تسربت اخبار المسلمين الى هرقل ، جهز جيشاً من ثمانية آلاف فارس ليرد جيش يزيد عن سبيله . وقبل ان يقع الاشتباك بين الجيشين ، خطب يزيد أصحابه الألف يحرضهم على الجهاد ويتلو عليهم آيات النصر ، فقال :

« إن الله وعدكم بالنصر وأيدكم بالملائكة ، وقال الله تعالى في كتابه العزيز الحكيم : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين)^(١٥١) وقد قال (ﷺ) : (الْجَنَّةُ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ)^(١٥٢) وانتم اول جند دخل الشام وتوجه لقتال بني الاصفر ، كانكم بجنود الشام ، وإياكم ان تطعموا العدو فيكم ، وانصروا الله ينصركم^(١٥٣) . فاهاجت هذه الخطبة مشاعر المسلمين المجاهدين ، ودفعتهم الى اخلاص النية في جهاد العدو ، واسترخاض الارواح في سبيل الله . فوقع بين الطرفين قتال عنيف ، خرج منه المسلمون ظاهرين منتصرين ، وولى الروم الادبار ، وركنوا الى الفرار^(١٥٤) .

وفي بصري رجعت الروم الى عددها وعديدها ، وتظاهروا بالدروع ، وقادوا الجنائب ، وتهيئوا للحملة ، فلما رأى شرحبيل بن حسنة ذلك خطب اصحابه يعظهم ، ويحثهم على الجهاد فقال :

« اعلموا رحمكم الله ان رسول الله ﷺ قال : (الْجَنَّةُ تَحْتَ ظِلِّالِ الشُّيُوفِ) (١٥٦) وأحب ما قرب الى الله قطرة دم في سبيل الله ، ودمعة جرت في جوف الليل من خشية الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ) (١٥٧) » (١٥٨) .

وحمل شرحبيل وحمل معه المسلمون على جيش الروم ، واقتبل خالد بن الوليد بجماعة من أهل العراق مدداً لشرحبيل ، فأعاد ترتيب الصفوف ، ثم كبر المسلمون وهلّلوا للنصر باهازيجهم وخطبهم المدوية ، حتى كتب الله لهم النصر ، وهزمت الروم شر هزيمة ، ودخل المسلمون مدينة بصرى ، فكانت أول مدينة فتحت بالشام (١٥٩) .

ومن بصرى واصلت طلائع الفتح الاسلامي زحفها المقدس نحو دمشق ، وخلال هذا الزحف ، خاضت سلسلة من المعارك الضارية ضد الروم (١٦٠) ، كان من ابرزها معركة اليموك الكبرى التي انكسرت الروم فيها انكساراً عظيماً (١٦١) . وفي هذه المعركة الخالدة كانت الخطابة الجهادية تآزر السيف الاسلامي من موضع الى موضع ، لتثبت أقدام المجاهدين ، وتصبرهم على القتال على نحو ما فعله ابو عبيدة عامر بن الجراح عندما وقف خطيباً امام الصفوف محرّضاً المقاتلين على اخلاص النية في الجهاد ، فقال :

« إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامك ، والزمو الصبر ، فإن الصبر منجاة من الكرب ، ومرضاة للرب ، ومعمة للعدو ، فلا تزيلا صغوفكم ، ولا تنفضوا نسبكم ، ولا تخطوا خطوة إلا وأنتم تذكرون الله . ولا تبدأ وهم بالقتال حتى يبدؤكم ، واشرعوا الرماح ، واستتروا بالدرق ، والزمو الصمت إلا من ذكر الله ، ولا تحدثوا أحداً حتى أمركم » (١٦٢) .

وخطب بالناس عمرو بن العاص وطمأنهم بقوله : « ايها المسلمون غضوا الابصار ، واجثوا على الركب ، واشرعوا الرماح ، فإذا حملوا عليكم ، فامهلوهم حتى اذا ركبوا أطراف الاسنة ، فثبوا إليهم وثبة الاسد ، فوالذي يرضى الصديق ، ويثيب عليه ، ويمقت الكذب ، ويجزي بالاحسان احسانا ، لقد سمعت ان المسلمين سيفتحونا كفرة كفرة ، وقضراً قضراً ، فلا يهولنكم جموعهم ولا عددهم ، فإنكم لو صدقتموهم الشد تطايروا تطاير أولاد الحجل » (١٦٣) (١٦٤) . وعظهم أبو سفيان فقال :

« يامعشر المسلمين ، انتم العرب وقد اصبحتم في دار المعجم ،

منقطعين على الأهل نائين عن أمير المؤمنين وأمداد المسلمين ، وقد والله اصبحتم بإزاء عدد كثير عدده ، شديد عليكم حنقه ، وقد وترتموهم في أنفسهم وبلادهم ونسائهم ، والله لا ينجيكم من هؤلاء القوم ، ولا يبلغ بكم رضوان الله غداً إلا بصديق اللقاء ، والصبر في المواطن المكروهة ، ألا وإنها سنة لازمة ، فامتنعوا بسيوفكم ، وتعاونوا ولتكن هي الحصون » (١٦٥) .

وحملت الروم في ذلك اليوم حملة منكرة ، فصبر لها المسلمون صبر الكرام ، وقاتلوا قتالاً شديداً ، وثبتوا ثباتاً حسناً ، وابتدر عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، وهو المقدم على يزيد والامير عليهم ، وهم يعظمونه لما سبق من شجاعته في الجاهلية ، وكان يوم اليموك قد مر له من العمر مائة وعشرون سنة الى أن همته الشجاعة ، فلما نظر الى قومه وقد انكشفوا صاح في قومه :

« يا آل يزيد ، تفرون من اعداء وتفزعون من شرب كاس الردى ، أنترضون لانفسكم بالعار والمذلة ، فما هذا الانزعاج من كلاب الاعلاج ، أما علمتم أن الله مطلع عليكم وعلى المجاهدين والصابرين ، فإذا نظر اليهم وقد لزم الصبر ثبتوا لقضائه أمدهم بصبره ، فإين تهربون من الجنة ، أرضيتم بالعار ودخول النار وغضب الجبار » (١٦٦) .

فلما سمعت يزيد كلام سيدهم عمرو بن معد يكرب رجعوا اليه وعطفوا عليه عطفة الابل على اولادها ، فاجتمعوا حوله وهم زهاء من خمسمائة فارس وراجل ، وشدوا على القوم شدة واحدة ، وحملت معهم حمير وحضرموت وخولان وحملوا حملة صعبة ، فازالوا الروم عن اماكنهم (١٦٧) .

ولما رأى خالد بن الوليد أن جموع الروم بدأت تتقهقر أمام ضربات المسلمين الموجهة ، شرع يحث المجاهدين للانقضاض على الاعداء ، والزد على كسرتهم ، فقال :

« يا أهل الاسلام والايمان ، وياحملة القرآن ، ويأصحاب محمد ﷺ) قد تبينت في الروم الكسرة العظيمة ، ولم يبق عند القوم من الجلد على القتال إلا ما رأيتم ، وقد كسر الله حدتهم ، فردوا على الكسرة ، وشدوا عليهم الكزة رحمكم الله ، فوالذي نفس خالد بيده ، إنني لأرجو أن يمنحكم الله اكثافهم » (١٦٨) . واستمرت معركة اليموك أربعة أيام على امتداد الارض والزمن ، شديدة عنيفة يعتور الجيشان فيها القتل والضرب والطعن . فقتل في يومها الرابع الذي يدعى يوم التعوير - لكثرة من اصيبت عينه فيه - اربعون الفا من الروم او يزيدون على ما ذكر المؤرخون (١٦٩) .

وانطلقت جيوش المسلمين بعد هذا الانتصار العظيم نحو

المدن العربية الاخرى لتردها الى الوطن الام ، ففتحت فحل والرقه واجنادين وبيت المقدس ودمشق وحمص وحماة وحلب (١٧٠) وبعد ذلك واصل المسلمون زحفهم الجهادي ففتحو مصر بقيادة عمرو بن العاص ، وخاضوا سلسلة من الوقائع العنيفة في بابلين وام دنين وعين شمس والكريون والاسكندرية (١٧١)

وتستمر طلائع الفتح الاسلامي في تقدّمها ، حتى تدخل شمال افريقية ، بعد معارك طويلة دامت اكثر من سبعين عاماً ، ابتداءً من فتح طرابلس سنة ٢ هـ بقيادة عمرو بن العاص (١٧٢) حتى تم فتح شمال افريقية بقيادة موسى بن نصير ، وفتح الاندلس بقيادة طارق بن زياد سنة ٩٢ هـ (١٧٣) . ومما تقدم يتبين لنا ان خطب الجهاد في فتوحات الجبهة الغربية كانت أقل من حيث العدد من مثيلاتها في فتوحات الجبهة الشرقية ، ولكن على الرغم من ذلك لم يصل إلينا من جملة خطب الفتوحات الاسلامية ما يتناسب و ضخامة وقائع هذه الفتوح ، ولعل سبب ذلك أن معظم ما قيل قد ضاع ، وذهبت به عوادي الزمن ؛ إذ لا يمكننا ان نتصور ان تحدث هذه الفتوح ، وأن تقع هذه الوقائع ، ولا يكون لها أثر في الخطابة (١٧٤)

المبحث الثالث

الخصائص الفنية لخطب الجهاد

تحدثنا في الصفحات السابقة عن الدور الجهادي للخطابة الاسلامية في غزوات الرسول (ﷺ) وفي حروب الردة ، وفي الفتوحات الاسلامية ، وأوضحنا كيف أنها استطاعت أن تثير حماس المسلمين وتشجعهم على الجهاد في سبيل الله . وبقي بعد هذا أن نقول : إنها امتازت بخصائص فنية مشتركة أسهمت بشكل واضح وفعال في التأثير على معنويات المجاهدين وهم يخوضون غمار المعارك ، فكانت تدفعهم هي الاخرى الى الاستبسال في القتال للظفر بإحدى الحسنين : إما الشهادة وإما النصر . ويمكن اجمال اهم هذه الخصائص بالاتي :

١ - الاستشهاد بالآيات القرآنية ، والاحاديث النبوية :

لقد كان الاستشهاد بالآيات القرآنية من ابرز مميزات خطب الجهاد في عصر صدر الاسلام ، ويرجع ذلك الى شدة تاثر الخطباء بالقرآن الكريم ، وحفظهم للكثير من آياته ، « فآخذوا من معانيه ، واقتبسوا الكثير من آياته ، وخاصة في المواقف التي تزيد المعنى وضوحاً ، وتضاعف من وقعه وبيانه ، فيكون تأثيره

في السامعين أقوى وأشد » (١٧٥) . ومن الامثلة على استشهادهم بالقرآن الكريم :

قوله تعالى : (لَمَقْتُ اللَّهَ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ) (١٧٦) في خطبة الرسول الكريم (ﷺ) يوم بدر (١٧٧) وقوله تعالى : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَأَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) (١٧٨) في خطبة أبي بكر (رضي الله عنه) بعد وفاة الرسول (ﷺ) . (١٧٩)

وقوله تعالى : (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) (١٨٠) في خطبة عمر (رضي الله عنه) يوم ندب الناس لقتال الفرس (١٨١) . وقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ) (١٨٢) في خطبة ابي بكر (رضي الله عنه) أيضاً يوم عقد العزم على توجيه الجيوش لفتح الشام (١٨٣) .

وقوله تعالى : (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) (١٨٤) في خطبة سعد بن ابي وقاص في يوم القادسية (١٨٥) .

وقوله تعالى : (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) (١٨٦) في خطبة سعد أيضاً يوم أرمات (١٨٧) .

وقوله تعالى : (وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا) في خطبة عمرو بن معد يكرب في وقعة جلولاء (١٨٨) .

وقوله تعالى : (وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) (١٨٩) في خطبة يزيد بن ابي سفيان في وقعة الجابية (١٩٠) وفي خطبة خالد بن الوليد في معركة اجنادين (١٩١) ، وفي خطبة عبدالله بن جعفر في غزوة المهدي (١٩٢) .

ومثلما استشهد الخطباء بالقرآن الكريم ، استشهدوا بالحديث النبوي الشريف ، مثل قوله ﷺ : (الْجَنَّةُ تَحْتَ ظِلَالِ الشَّيْوَفِ) الذي ورد في خطبة يزيد بن ابي سفيان المذكورة آنفاً ، وخطبة شرحبيل بن حسنة في غزوة بصرى (١٩٤) ، وخطبة عبدالله بن جعفر في معركة سوسة (١٩٥) وقوله (ﷺ) : (سَيَفْتَحُ عَلَى أُمَّتِي كَنُوزَ كَسْرَى وَقِصْرَ وَالتَّمَامَ عَلَى اللَّهِ) الذي ورد في خطبة سعد بن ابي وقاص في يوم كوثى بالعراق (١٩٦) .

٢ . الالفاظ والمعاني :

لقد جاءت الفاظ خطب الجهاد صافية نقية ، وسهلة عذبة ، وخالية من الغريب المستكره ، والساقط الرديء ، وتمتاز عباراتها بالجزالة والقوة والوضوح ، ويعود الفضل في ذلك الى

القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، اللذين أثرا فيها تأثيراً كبيراً ، فحظيت الخطابة منهما بالالفاظ والمصطلحات الآتية :
الحمد لله رب العالمين ، أشهد ، الله لا إله إلا هو ، رسول الله ، الجهاد في سبيل الله ، الحي ، القيوم ، إليه المصير ، المسلمون ، يغفر الله ، الرحمة ، المغفرة ، آمنا ، شهدنا ، الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها ، إحدى الحسينين ، الجنة ، الشهادة ، الاستشهاد في سبيل الله ، الشهيد ، الآخرة ، حزب الله ، الدعاء الى الله ، عباد الله الصالحين ، استغفر الله ، إن الله غفور رحيم ، أمير المؤمنين ، جبريل ، اطيعوا الله ، اطيعوا الرسول ، آمنوا ، الانصار ، المهاجرون ، الجبار ، الايمان ، الله مظهر دينه ، معز ناصره ، فلا تموتن الا وانتم مسلمون ، انصرو الله ينصركم ، أهل الاسلام^(٢٠٧) ، وغير ذلك من الالفاظ والمصطلحات التي زخرت بها خطب الجهاد . وحفلت خطب الجهاد أيضاً بالفاظ حماسية قوية كلها لها وقع كبير في نفوس المقاتلين مثل : قاتلوهم ، ثبتوا الطعان ، جاهدوا ، شتوا عليهم باسم الله ، صابروهم ، تترسوا ، الزموا الصبر ، احملوا عليهم^(٢٠٨) .

أما المعاني فكانت واضحة ودقيقة ، وفيها ابتكار وجدة ، واتساع وإحاطة وعمق وترتيب^(٢٠٩) وقد استمدت الخطابة هذه الصفات من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف .

نخلص من ذلك الى أن اختيار الخطباء للالفاظ الجزلة والمعاني المألوفة والعبارات الموسيقية لخطبهم ، كان له الأثر الكبير في تأجيح حماسة الجند ، ووقعه البليغ في نفوسهم ، مما دفعهم الى الاستبسال في مقارعة خصومهم ، فكان اثره بحق صنيع الغيث في التربة الكريمة^(٢١٠) .

٣ . الإيجاز والاطناب :

إن مسألة الإيجاز والاطناب في الخطابة الجهادية يحددها الظرف والمناسبة التي تقال فيها الخطابة ، فمن خلال دراستنا لهذا النوع من الخطب وجدنا أن الخطب التي كانت تقال في جموع المسلمين بعيداً عن ساحات القتال ، بعضها يمتاز بالإطناب ، إذ أن الوقت يسمح بإنشاء مثل هذه الخطب ، كخطبة الرسول (ﷺ) بالمدينة قبل وقعة بدر^(٢١١) ، وخطبة ابي بكر (رضي الله عنه) بالمدينة أيضاً بعد وفاة الرسول (ﷺ)^(٢١٢) . وبعضها الآخر يمتاز بالإيجاز ؛ إذ أن الوقت قصير وجموع المسلمين في حالة تهيؤ واستعداد للحركة كخطبة عمر (رضي الله عنه) يوم ندب الناس في المدينة لحرب الفرس ، وخطبة خالد بن الوليد عندما أمره ابو بكر (رضي الله عنه) بالتوجه الى العراق لقتال الفرس^(٢١٤) وخطبة عمر (رضي الله عنه) وخطبة المقداد بن عمرو ، وخطبة سعد بن

معاذ عند اجتماع الرسول (ﷺ) واصحابه ثوئين بدر^(٢١٥) . أما الخطب التي كانت تقال عند تهيؤ الخصمان استعداداً للمنازلة ، وفي أثناء احتدام القتال ، وبعد انتهاء المعركة ، فمعظمها كانت موجزة ومشتتلة على عبارات حماسية قوية ومؤثرة ، ولها ايقاع موسيقى يهز الاسماع ويشدها ، ومن الامثلة على ذلك : خطبة ثابت ابن الدحاح في أثناء القتال ببدر^(٢١٦) ، وخطبة ثابت بن قيس في ساعات الاشتباك ضد المرتدين باليمامة^(٢١٧) وخطبة المثنى بن حارثة الشيباني عندما وقف على الرايات في يوم البويب^(٢١٨) وخطبة خالد بن الوليد بعد أنتصاره على الفرس في وقعة الوجة^(٢١٩) ، وخطبة سعد بن ابي وقاص عندما تخلل الصفوف في يوم أرمات بالقادسية^(٢٢٠) ، وخطبة خالد بن الوليد أيضاً عندما رتب الصفوف في وقعة اجنادين^(٢٢١) ، وخطب الاشعث بن قيس وغالب بن عبد الله الليثي وأهل النجدات من جميع القبائل في ليلة الهير^(٢٢٢) وخطب أبو عبيدة الجراح وعمرو بن العاص وأبو سفيان وعمرو بن معد يكرب الزبيدي عند نشوب القتال بين المسلمين والروم في معركة اليرموك^(٢٢٣) على اننا وجدنا بعض الخطب قد امتازت بالطول ، مثل خطبة الرسول (ﷺ) عندما تهايا المسلمون لقتال المشركين في يوم أحد^(٢٢٤) وخطبة النعمان بن مقرن حين وقف على الرايات في وقعة نهاوند^(٢٢٥) .

٤ . الاستهلال والختام :

لقد أخبرنا الجاحظ أن أغلب الخطب الاسلامية كانت تبدأ بالحمد والثناء ، وأول من قام بذلك الرسول (ﷺ) فاصبح تقليداً عرفه المسلمون واتبعوه في زمنه وبعد وفاته ، واطلقوا على كل خطبة خالية من الحمد لله والصلاة على نبيه اسم « البتراء »^(٢٢٦) .

ولو تأملنا النظر فيما وصل إلينا من خطب الجهاد وجدنا أن أكثرها تبدأ بقولهم : احمدا الله ، يا رسول الله ، والله ، والذي أنزل عليه الكتاب ، يامعشر الانصار ، يا قوم ، إن الأرض ، إياكم ، يامعشر المسلمين ، يا ايها الناس ، ألا ، إني ، يامعشر بجيلة ، إن الله هو الحق ، يامعشر العرب ، إن المسلمين ، يامعشر كنده ، يامعشر معد ، اعلما ، إن انتصروا ، ايها المسلمون ، يا آل زبيد ، يا أهل الاسلام ، اين ، إن هذه البلاد ، ياعشيرته ، إن عدوكم ، يا هؤلاء . إن هذا المنزل ، إنا^(٢٢٧) ، يا آل هاشم ، يا آل مخزوم ، يا آل حمير ، يا آل أمية ، يا آل غسان ، يا آل لخم ، يا آل جذام ، يا آل طي ، يا آل هذيل ، يا آل ربيعة^(٢٢٨) .

ولعل الذي دفع الخطباء الى افتتاح خطبهم بهذه

الفواتح ، هو رغبتهم في الاختصار والدخول في الموضوع مباشرة من غير تقديم او الابتداء بالحمد والثناء ، إذ أن الجهاد في الظروف الحاسمة يستدعي الابتداء بتلك الفواتح بقصد إثارة الحماس وتنشيط العزائم ، ولذلك كان الخطباء اذكاء في اختيار هذه الابتداءات حتى يكون التأثير بها أقوى وأشد في نفوس المقاتلين . ولا يعني ذلك أنهم تركوا الاستهلال المتعارف عليه في خطبهم ، بل وجدت بعض الخطباء يبتدأ خطبته بعد حمد الله والثناء عليه : اما بعد ، ايها الناس ، قد علمتم ، وغيرها ، وبعضهم يبتدأ خطبته بقوله : الحمد لله ، والله أهله ، واشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اما بعد .^(٢٢٩)

وتفسير ذكر الحمد والثناء والشهادة والصلاة على رسول الله (ﷺ) ان هناك متسعاً من الوقت ، وأن الظروف تسمح باستخدام هذه الابتداءات ، أما ظروف القتال وانشغال المسلمين به فتبنيح للخطيب الدخول في الموضوع مباشرة من غير الاستهلال بالحمد والثناء .

أما خواتم الخطب فهي متنوعة وغير محددة ، ومن الامثلة على ذلك قوله : ويغفر الله لي وللمسلمين ، وأعد عدته ، حتى تبليغه ، فسر بنا على بركة الله ، ان كلاً لفيه الخير ، اني احب الله ورسوله ولا أفر يوم الزحف ، إن الله مظهركم وناصركم ، اما انتصار وإما استشهاد ، فاعدوا واستعدوا ، يا بني حنيفة ، وامضوا قدماً ، فإن الله قد جمعهم ، من أراد ثواب العاجل والاجل فليتكلمش ، عما أنتم عليه ، وهو يسرني لعامتكم ، اين عباد الله الصالحون ، ولها ان شاء الله ما بعدها ، قاتلوهم التماس احدى الحسنيين ، الشهادة والجنة والغنيمة والجنة ، والا فالآخرة ما أردتم ، وانصروا الله ينصركم ، ودخول النار وغضب الجبار .^(٢٣٠)

غير أن هناك بعض الخطب اختتمت بأي من الذكر الحكيم ، كخطبة ابي بكر (رضي الله عنه) يوم جمع المسلمين بعد وفاة الرسول (ﷺ)^(٢٣١) فقد اختتمها بقوله تعالى : (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)^(٢٣٢) وخطبة المثني بن حازمة الشيباني في معركة البويب ،^(٢٣٣) فقد اختتمها بقوله تعالى : (وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)^(٢٣٤) واختتم سعد بن ابي وقاص خطبته في وقعة الحيرة^(٢٣٥) بقوله تعالى : (رَبُّنَا أَفْرَغْ عَلَيْنَا صُبْرُنَا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ)^(٢٣٦) .

ونخلص الى القول إن الاختتام بأي الذكر الحكيم إنما كان يقصده الخطباء من أجل التأثير في نفوس المجاهدين .

٥ . السجع :

وإذا نظرنا في موضوع السجع وجدنا أن السمة الغالبة في

خطب المجاهدين في عصر صدر الاسلام ، هي ترك السجع ، وقد يقع عرضاً في خطبهم ، « من قبيل الطبع والفطرة لا من قبيل الصنعة والتكلف »^(٢٣٧) فلم يعد استخدامهم له الا قليلاً ، لانه من صناعة الكهات في الجاهلية ، وقد استخدمه الجاهليون في أغراض لا يحبها الاسلام ولا يقرها ،^(٢٣٨) لذلك استهجنه الرسول (ﷺ) وقال لمن استعمله في كلامه : « أسجعا كسجع الكهان »^(٢٣٩) وكذلك رده الخلفاء على ملتزميه ، فقال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لصحار العبدي : « أسجأع أنت أم مخبر »^(٢٤٠) وقال معاوية لعبدالله بن الزبير : « تعلمت أبا بكر السجاعة عند الكبر »^(٢٤١) .

وعلى هذا فإن الخطباء قد تخففوا في هذا العصر من سجع الكهان الذي كان يثقل خطب الجاهليين ، لكونه لا يتفق وروح الاسلام وتعاليمه السمحاء التي جاءت للقضاء على البدع الجاهلية ، وإذا ما وقع شيء من السجع في خطبهم ، فقد يضيف عليها رونقاً وزينة مستحبة ، وهذا النوع نراه في خطب الرسول (ﷺ) وخطب اصحابه (رضي الله عنه)^(٢٤٢) . ومن الامثلة على ذلك قوله ﷺ في خطبته يوم بدر الكبرى : « اللَّهُ عَظِيمٌ شَانُهُ ، يَأْمُرُ بِالْحَقِّ . وَيُحِبُّ الصِّدْقَ .. وَإِنَّ الصَّبْرَ فِي مَوَاطِنِ الْبَاسِ مِمَّا يَفْزِجُ اللَّهَ بِهِ الْهَمُّ ، وَيَنْجِي بِهِ مِنَ الْغَمِّ .. فَإِنْ وَعَدَهُ حَقٌّ وَقَوْلُهُ صَقٌّ .. إِلَيْهِ الْجَانَا ظَهْرُنَا ، وَبِهِ اعْتَصَمْنَا ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا »^(٢٤٣) . وقول ابي بكر (رضي الله عنه) في خطبته يوم ندب المسلمين لفتح بلاد الشام « وزادكم ايماناً وبقينا ونصركم نصرأ مبينا »^(٢٤٤) وقول عمر (رضي الله عنه) في خطبته التي شئع فيها سعد بن ابي وقاص الى القادسية : « فإِذَا الامارات ، فالحياء والسخاء ، والهنأ واللأين »^(٢٤٥) . وقول العلاء بن الحضرمي في خطبته يوم ندب المسلمين في البحرين لقتال المرتدين في دارين : « قد أراكم من آياته في الْبَرِّ لَتَعْتَبِرُوا فِيهَا فِي الْبَحْرِ » . وقول عمرو بن العاص في وقعة اليرموك : « سيفتحوها كِفْراً كِفْراً وَقَضْراً قَضْراً »^(٢٤٦) . وقول خالد بن الوليد في خطبته في موقعة اجنادين : « واياكم ان تولوا الادبار فيعقبكم ذلك دخول النار ، واقرنوا المناكب ، ومكنوا المضارب »^(٢٤٧) .

٦ . الصور البيانية والمحسنات اللغوية :

لقد حفلت خطب الجهاد بالعديد من الصور البيانية ، ويأتي استخدام الخطباء لها عن غير قصد أحياناً ، وقد برعوا في ذلك واجادوا ، وتمكنوا من توجيه عواطف المجاهدين من خلال تلك الصور المثيرة للخيال ، التي كان لها فعلها الكبير في تجلية المعاني التي طرعوها في خطبهم وتوضيحها ، وقد كانت معظم خطب الجهاد بسبب الحروب واشتداد المواقف ، أي أن الخطباء لم يتفوهوا بها الا بعد حالة من الانفعال الشديد

الذي يثير كوامن النفس، ويحرك الشعور، مما يؤدي الى اشتداد الخيال، فيأتي بصور قوية وصادقة، تُبهر المجاهدين وترغبهم على القتال^(٢٣٩) ففي يوم ارمات دافع بنو أسد عن بجيلة وعمن معها دفاعاً عظيماً، فخطب الاشعث بن قيس في قومه بني كنده يحرضهم على القتال، مبيناً وقفة بني أسد الشجاعة وقتالها المستميت في ذلك اليوم، وبأسلوب يعتمد التصوير فقال:

« يامعشر كُفْذَة، لله دُرُ بني أسد، أي فَرِي يَفْرُونَ^(٢٤٠)، وأَيُّ هَذِهِ يَهْزُونَ^(٢٤١) عن موقفهم اليوم! أغْنَى كُلُّ قوم ما يَلِيهم، وأنتم تنتظرون من يكفيكم البأس! أشْهَدُ ما أحسنتم أشْوَة قومكم العرب منذ اليوم، وإنهم ليَقْتُلُون ويقاتلون، وأنتم جئنا على الركب تنتظرون! »^(٢٤٢).

وقد برع في هذا التصوير أيضاً خالد بن الوليد في خطبته في معركة اليرموك التي وقف فيها يحرض المجاهدين على الاستبسال في القتال واحكام القبضة على الروم، مصوراً هزيمة الروم وانكسارهم، فقال:

« يا أهل الاسلام والايمان، ويا حاملة القرآن، ويا أصحاب محمد (ﷺ) قد تبينت في الكسرة العظيمة، ولم يبق عند القوم من الجلد على القتال الا مارأيتم، وقد كسر الله حديثهم، فزُدوا على الكسرة، وشدوا عليهم الكرة رحمكم الله، فو الذي نفس خالد بيده، إني لأرجو أن يمنحكم الله على اكتافهم^(٢٤٣). وعمد الى هذا الأسلوب أيضاً عمرو بن العاص في تصويره الكيفية التي سيتم بها فتح مدينة اليرموك، والحالة المأساوية التي سينتهي اليها جنود الروم في خطبته التي قال فيها: « .. لقد سمعت ان المسلمين سيفتحونها كَفْراً كَفْراً وَقَضْراً قَضْراً، فلا يهولنكم جموعهم ولاعددهم، فإنكم لو ضدقتم الشد تطايروا تطاير أولاد الخجل^(٢٤٤) ».

ويتبين من هذه الخطبة أن الصور التي استخدمها الخطباء المجاهدون في خطبهم كانت حسية مستمدة من الواقع المحسوس، ومفهومة لدى المستمعين. كما زخرت خطبهم أيضاً بالصور البيانية غير المتكلفة، والبرئية من العيوب، فكانت في غاية الجودة والحسن^(٢٤٥) فمن صور الكناية، نذكر ما قاله

خالد بن الوليد في خطبته في وقعة الدير: « .. وهذا العدو قَدْ رُخِفَ بِخَيْلِهِ .. وَكُونُوا مَعَنَ بَاحِ نَفْسِهِ لله عَزَّ وَجَلَّ^(٢٤٦) » ففي العبارة الاولى كناية عن تقدم جيش الروم نحو المسلمين، وفي العبارة الثانية كناية عن الاستعداد للمواجهة واخلاص النية لله عز وجل. وما قاله زيد بن الخطاب في خطبته باليمامة: « .. عضوا على أضراسكم أيها الناس واضربوا في عدوكم^(٢٤٧) » كناية عن التهيؤ والاستعداد بكل قوة لضرب المرتدين.

واستخدم الخطباء المجاهدون المحسنات اللفظية، ولكن استخدامهم لها كان قليلاً وبصورة فطرية من غير قصد او تكلف، فكان لها وقعها الجميل في خطبهم، وتأثيرها القوي في نفوس المجاهدين، ومن الامثلة على ذلك صورة الجناس الواضحة في خطبة سعد بن ابي وقاص في وقعة الحيرة: « .. وارموا الخيل على الخيل تناثروا جزيل النيل^(٢٤٨) » وهو جناس ناقص اختلف فيه الحرف.

ونرى الجناس الناقص واضحاً في خطبة خالد بن الوليد في اليمامة: « فمن أراد ثواب العاجل والاجل فَلْيَنْكَمْش^(٢٤٩) ». ومن صور الجناس الناقص في نوع الحرف نذكر قول عمرو بن معد يكرب الزبيدي في معركة اليرموك: « .. ارضيتم بالعار ودخل النار وغضب الجبار^(٢٥٠) ».

ومن امثلة الجناس الناقص أيضاً قول جرير بن عبدالله البجلي في خطبته يوم جلواء: « ... خطأ سَبِيحاً وعيشاً هَبِيحاً انكم الانجاد والامجاد^(٢٥١) ».

كما وردت صور من الطباق في بعض الخطب، نذكر منه ماورد في خطبة طليحة بن خويلد الاسدي في قومه يوم ارمات: « .. شَدُوا ولا تصدوا، وكُرُوا ولا تفزوا^(٢٥٢) ».

وجاء الطباق أيضاً في خطبة عقبة بن عامر في وقعة تبسه: « .. فإذا ثبت الامر ثبت الجيش وإذا انهزم الامر انهزم الجيش^(٢٥٣) ».

وطابق خالد بن الوليد بين الموت والحياة في أحد خطبه فقال: « .. أنيتكم بأقوام هم أحرض على الموت منكم على الحياة^(٢٥٤) ».

الهوامش

- (٣) البهان والتبيين: ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت عبدالسلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٨ م) ٢٨٧/١.
(٤) صبح الاعشى: أبو العباس اللقشندي (المطبعة الاميرية

- (١) انظر: الخطابة في عصرها الذهبي: احسان النص (دار المعارف بمصر ١٩٦٣) ٨.
(٢) انظر: الخطابة عند العرب: محمد الخضر حسين (المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٦ هـ) ١٣.

بالقاهرة ١٩١٣ (٢١٠/١ - ٢١١ .

(٥) انظر : في ادب الاسلام : محمد عثمان علي (دارالازاعي ط ١
١٩٨٤ م) ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٦) انظر : الخطابة في صدر الاسلام : د . محمد ظاهر درويش
(دار المعارف بمصر ١٩٦٥) ٥٧/١ .

(٧) انظر الاغانى : ابو الفرج الاصفهاني (ت عبدالستار احمد
فراج ، طبعة الثقافة بيروت ١٩٥٩) ٢١٦/١٦ ، ٢٢٢ .

(٨) انظر : الاغانى (ط الهيئة) ٦٩/٢٤ - ٧٠ .

(٩) البيان والتبيين ٣٤٨/١ .

(١٠) انظر : البيان والتبيين ١١٦/١ .

(١١) المصدر نفسه ٤٠٨/١ .

(١٢) انظر : العقد الفريد : ابن عديريه (مطبعة لجنة التاليف
والترجمة بالقاهرة ١٩٦٧ م) ١٢٨/٤ ، وصبح الاعشى ٢١١/١ -
٢١٢ .

(١٣) انظر : العقد الفريد ٣٠٧/٣ .

(١٤) انظر : مجمع الامثال : ابو الفضل الميداني (ت ابي الفضل ،
دار الجيل بيروت ط ٢ ١٩٨٧) ٦٣/١ .

(١٥) انظر : العقد الفريد ٨٣/٦ .

(١٦) انظر : المصدر نفسه ١١٠/٦ .

(١٧) انظر : السيرة الحلبية : علي بن برهان الدين الحلبي ، دار
المعرفة بيروت (د . ت) ٧/١ .

(١٨) البيان والتبيين ٤٣/١ ، ٣٠٨ ، ٣٦٥ .

(١٩) المصدر نفسه ٣١٢/١ .

(٢٠) الاشتقاق : ابو بكر بن دريد (منشورات مكتبة المثنى ببغداد
ط ٢ ١٩٧٩) ١٦٨ .

(٢١) البيان والتبيين ٣٦٥/١ .

(٢٢) المصدر نفسه ٢٣٨/١ .

(٢٣) الاغانى (طبعة دار الكتب) ٦٩/١٤ .

(٢٤) المصدر نفسه ٦٦/١٤ .

(٢٥) البيان والتبيين ٣٥١/١ .

(٢٦) الاغانى (ط دار الكتب) ١٨٧/٤ .

(٢٧) الطبري ٢٥١/٢ وما بعدها (ت ابي الفضل ط ٥ د . ت)

(٢٨) الاغانى (ط الهيئة) ٦٩/٢٤ .

(٢٩) انظر : الخطابة في عصرها الذهبي : احسان النص ٢٢ .

(٣٠) انظر : تاريخ الادب العربي - العصر الاسلامي : د . شوقي

ضيف (ط ٩ دار المعارف د . ت) ١٠٦ وما بعدها .

والخطابة اصولها وتاريخها في ازهى عصورها عند العرب : محمد

ابو زهرة (ط ١ مطبعة العلوم بالقاهرة ١٩٣٤) ٤٨ وما بعدها ،

والخطابة في عصرها الذهبي : احسان النص ٣٠ وما بعدها ، وفي

ادب الاسلام : محمد عثمان علي ٢٣٦ وما بعدها .

(٣١) البيان والتبيين ٦/٢ .

(٣٢) سورة الشورى / الآية ٣٧ .

(٣٣) انظر : الطبري ١١٥/٣ .

(٣٤) المصدر نفسه ٢٧٣/٣ .

(٣٥) المصدر نفسه ١١٥/٧ - ١١٧ .

(٣٦) المصدر نفسه ٢٧٢/٣ - ٢٧٣ .

(٣٧) انظر : الطبري ٣١٩/٢ .

(٣٨) سورة الحجر/الآية ٩٤ .

(٣٩) انظر : الطبري ٢٩٤/٢ .

(٤٠) انظر : الطبري ٦٠/٣ ، وسيرة ابن هشام (ت السقا وآخرون

ط ٢ الباب الحلبي) ٥٤/٤ .

(٤١) سيرة ابن هشام ٢٥٠/٤ ، والبيان والتبيين ٣١/٢ .

(٤٢) انظر : المغازي : محمد بن عمر الواقدي (ت . د . مارسدن ،

مطبعة جامعة اكسفورد ١٩٦٦) ٥٨ .

(٤٣) انظر : فتوح الشام : محمد بن عمر الواقدي (مطبعة

حجازي بالقاهرة د . ت) ٢/١ .

(٤٤) انظر : الطبري ٤٤٥/٣ .

(٤٥) انظر : البيان والتبيين ٥٣/٢ .

(٤٦) انظر : سيرة ابن هشام ٢٠٧/٤ ، والطبري ١١٤/٣ -

١١٥ .

(٤٧) انظر : العقد الفريد ١١٦/١ .

(٤٨) انظر : الطبري ٢٢٣/٣ ، ٢١٤/٤ ، وسيرة ابن هشام

٣١١/٤ ، والبيان والتبيين ١٣٨/٣ .

(٤٩) انظر : الامامة والسياسة : ابن قتيبة الدينوري ، وهو

المعروف بتاريخ الخلفاء ، تحقيق د . طه محمد الزيني ، الناشر

مؤسسة الحلبي وشركاه (د . ت) ١٢/١ - ١٣ .

(٥٠) انظر : الطبري ٥٢/٤ .

(٥١) انظر : البيان والتبيين ١١٧/١ .

(٥٢) انظر : الطبري ٤٥/٢ .

(٥٣) انظر : الطبري ٤٨٣/٣ .

(٥٤) المصدر نفسه ٤٦٥/٣ .

(٥٥) الْجُهْدُ وَالْجُهْدُ : تقول اجهد جُهدك ، وقيل الجهد المشقة ،

وَالْجُهْدُ : الطاقة . وجاهدوا العدو مجاهدة وجاهداً : قاتله وجاهد

في سبيل الله . ونية الجهاد محاربة الاعداء ، وهو المبالغة

واستفزاز مافي الوسع والطاقة ، من قول او فعل ، والمراد بالنية

اخلاص العمل لله وحده (جمهرة اللغة ٧١/٢ ، تهذيب اللغة

٣٧/٦ ، لسان العرب ١٠٧/٤ - ١٠٩) .

(٥٦) سورة الحج/ الآية ٧٨ .

- (٥٧) سورة المائدة / الآية ٣٥ .
- (٥٨) سورة الفرقان / الآية ٥٢ .
- (٥٩) سورة التوبة / الآية ٧٣ .
- (٦٠) سورة العنكبوت / الآية ٦ .
- (٦١) سورة الصف / الآية ١١ .
- (٦٢) سورة البقرة / الآية ١٩٣ .
- (٦٣) سورة محمد / الآية ٣١ .
- (٦٤) سورة الانفال / الآية ٦٠ .
- (٦٥) سورة العنكبوت / الآية ٦٩ .
- (٦٦) سورة الصف / الآية ٤ .
- (٦٧) سورة البقرة / الآية ٢٤٤ .
- (٦٨) سورة التوبة / الآية ٣٦ .
- (٦٩) سورة الحج / الآية ٣٩ ، ٤٠ .
- (٧٠) سورة التوبة / الآية ٤١ .
- (٧١) سورة البقرة / الآية ١٥٤ .
- (٧٢) سورة آل عمران / الآية ١٦٩ .
- (٧٣) صحيح مسلم (بشرح النووي ، دار احياء التراث العربي بيروت ط ٣ ١٩٨٤) ٣٤/١٣ .
- (٧٤) صحيح مسلم ٢٠/١٣ .
- (٧٥) صحيح سنن النسائي (طبعة المكتب الاسلامي في بيروت ١٩٨٨ م) ٦٦٦/٢ .
- (٧٦) انظر : الجهاد في الاسلام : محمد اسماعيل ابراهيم (ط ١ دار الثقافة العربية للطباعة ١٩٦٤ م) ٥٧ .
- (٧٧) سورة البقرة / الآية ٢٥٦ .
- (٧٨) سورة غافر / الآية ١٠ .
- (٧٩) المغازي : الواقدي (ت . د . مارسدن جونس ، مطبعة جامعة اكسفورد ١٩٦٦) ٥٨/١ .
- شرح نهج البلاغة : ابن ابي الحديد (تر محمد ابو الفضل طبعة البابي الحلبي ١٩٦٢) ١٢٠/١٤ - ١٢١ .
- (٨٠) سيرة ابن هشام ، ٦١٤/١ - ٦١٥ ، الطبري ٤٣٤/٢ ، الاغانى ١٧٦/٤ .
- (٨١) سورة المائدة / الآية ٢٤ .
- (٨٢) سيرة ابن هشام ٦١٥/١ ، الطبري ٤٣٤/٢ .
- (٨٣) استعراض البحر : آتاه من جانبه .
- (٨٤) سيرة بن هشام ٦١٥/١ ، الطبري ٤٣٥/٢ ، الاغانى ١٧٨/٤ .
- (٨٥) المصادر السابقة : الصفحات نفسها .
- (٨٦) سيرة ابن هشام ٦٢٧/١ ، الطبري ٤٤٨/٢ .
- (٨٧) بكسر الخاء واسكانها ؛ كلمة تقال للإعجاب .
- (٨٨) سيرة ابن هشام ٦٢٧/١ ، الطبري ٤٤٨/٢ .
- (٨٩) الطبري ٤٤٨/٢ .
- (٩٠) انظر : سيرة ابن هشام ٦٤٦/١ ، والطبري ٤٤٩/٢ .
- (٩١) انظر : سيرة ابن هشام ٦٠/٢ ، والطبري ٥٠٢/٢ .
- (٩٢) انظر : مغازي الواقدي ٢١١/١ .
- (٩٣) مغازي الواقدي ٢١١/١ .
- (٩٤) المصدر نفسه ٢١١/١ - ٢١٢ .
- (٩٥) انظر : المصدر نفسه ٢١١/١ - ٢١٣ .
- (٩٦) انظر : المصدر نفسه ٢١٣/١ .
- (٩٧) المصدر نفسه ٢٢١/١ - ٢٢٢ .
- (٩٨) مغازي الواقدي ٢٨١/١ .
- (٩٩) انظر : المصدر نفسه ٢٨١/١ .
- (٩٩) مغازي الواقدي ٧٦٠/٢ .
- (١٠٠) سورة آل عمران / الآية ١٤٤ .
- (١٠١) سورة آل عمران / الآية ١٠٣ .
- (١٠٢) سورة النور / الآية ٥٥ .
- (١٠٣) البداية والنهاية : ابن كثير (طبعة السعادة بمصر د . ت) ٣١٢/٦ .
- (١٠٤) انظر : الخطابة في صدر الاسلام : د . محمد طاهر درويش ٢٤٣ .
- (١٠٥) كافرة : مظلمة .
- (١٠٦) الطبري ٢٤٥/٣ ، شرح نهج البلاغة ١٥٣/١٧ ، البداية والنهاية ٣١٢/٦ - ٣١٣ .
- (١٠٧) انظر : الطبري ٢٤٤/٣ وما بعدها .
- (١٠٨) الاستيعاب في معرفة الاصحاب : ابن عبد البر ، ت البجاوي ، طبع مصر ١٩٦٠ ، ٢١٥/١ .
- (١٠٩) انظر : البداية والنهاية ٣٢٤/٦ .
- (١١٠) الطبري ٢٩١/٣ .
- (١١١) الطبري ٢٩١/٣ ، البداية والنهاية ٣٢٤/٦ .
- (١١٢) الطبري ٢٩١/٣ .
- (١١٣) الطبري ٣١٠/٣ - ٣١١ .
- (١١٤) انظر : الطبري ٣١١/٣ ، البداية والنهاية ٣٢٩/٦ .
- (١١٥) سورة التوبة / الآية ٤١ .
- (١١٦) انظر : البطولة في الشعر العربي : د . شوقي ضيف (دار المعارف بمصر ١٩٧٠) ٤٣ - ٤٥ .
- (١١٧) انظر : الخطابة في عصر صدر الاسلام : د . محمد طاهر درويش ١٥١ .
- (١١٨) فتوح الشام : محمد بن عبدالله الازدي (تحقيق عبدالمنعم عامر ، القاهرة ١٩٣٠) ٥٦ ، فُلَيْتَكْمِش : فُلَيْتَنْعِش .

- (١١٩) الرفغ : مجتمع التراب .
- (١٢٠) الطبري : ٣٥٤/٣ .
- (١٢١) انظر : فتوح الشام للأزدي ٦٨ .
- (١٢٢) انظر : الطبري ٤١٤/٣ .
- (١٢٣) سورة التوبة : الآية ٣٣ .
- (١٢٤) الطبري ٤٤٥/٣ .
- (١٢٥) الطبري ٤٤٥/٣ .
- (١٢٦) انظر : الطبري ٤٤٤/٣ - ٤٤٥ .
- (١٢٧) الطبري ٤٦٥/٣ .
- (١٢٨) المستبسل : رجل من المسلمين فز من الزحف يوم الجسر وقد عقد العزم على الاستبسال في المعركة المقبلة (البويب) .
- (١٢٩) سورة المزمل/ الآية ٢٠ .
- (١٣٠) الطبري ٤٦٥/٣ .
- (١٣١) الطبري ٤٦٩/٣ .
- (١٣٢) انظر : الطبري ٤٧٤/٣ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٧ .
- (١٣٣) سورة الانبياء / الآية ١٠٥ .
- (١٣٤) الطبري ٥٣١/٣ - ٥٣٢ .
- (١٣٥) انظر : شعر الفتوح الاسلامية في صدر الاسلام : النعمان عبدالمتعال القاضي (الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٥ م) ١٣٢ .
- (١٣٦) سورة فاطر/ الآية ١٠ .
- (١٣٧) فتوح الاسلام لبلاد العجم وخراسان : محمد بن عمر الواقدي (المطبعة المحروسة بمصر ١٨٩٦) ٢٣ - ٢٤ .
- (١٣٨) انظر : الطبري ٥٣٢/٣ - ٥٣٥ ، ٥٣٨ - ٥٣٩ .
- (١٣٩) الطبري ٥٥٤/٣ .
- (١٤٠) المصدر نفسه ٥٦٠/٣ .
- (١٤١) انظر : المصدر نفسه والصفحة نفسها .
- (١٤٢) انظر : المصدر نفسه ٥٦٣/٣ - ٥٦٦ .
- (١٤٣) انظر : المصدر نفسه ٩/٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، وفتوح الاسلام للواقدي ٦٢ - ٤ ، وفتوح ابن اعثم ٢٧٣/١ - ٢٧٦ (طبعة دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد الركن ١٩٦٨ م) .
- (١٤٤) أخطرتهم وأخطروا : تراهنتم وتراهنوا وتسابقوا .
- (١٤٥) الزئفة : المتاع .
- (١٤٦) الطبري ١٣١/١ - ١٣٢ .
- (١٤٧) انظر : البطولة في الشعر العربي ٥٢ ، ٥٧ .
- (١٤٨) سورة المائدة/ الآية ٣ .
- (١٤٩) سورة النساء/ الآية ٥٩ .
- (١٥٠) فتوح الشام للواقدي ٢/١ .
- (١٥١) انظر : فتوح الشام للواقدي ٢/١ .
- (١٥٢) سورة البقرة / الآية ٢٤٩ .
- (١٥٣) صحيح مسلم ٤٧/١٢ .
- (١٥٤) فتوح الشام للواقدي ٥/١ .
- (١٥٥) انظر : المصدر نفسه ٥/١ .
- (١٥٦) صحيح مسلم ٤٧/١٢ .
- (١٥٧) سورة آل عمران / الآية ١٠٢ .
- (١٥٨) فتوح الشام للواقدي ١٥/١ .
- (١٥٩) انظر : المصدر نفسه ١٦/١ وما بعدها .
- (١٦٠) انظر : المصدر نفسه ١٧/٢ وما بعدها .
- (١٦١) انظر : المصدر نفسه ٩٦/١ وما بعدها .
- (١٦٢) المصدر نفسه ١٢٥/١ .
- (١٦٣) الخجل : صغار الإبل وأولادها (اللسان ١٤٣/١١ مادة حجل)
- (١٦٤) البداية والنهاية ٩/٧ .
- (١٦٥) المصدر نفسه والصفحة نفسها .
- (١٦٦) فتوح الشام للواقدي ١٢٧/١ .
- (١٦٧) انظر : فتوح الشام للواقدي ١٢٧/١ .
- (١٦٨) المصدر نفسه ١٢٨/١ .
- (١٦٩) انظر : المصدر نفسه ١٣٥/١ - ١٣٨ .
- (١٧٠) انظر : المصدر نفسه ١٣٨/١ وما بعدها .
- (١٧١) انظر : المصدر نفسه ٣٠/٢ وما بعدها ، والطبري ١٠٤/٤ وما بعدها .
- (١٧٢) انظر : فتوح مصر وأخبارها : أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالحكم (طبع في مدينة ليدن ١٩٢٠ ، وأعادت طبعة بالافسيت مكتبة المثنى ببغداد) ١٧١ .
- (١٧٣) انظر : الطبري ٤٦٨/٦ .
- (١٧٤) انظر : شعر الفتوح الاسلامية ١٦٥ .
- (١٧٥) الفروسية في أدب القرن الاول الهجري : عبادة حرز حبيب (رسالة ماجستير غير منشورة قدمت الى كلية الاداب بجامعة بغداد ١٩٨٣ م) ٣٦٦ .
- (١٧٦) سورة غافر/ الآية ١٠ .
- (١٧٧) انظر : الخطبة في المبحث الاول .
- (١٧٨) سورة آل عمران / الآية ١٤٤ .
- (١٧٩) انظر : الخطبة في المبحث الاول .
- (١٨٠) سورة التوبة / الآية ٣٣ .
- (١٨١) انظر : الخطبة في المبحث الثاني .
- (١٨٢) سورة النساء / الآية ٥٩ .
- (١٨٣) انظر : الخطبة في المبحث الثاني .

- (١٨٤) سورة الانبياء/ الآية ١٠٥ .
- (١٨٥) انظر : الخطبة في المبحث الثاني .
- (١٨٦) سورة فاطر/ الآية ١٠ .
- (١٨٧) انظر : الخطبة في المبحث الثاني .
- (١٨٨) سورة آل عمران /الآية ١٠٣ .
- (١٨٩) انظر : الخطبة في المبحث الثاني .
- (١٩٠) سورة البقرة/ الآية ٢٤٩ .
- (١٩١) انظر : فتوح الشام للواقدي ٥/١ .
- (١٩٢) انظر : المصدر نفسه ٢٧/١ .
- (١٩٣) انظر : فتوح افريقية لابي عبدالله محمد بن عمر الواقدي ، مطبعة المنار بتونس ١٩٦٦ م ١٢/١ .
- (١٩٤) انظر : الخطبة في فتوح الاسلام للواقدي ٤١ ، والحديث في مسند ابن حنبل (طبعة قرطبة) ٢١٠/١ .
- (١٩٥) انظر : فتوح افريقية ١٠١ .
- (١٩٦) انظر : الخطبة في المبحث الثاني .
- (١٩٧) انظر : الخطبة التي تم الاستشهاد بها في هذا البحث .
- (١٩٨) انظر : الخطبة التي تم الاستشهاد بها في هذا البحث .
- (١٩٩) انظر : الخطبة التي تم الاستشهاد بها في هذا البحث .
- (٢٠٠) انظر : البيان والتبيين ٨٣/١ ، والفروسية في ادب القرن الاول الهجري ٣٦٠ .
- (٢٠١) انظر : الخطبة في البحث الاول .
- (٢٠٢) انظر : الخطبة في المبحث الاول .
- (٢٠٣) انظر : الخطبة في المبحث الثاني .
- (٢٠٤) انظر : الخطبة في المبحث الثاني .
- (٢٠٥) انظر : هذه الخطبة في المبحث الاول .
- (٢٠٦) انظر : الخطبة في البحث الاول .
- (٢٠٧) انظر : الخطبة في المبحث الاول .
- (٢٠٨) انظر : الخطبة في المبحث الثاني .
- (٢٠٩) انظر : الخطبة في المبحث الثاني .
- (٢١٠) انظر : الخطبة في المبحث الثاني .
- (٢١١) انظر : فتوح الشام للواقدي ٢٧/١ .
- (٢١٢) انظر : الطبري ٥٦٣/٣ - ٥٦٦ .
- (٢١٣) انظر : فتوح الشام للواقدي ١٢٥/٢ والبداية والنهاية ٩/٧ .
- (٢١٤) انظر : الخطبة في المبحث الاول .
- (٢١٥) انظر : الخطبة في المبحث الثاني .
- (٢١٦) البيان والتبيين ٦/٢ .
- (٢١٧) انظر : الخطبة التي تم الاستشهاد بها في هذا المبحث .
- (٢١٨) انظر : خطبة عقبة بن عامر في غزوة تبسه في فتوح افريقية للواقدي ص ١٠٩ .
- (٢١٩) انظر : الخطبة التي تم الاستشهاد بها في هذا البحث .
- (٢٢٠) انظر : الخطبة التي تم الاستشهاد بها في هذا البحث .
- (٢٢١) انظر : الخطبة في المبحث الاول .
- (٢٢٢) سورة النور/ الآية ٥٥ .
- (٢٢٣) انظر : الخطبة في المبحث الثاني .
- (٢٢٤) سورة المزمل/ الآية ٢٠ .
- (٢٢٥) انظر : فتوح الاسلام للواقدي ٢٠ .
- (٢٢٦) سورة الاعراف/الآية ١٢٦ .
- (٢٢٧) النثر الفني واثر الجاحظ فيه : عبدالحكيم بلبع (طبع مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٢ م) ١١٨ .
- (٢٢٨) انظر : الخطابة في صدر الاسلام : د . محمد طاهر درويش ٤٥٧/١ ، والفروسية في أدب القرن الاول الهجري ٣٦٠ .
- (٢٢٩) كتاب الصناعتين : ابو هلال العسكري (ت علي الجاوي وابي الفضل ابراهيم ، طبعة البابي الحلبي بمصر ١٩٧١) ٢٦٧ .
- (٢٣٠) الطبري (ط ٤ ت ابي الفضل د . ت) ١٨٢/٤ .
- (١٣١) البيان والتبيين ٣٠١/١ .
- (٢٣٢) انظر : الخطابة في صدر الاسلام : د . محمد طاهر درويش ٤٢٧/١ .
- (٢٣٣) انظر : الخطبة في المبحث الاول .
- (٢٣٤) انظر : الخطبة في المبحث الثاني .
- (٢٣٥) الطبري ٤٨٥/٣ .
- (٢٣٦) انظر : الخطبة في المبحث الاول .
- (٢٣٧) انظر : الخطبة في المبحث الثاني .
- (٢٣٨) فتوح الشام للواقدي ٣١/١ .
- (٢٣٩) انظر : الفروسية في أدب القرن الاول الهجري ٣٦٢ .
- (٢٤٠) الفري : الامر العظيم ، ويقال فلان يفري اذا كان ياتي بالمعجب في عمله .
- (٢٤١) الهذ : القطع .
- (٢٤٢) الطبري ٥٣٩/٣ .
- (٢٤٣) فتوح الشام للواقدي ١٢٨/١ .
- (٢٤٤) البداية والنهاية ٩/٧ والخجل : صغار الإبل وأولادها .
- (٢٤٥) انظر : الفروسية في ادب القرن الاول الهجري ٣٦٣ .
- ٣٦٤ .
- (٢٤٦) انظر : فتوح الشام ١٨/١ .
- (٢٤٧) الطبري ٢٩١/٣ .
- (٢٤٨) فتوح الاسلام للواقدي ٢٠ .
- (٢٤٩) فتوح الشام للازدى ٥٦ .
- (٢٥٠) فتوح الشام للواقدي ١٢٧/١ .

(٢٥٣) فتوح افريقية ١٠٩ .
(٢٥٤) الطبري ٣/٣٤٤ .

(٢٥١) فتوح الشام للواقدي ٦٢ ، والفتوح لابن اعثم ٢٧٣/١ .
(٢٥٢) الطبري ٣/٥٣٩ .

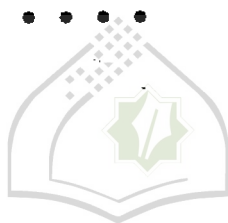
مصادر البحث ومراجعته

- ١٤- الخطابة أصولها وتاريخها في أزهي عصورها عند العرب :
محمد أبو زهرة ، مطبعة العلوم بالقاهرة ط ١ ١٩٣٤ م .
- ١٥- الخطابة عند العرب : محمد الخضر حسين ، المطبعة
السلفية بالقاهرة ١٣٤٦ هـ .
- ١٦- الخطابة في صدر الاسلام : د . محمد طاهر درويش ، دار
المعارف بمصر ١٩٦٥ م .
- ١٧- الخطابة في عصرها الذهبي ، احسان النص ، دار المعارف
بمصر ١٩٦٣ م .
- ١٨- السيرة الحلبية في سيرة الامين المامون انسان العيون : علي بن
برهان الدين الحلبي ، دار المعرفة بيروت (د . ت) .
- ١٩- السيرة النبوية : ابن هشام ، أبو محمد عبد الملك بن هشام
(٢١٨ هـ) تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، ط ٢ البابي الحلبي
(د . ت) .
- ٢٠- شرح نهج البلاغة : ابن ابي الحديد ، عبد الحميد هبة الله
المدايني (٦٥٥ هـ) تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، طبعة
البابي الحلبي ١٩٦٢ م .
- ٢١- شعر الفتوح الاسلامية في صدر الاسلام : النعمان عبد المتعال
القاضي ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٥ م .
- ٢٢- صبح الاعشى : القلقشندي ، ابو العباس احمد بن علي
(٨٢١ هـ) المطبعة الاميرية القاهرية ١٩١٣ .
- ٢٣- صحيح سنن النسائي : ابو عبد الرحمن بن شعيب (٣٠٣ هـ)
صحاح احاديثه محمد ناصر الدين ، طبع المكتب الاسلامي ، ط ١
بيروت ١٩٨٨ م .
- ٢٤- صحاح مسلم بشرح النووي : أبو الحسن مسلم بن الحجاج
(٢٦١ هـ) دار احياء التراث العربي ط ٣ بيروت ١٩٨٤ م .
- ٢٥- الصناعتين : ابو هلال العسكري الحسن بن عبد الله
(٣٩٥ هـ) تحقيق علي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل
ابراهيم ، طبعة البابي الحلبي ، مصر ١٩٧١ م .
- ٢٦- العقد الفريد : ابن عبد ربه ، احمد بن محمد الاندلسي ،
تحقيق احمد امين وآخرون ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة ،
القاهرة ١٩٦٧ م .
- ٢٧- الفتوح ، ابن اعثم الكوفي (٣١٤ هـ) مطبعة دائرة المعارف
العثمانية ، الهند ١٩٦٨ م .

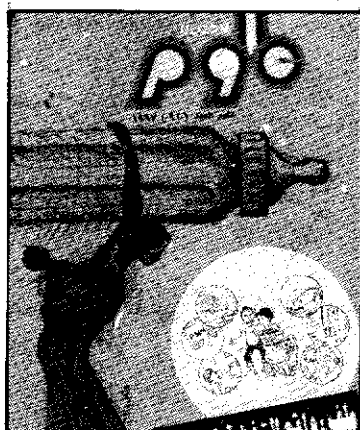
- ١- القرآن الكريم
- ٢- الاستيعاب في معرفة الاصحاب : ابن عبد البر ، أبو عمر يوسف
بن عبدالله (٤٦٣ هـ) تحقيق علي محمد البجاوي ، مطبعة
نهضة مصر ، القاهرة ١٩٦٠ م .
- ٣- الاشتقاق : ابن دريد ، ابو بكر محمد بن الحسن (٣٢١ هـ)
تحقيق عبدالسلام هارون ، ط ٢ منشورات مكتبة المثنى ، بغداد
١٩٧٩ م .
- ٤- الاغانى : الاصفهاني ، ابو الفرج علي بن الحسين (٣٥٦ هـ)
طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٧ ، وطبعة الهيئة ١٩٧٤ ، ونسخة
اخرى بتحقيق عبدالستار احمد فراج ، طبعة دار الثقافة بيروت
١٩٥٩ م .
- ٥- الامامة والسياسة (تاريخ الخلفاء) : ابن قتيبة الدينوري
(٢٧٦ هـ) تحقيق د . طه محمد الزيني ، الناشر مؤسسة البابي
الجلي وشركاه (د . ت) .
- ٦- البداية والنهاية : ابن كثير عماد الدين أبو الفداء الدمشقي
(٧٧٤ هـ) طبعة السعادة بمصر (د . ت) .
- ٧- البطولة في الشعر العربي : د . شوقي ضيف ، دار المعارف
بمصر (د . ت) .
- ٨- البيان والتبيين : الجاحظ ابو عثمان عمرو بن بحر (٢٥٥ هـ)
تحقيق عبدالسلام هارون ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر
١٩٤٨ م .
- ٩- تاريخ الادب العربي - العصر الاسلامي : د . شوقي ضيف ، دار
المعارف بمصر ط ٩ (د . ت) .
- ١٠- تاريخ الرسل والملوك : الطبري ابو جعفر محمد بن جرير
(ت . ٣١٠ هـ) تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ط ٥ دار
المعارف بمصر (ت . د) .
- ١١- تهذيب اللغة : الازهري ، ابو منصور محمد بن احمد
(٣٧٠ هـ) تحقيق عبدالسلام هارون ، الدار المصرية ١٩٦٥ م .
- ١٢- جوهرة اللغة : ابن دريد ، ابو بكر محمد بن الحسن
(٣٢١ هـ) مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، (حيدر آباد
الدكن) ، ١٣٤٥ هـ .
- ١٣- الجهاد في الاسلام : محمد اسماعيل ابراهيم ط ١ دار الثقافة
العربية للطباعة ١٩٦٤ م .

٣٥- لسان العرب : ابن منظور ، ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (٧١١ هـ) دار صادر بيروت (د . ت) .
 ٣٦- مجمع الامثال : الميداني ، ابو الفضل احمد بن محمد (٥١٨ هـ) دار الحيل بيروت ط ٢ ١٩٨٧ م .
 ٣٧- مسند احمد بن حنبل : احمد بن محمد الامام (٢٧٦ هـ) طبع مؤسسة قرطبة - الاندلس (د . ت) .
 ٣٨- المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي الشريف : لفي من المشرقين ، دار الدعوة استنبول ١٩٨٦ .
 ٣٩- المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم : محمد فؤاد عبدالباقي ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٣٦٤ م .
 ٤٠- المغازي : ابو عبدالله محمد بن عمر الواقدي (٢٠٧ هـ) تحقيق د . مارسون ، اكسفورد ١٩٦٦ م .
 ٤١- النثر الفني و اثر الجاحظ فيه : عبدالحكيم بليغ ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٢ م .

٢٨- فتوح الاسلام لبلاد العجم وخراسان : ابو عبدالله محمد بن عمر الواقدي (٢٠٧ هـ) المطبعة المحروسة بمصر ١٨٩٦ .
 ٢٩- فتوح افريقية : ابو عبدالله محمد بن عمر الواقدي (٢٠٧ هـ) مطبعة المنار تونس ١٩٦٦ م .
 ٣٠- فتوح الشام : الأزدي محمد بن عبدالله (١٦٥ هـ) تحقيق عبدالمنعم عامر ، مطبعة سجل العرب ، القاهرة ١٩٣٠ م .
 ٣١- فتوح الشام : ابو عبدالله محمد بن عمر الواقدي (٢٠٧ هـ) مطبعة حجازي بالقاهرة (د . ت) .
 ٣٢- فتوح مصر و اخبارها : ابو القاسم عبدالرحمن الحكم (٢٥٧ هـ) ليدن ١٩٢٠ ، مكتبة المثنى بغداد .
 ٣٣- الفروسية في ادب القرن الاول الهجري : عبادة حرز حبيب ، رسالة ماجستير غير منشورة في آداب بغداد ١٩٨٣ م .
 ٣٤- في ادب الاسلام : محمد عثمان علي ، دار الازاعي ط ١ ١٩٨٤ م .



صدر حديثاً عن دار الشؤون الثقافية العامة



لغة الشعر عند ابي تمام

د. نعمة رحيم المزراوي

كلية التربية (ابن رشد) - جامعة بغداد

بمن تقدمه ، وان بشاراً سلك طريقاً لم يسلكه احد فانفرد به ، وأحسن فيه » .^(٥)

لقد اختلفت نظرة بشار الى الشعر ، فحين سئل : « بم فقت اهل عموك ، وسبقت اهل عموك ، قال : لاني لم أقبل كل ما تورده علي قريحتي ، وينا جيني به طبعي ، وبيعته فكري ، ولا والله ماملك قيادي الاعجاب بشيء مما آتي به » .^(٦) وفي هذا القول « ما يشير الى ان الشعر في رأي بشار فن ، فلا يكفي ان يعبر الشاعر طبيعياً ، بل المهم هو كيفية تعبيره ، فالطبع بذاته لا يتضمن قيمة شعرية بالضرورة وانما يجب اخراجه فنياً ، وفي هذا القول ما يشير ايضاً الى ان بشاراً يرى ان الشعر بحث مستمر ، ومن هنا لا يعجب الشاعر بما انجزه ، ذلك انه مأخوذ بما لم ينجزه بعد » .^(٧)

ولم يكن ابو تمام ليختلف عن بشار في نظره الى الشعر ، فقد كان شاعراً جانب (الطبع) واعتمد على (الصنعة) في شعره ، اذ كان يعتقد ان الشعر فن ، وان الفن لا يواتي صاحبه اذا ارسل نفسه على سجيته ، واخذ ما يطفو على سطح خاطره ، بل لابد له لكي يكون الفن فناً ان يبذل جهداً ، وان يشقى شقاءً ما ، حتى يستوي له الفن ، ويواتيه منه ما يرضيه .^(٨)

وكما كان بشار غرضاً لسهام اللغويين ومن تابعهم من النقاد ، فلم يثنه ذلك عن المضي في طريق التجديد ، كذلك لقي جديد ابي تمام إعراضاً عنه ، وطعناً عليه ، نقد حار اللغويين والنقاد المحافظون في شعره ، فلم يقبلوا عليه ، ولم يسيغوه ، وما سبب ذلك الا لان اللغويين الفوا شعر القدماء ، فذلكت لهم سبله ، ووضحت امامهم معامله ، اما شعر ابي تمام فقد كان جديداً عليهم ، وكانت هذه الجودة سبب حيرتهم فيه ، واعراضهم عنه . وقد تنبه الصولي لذلك ، فقال محللاً اسباب اعراض اللغويين عن الشعر الجديد وشعر ابي تمام خاصة : « أما ما حكى عن بعض العلماء في اجتناب شعره - اي ابي تمام - وعيبه ، ولا اسمي منهم احداً لصيانتي لاهل العلم جميعاً ، وابقائي عليهم ، وحياطتي لهم ، فلا تنكر ان يقع ذلك منهم .

التمهيد

ابو تمام والجديد :

لم يكن ابو تمام اول من اتجه بالشعر العربي وجهة جديدة ، فقد سبقه الى هذا شعراء ، ابرزهم بشار بن برد ومسلم بن الوليد اللذان ظهر في شعرهما مالم يعهد النقاد ، واللغويون منهم بوجه خاص ، من سمات في اللفظة المفردة والجملة . فاما بشار فقد اراد ان يفتح للشعراء باب التصرف في اللغة فاستحدث صيغاً ، وابتكر مشتقات لم ترد في كلام العرب ، فانكرها اللغويون عليه ، وعدوها من اخطائه . قال بشار :

والآن اقصر عن سمية باطلي وأشار بالوجل على فحش
وقال :

على الغزلى مني السلام فريما لهوت بها في ظل مخضرة زهر
فطعن الاخفش في هذين البيتين وقال : « لم يسمع من
الوجل والغزل (فحش) ، وانما قاسهما بشار ، وليس هذا مما
يقاس ، وانما يعمل فيه بالسمع » .^(٩)

واما مسلم بن الوليد فهو « اول من حاول ان يجعل من
الشعر ابداعاً جمالياً في الالفاظ » .^(١٠) وقد قال عنه ابن قتيبة :
« اول من الطف في المعاني ورقق في القول » .^(١١) فالناظر في شعر
بشار ومسلم بن الوليد واجه فيهما ملامح جديدة تشير الى ان
الشعر العربي بدأ يدخل في عهد جديد ، فارق فيه ما عرف من
قيم تعبيرية ظلت متوارثة عدة قرون . وقد اقر النقاد لهذين
الشاعرين بأنهما رائدان لما صار يعرف في القرن الثالث بالشعر
المحدث . فبشار قيل عنه : إنه « استاذ المحدثين من بحره
اغترفوا ، واثره اقتفوا » .^(١٢)

والذي يدلنا على ان بشاراً شق للشعر العربي طريقاً
جديدة ، هو ان الاصمعي فضله على مروان بن ابي حفصة « لان
مروان اخذ بمسالك الاوائل ، سلك طريقاً كثر سلاكه فلم يلحق

لان اشعار الاوائل قد نزلت لهم ، وكثرت لها روايتهم ، ووجدوا أئمة قد ماشوها لهم ، وراضوا معانيها ، فهم يقرؤونها سالكين سبيل غيرهم في تفاسيرها ، واستجادة جيدها ، وعيب رديتها ، والفاظ القدماء وإن تفاضلت فانها تتشابه ، وبعضها آخذ برقاب بعض ، فيستدلون بما عرفوه منها على ما انكروه ، ويقوون على صعبها بما نلوه ، ولم يجدوا في شعر المحدثين في عهد بشار أئمة كائمتهم ولا رواة كرواتهم ، الذين تجتمع فيه شرائطهم ، ولم يعرفوا ماكان يضبطه ويقوم به ، وقصروا فيه فجهلوه وعابوه « (١٧) »

ولكن شعر ابي تمام لم يعدم في القرن الثالث الهجري بعض اللغويين الذين تفاوتت احكامهم فيه بين الاستحسان والاستهجان ، من هؤلاء اللغويين التوزي الذي سئل عن شعر ابي تمام فقال : « فيه ما استحسنته وفيه ما لا اعرفه ولم اسمع بمثله » (١٨) . ومنهم ايضاً ابو حاتم السجستاني الذي قال عنه الصولي : « أنشد ابو حاتم شعراً لابي تمام فاستحسن بعضه واستقبح بعضاً » (١٩) .

وهناك لغويون قبلوا شعر ابي تمام ، واذنوا له في دخول كتبهم ومصنفاتهم ، ومن هؤلاء المبرد الذي عده ابن سنان الخفاجي من المتسامحين الذين قبلوا الشعر الجديد عامة ، ولم يزوا تفضيل القديم عليه (٢٠) وما كتابه (الروضة) إلا دليل على تسامح المبرد ، فقد قصره على شعر المحدثين (٢١) .

ثم رزق الشعر الجديد عامة وشعر ابي تمام خاصة في القرن الثالث الهجري نقاداً غير اللغويين المتسامحين ، اقبلوا عليه ، واحسنوا درسه ، وكان هؤلاء النقاد هم الكتاب والادباء الذين تلمذوا لأئمة اللغة والنحو ، وأفادوا منهم ، ولكنهم لم يروثوا عنهم نظرتهم للجديد ، بل اقبلوا عليه ، وغنوا به اشد عناية ، ونقدوا عناصره ، فنوهوا بالمقبول منها والمرذول ، فاستحقوا لذلك ان يكونوا العلماء بالشعر ، البصراء بجوهره . قا الجاحظ : « طلبت علم الشعر عند الاصمعي فوجدته لا يحسن الا غريبه ، فرجعت الى الاخفش فوجدته لا يتقن الا اعرابه ، فعطفت على ابي عبيدة فوجدته لا ينقل الا ما اتصل بالاخبار ، وتعلق بالايام والانساب ، فلم اظفر بما اردت الا عند ادباء الكتاب » (٢٢) .

وجاء ابن قتيبة فعزز الرأي القائل بوجوب الاهتمام بالجديد ، ونبذ التعصب للقديم ، وقال : « ... ولا نظرت الى المنتقم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، والى المتأخرين منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، واعطيت كلا حظ ، ووفرت عليه حقه » (٢٣) . ثم انحنى باللوم على من كان من علماء عصره « يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه في متخير ، ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب له عنده الا انه قيل في زمانه او انه رأى قائله » (٢٤) . وغني ابن المعتز بالشعر المحدث فدرسه والف فيه . وعلى ذلك فان اتجاهها جديداً

في درس الادب ونقده ، قد بدأ يظهر وتتضح ملامحه ، وان النقاد أحسوا بوجوب الالتفات الى الشعر الجديد ، وتقويمه ، ووضع الاسس التي تصلح للمفاضلة بين منشئيه . اما اللغويون فقد شرعوا يتركون ميدان النقد ، وان لم يودعوه ، بعد ان تصدى الادباء والكتاب لهذه المهمة . وما ان جاء القرن الرابع حتى خفتت الحماسة للشعر القديم ، وتضاءلت ، واصبح اكثر النقاد مجمعين على التسليم بأنه لا فضل للقديم على محدث ، ولا لمحدث على قديم إلا بالاجادة (٢٥) .

الاستخدام الفني للغة :

من الواضح ان اللغة تستخدم ضربين من الاستخدام ، الاستخدام العادي ، وبه تنقل الافكار من المتكلم الى السامع ، وأن على الانسان ان يلتزم في حديثه العادي لغة الجماعة ، ويخضع لما تتبع هذه اللغة من نظام في اصواتها ومفرداتها وتراكيبها واساليبها ، كما يتقيد بمدلولات الالفاظ ، فلا يحيد عن شيء من ذلك ، ليضمن للغة ان تؤدي عنه ما يريد . ولو حاول فرد ان يخرج في حياته عن النظام اللغوي للجماعة ، بان يخلق لنفسه لغة يتفاهم بها ، لما وجد من يفهم حديثه ، ويصح للجماعة ان تسخر منه ، وتصفه بالشذوذ والمروق (٢٦) .

غير ان الذي يحدث في ميدان الحياة العملية لا يصح في عالم الشعر والادب ، فاذا تقيد الفرد العادي في حياته العامة بلغة الجماعة ، وخضع لنظامها وقوانينها ، وجدنا الشاعر يتمتع بقدر كبير من الحرية الفنية في استخدام اللغة . فمع التزام الشاعر بقواعد اللغة واصولها ، ومع رعايته لقوانينها فهو حر - بحدود ما يبدع - في استخدام هذه اللغة ، ويملك من امرها ما لا يملك الانسان العادي من امر لغته .

ان لغة الشعر لا تقتصر على نقل الافكار فقط ، بل هي الى جانب تاديتها هذه الوظيفة الاساسية ، غاية بنفسها ، او هي اداة الخلق الفني ، لا تلتزم احياناً الاطار اللغوي الشائع . ولو اتبع الشاعر التركيب اللغوي الاعتيادي لكان كلامه نوعاً من التقليد البحت ، او شكلاً من اشكال الكلام الذي يفتقر الى الاساس الاول الذي يبني عليه اي خلق ادبي ، وهو رؤية الفنان الذاتية ، وقدرته الخاصة على صياغة اثره الفني في صورة جديدة ، تدهش القارئ ، وتلفت ، انتباهه الى عبقرية الشاعر في تعامله مع اللغة .

فاللغة عند الشاعر الحق - في بعض الاحيان - تتخذ اشكالاً غير التي يتداولها الناس ويتواصلون بها ، فلا نجد فيها الفاظاً كثر استخدامها حتى بليت ، وامحت معالمها ، وبهتت ظلالها ، فلم تعد تقدر على تحريك او اثارة . ولاتحكم تلك اللغة غالباً علاقات وارتباطات عامة الفها الناس ، وسكنوا اليها ، حتى استحالت الى مايشبه الاصطلاحات الجامدة . ان مهمة

الشاعر احياناً في اقامة علاقات جديدة بين الالفاظ ، وابتداع سياق لغوي مملوء بالايحاء^(١٩) .
ياتي الشاعر المبدع الى الكلمة ، وهي اداة عادية ، فيجعلها تدل دلالة غير مألوفة ، واول ما يلجأ اليه ليجعل الكلمة العادية غير عادية هو ان يستعملها بارتباط غير مألوف^(٢٠) . وكان ابو تمام مولعاً لهذا النحو من التصرف في اللغة . وسياتي بيان ذلك .

اولاً : لغة الشعر عند ابي تمام من منظار نقدي

المفردات

لقد عرض النقدا لغة ابي تمام على ضربين من المقاييس ، فنظروا في لغته في ضوء مقاييس الجودة والرداءة ، فحكموا لبعض مفرداته وتراكيبه بالجودة ، وحكموا على اخرى بالرداءة . ونظروا في لغته مرة اخرى في ضوء قواعد اللغة وقوانينها ، فحكموا على بعض مفرداته وتراكيبه بمخالفة تلك القواعد والقوانين ، وسنشير في هذا البحث الى ما تمخض عنه كلا النظريتين من نتائج واحكام بادئين بما اسفر عنه نقد لغة ابي تمام في ضوء مقاييس الجودة والرداءة ، وعاطفين على ذلك بما نجم عن النظر في لغته بمقتضى مقاييس الخطأ والصواب .

الصيغة او البناء :

من المعروف ان الذوق العربي يستحلي اللفظ القليل الاحرف ، فيديره في الكلام ، ويكثر منه في الاستعمال ، كما يستتقل اللفظ الطويل ، وينفر منه . واللفظة العربية لا تزيد في اقصى حالات طولها على سبعة احرف ، اما المفردات التي تزيد حروفها على ذلك فقد عدوها دخيلة ، او مقحمة مصنوعة ، لم ينطق بها العرب .

وقد نظر النقاد الى صيغة الكلمة او بنائها ، واتخذوه مقياساً من مقاييس الجودة والرداءة ، او المفاضلة بين المفردات ، فاشتراط ابن سنان الخفاجي ان تكون الكلمة الفصيحة « معتدلة غير كثيرة الحروف ، فانها متى ما زادت على الامثلة المعتادة المعروفة قبحت ، وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة »^(٢١) . وبمقتضى هذا المقياس عاب ابن سنان على ابي تمام قوله :

فلانربيجان اختيال بعدما كانت معرس عبرة ونكال
سمجت ونبهنا على استسماجها ماحولها من نفرة وجمال

فقال : « فقله : فلانربيجان كلمة رديئة لطولها وكثرة حروفها ، وهي غير عربية ، ولكن هذا وجه قبحها . وكذلك قوله في البيت الثاني : استسماجها رديء لكثرة الحروف ، وخروج الكلمة بذلك عن المعتاد في الالفاظ الى الشاذ النادر »^(٢٢) . وعاب ابن سنان ايضاً قول ابي تمام :

أنلُ باستماعكُ محلاً يفوت علوه الطرف الطموحا
فقال : « فليس بقبح قوله (باستماعك) خفاء ، لكثرة الحروف على ما ذكرناه لا غير »^(٢٣) . وعاب ابن سنان كذلك قول ابي تمام :

العيس تعلم ان حوياواتها ريح اذا بلغتك ان لم تُنحر
فقال ابن سنان : « وحوياواتها كلمة طويلة »^(٢٤) . ويخالف ابن الاثير ابن سنان في هذا المقياس من مقاييس نقد الالفاظ ، فقد ذهب الى ان الطول لا يوجب دائماً قبح اللفظة ، واستدل على ذلك بان في القرآن الكريم الفاظاً طوالة ، وهي مع ذلك حسنة كقوله تعالى (فسيكفيكم الله) وقوله : (ليستخلفنهم في الارض) ، وانتهى ابن الاثير الى ان الطول الناجم عن الزيادة على الاصول غير قبيح في بعض الاحيان ، اما الطول الناجم عن كثرة الحروف الاصول فهو قبيح . وعلى هذا الاساس استنكر ابن الاثير كلمة (جحمرش) و (صهصلق) ، وهما من الخماسي المجرد ، ولم يستقبح كلمة (فسيكفيكم) وكلمة (ليستخلفنهم) لان الطول فيهما ليس اصلاً وانما هو طارئ عليها بسبب حروف وضمانر لحقت بهما ، وهما أصلاً من البناء الثلاثي^(٢٥) .

ومما يتعلق بهذا المقياس ان الكلمة تحسن احياناً اذا كانت مفردة ، فاذا جمعت او تثنيت قبحت ، واستحققت الاطراح . ومن الامثلة على ذلك ان كلمة (اخذع) وردت في بيتين فكانت في احدهما مستملحة رائعة ، وكانت في الاخرى ثقيلة مستكرهة . قال الصمة بن عبد الله :

تلفت نحو الحي حتى وجلتني وجمت من الاصفاء ليتاً واخذعا

وقال ابو تمام :

يادهر قوم من اخذعك فقد اضججت هذا الانام من خرقك

فعلق ابن الاثير على البيتين بقوله : « الا ترى انه وجد لهذه اللفظة في بيت ابي تمام من الثقل على السمع والكراهية في النفس اضعاف ما وجد لها في بيت الصمة بن عبد الله من الروح والخفة والايناس والبهجة ، وليس سبب ذلك الا انها جاءت

موحدة في أحدهما مثناة في الآخر، وكانت حسنة في حال الافراد مستكرهة في حالة التثنية، والا فاللغة واحدة، وانما اختلاف صيغتها فعل بها ما ترى» (٢٦).

واذا كانت (اخذ) جاءت معيبة في شعر ابي تمام لانها وردت مثناة فيه، فان كلمة (صوف) عابها بعض النقاد لانها جاءت مفردة في قول ابي تمام:

كانوا ببرد زمانهم فتصدعوا فكانما لبس الزمان الصوفا

نقل ابن الاثير عن بعض النقاد انهم عابوا كلمة (الصوف)، وذكروا ان سبب عيبها وقوعها مفردة في شعر ابي تمام، على حين وقعت مجموعة في قوله تعالى: (وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن اصوافها وابيارها واشعارها اثاثاً ومتاعاً الى حين) (٢٧) فرد ابن الاثير على عائبي لفظة ابي تمام رداً مقنعاً، لانه كشف عن موطن العيب في الكلمة فرده لا الى كونها مفردة او مجموعة، وانما لانها جاءت مجازية في نسبتها الى الزمان (٢٨).

وعاب عبد القاهر الجرجاني كلمة اخرى لابي تمام بسبب صيغتها او وزنها، فقد استحسن هذا الناقد الفعل (حاك) الذي استعمله البحتري في قوله:

فصاغ ماصاغ من تبر ومن ورق وحاك ما حاك من وشي ودياج

ولكنه استقبح ان يورد ابو تمام اسم فاعل منه فيقول:

اذا الفيت غادي نسجه خلت انه خلت حقب حرس له وهر حائك

فذهب عبد القاهر الى ان لفظة (حائك) في غاية القبح والركاكة، والذي قاله البحتري (وحاك ما حاك) حسن (٢٩).

الغريب:

لقد عاب النقاد الغرابية في المفردات، وعدوها مخلة بفصاحة الكلام، واذا استثنينا اللغويين الذين شجعوا الغريب، رغبة في جمع اللغة، ويحتمل عن الشاهد، فان اكثر النقاد انحازوا الى السهولة، وظل ذلك ديدنهم. ومما لغت نظر النقاد في شعر ابي تمام غرام هذا الشاعر بالغريب، وجريه وراء النادر من الصيغ والكلمات، فعابوا ذلك عليه، غير ان الامدي لم يعب الغريب دائماً، بل كان يعيبه اذا ابتدأ الشاعر قصيدته به، او اكثر منه في القصيدة الواحدة، وجعله متجاوزاً متلاحقاً، لا ينفصل بعضه عن بعض بالفاظ واضحة سهلة. وكان الغريب - عدا ذلك - نوعين عند الامدي: الغريب الذي يغرب على الحضر وحدهم، والغريب الذي يغرب على البدو أنفسهم، وسمى هذا الضرب من الغريب بالوحشي. وقد سمح الشاعر بان يأتي بالضرب الاول استعانة به، او اظهاراً لثقافته اللغوية، على الا يكون في ابتداء القصيدة، والا يتجاوز او

يتلاحق. وقد تجلّى موقف الامدي هذا في تعليقه على الالفاظ الغريبة التي ضمها احد مطالع ابي تمام وهو قَدْكَ انتكَبْ اُربيت في الغلواء

قال الامدي: « وزاد هذه الالفاظ هجنة انها ابتداء قصيدة ». (٣٠) وقال في موضع آخر: « وأما قوله (قدك انتكَبْ اُربيت في الغلواء) فانها الفاظ صحيحة فصيحة من الفاظ العرب، مستعملة في نظمهم ونثرهم، وليست من متعسف الفاظهم، ولا وحشي كلامهم، ولكن العلماء بالشعر انكروا عليه ان جمعها في مصراع واحد، وجعلها ابتداء قصيدة، ولم يفرق بينها بفواصل ». (٣١) وقال حينئذ آخر « فمن شأن الشاعر الحضري ان يأتي في شعره بالالفاظ العربية المستعملة في كلام الحاضرة، فان اختار ان يأتي بما لا يستعمله اهل الحضر فمن سبيله ان يجعله من المستعمل في كلام اهل البدو بالوحشي الذي يقل استعمالهم اياه، وان يجعله متفرقاً في تضاعيف الفاظه، ويضعه في مواضعه، فيكون قد اتسع مجاله بالاستعانة به، ودل على فصاحته وعلمه، وتخلص من الهجنة ». (٣٢)

ومن غريب مفردات ابي تمام قوله:

لقد طلعت في وجه مصر بوجهه بلا طائر سعد ولا طائر كهل

الذي علق ابن سنان عليه قائلاً: « فان كهلاً ها هنا من غريب اللغة، وقد روي ان الاصمعي لم يعرف هذه الكلمة... وقد قيل ان الكهل الضخم. وكهل لفظة ليست قبيحة التأليف ولكنها وحشية غريبة، لا يعرفها مثل الاصمعي ». (٣٣) وعاب ابن سنان على ابي تمام كلمة (صهلق) ووصفها بالوعورة، وكانت قد جاءت في قوله:

صهلق في الصهيل تحسبه أشرح حلقومه على جرس (٣٤)

ولم يلفت الغريب في شعر ابي تمام نظر الامدي وابن سنان وحدهما، بل لفت نظر ابن الاثير كذلك، فوقف عند قوله:

قد قلت لما اطلختم الامور وانبعثت

عشواء تالية غُبساً دهاريساً (٣٥)

وعلق عليه قائلاً: « فللفظة اطلختم من الالفاظ المنكرة التي جمعت الوصفين القبيحين في انها غريبة وانها غليظة في السمع، كريهة على الذوق، وكذلك لفظة دهاريس ». (٣٦) ومن غريب ابي تمام قوله:

كم من لم يُعجز الجيش اللّهام اذا بانوا ستحكم فيه العزمس الأجد

يريد ان الجيش كان يعجز عن قتل هذا المحب، فقتلته العرمس الإجد، اي الناقة القوية الموثقة الخلق، لانها حملت محبوبيته.

ومن المفردات التي تعد نادرة وغريبة جمع ابي تمام
(الوحيد) على (واحد) في قوله :
كان في الاجفلى وفي النقرى غز فك نضر الواحد

قال المعري : « الواحد جمع وحيد مثل كريم وكرام ،
يقول : كان عُرفك نضراً في العموم والوحد » (٢٧)
تلازم اللفظ والمعنى :

وهذا مقياس اخر احتكم نقاد ابي تمام اليه ليعرفوا جودة
مفرداته او رداءتها ، والنقاد اذ يطلقون كلمة (المعنى) فانما
يريدون بها في الغالب (الغرض) او (المقصد) او ما يريد
المتكلم ان يثبتته او ينفيه من الكلام (٢٨) والمعنى بهذا
الاستخدام يرانف عندهم (الفكرة) العامة المجردة التي
يتقنن المنشئ في صوغها ، ثم يستخلصها المتلقي من مجموع
ما قاله الشاعر (٢٩) ومن هنا جعل النقاد ان من مقاييس جودة
الكلمة ان تلازم المعنى الذي تكفلت هي وما يجاورها بآثاره
والتعبير عنه . وقد كان الجاحظ من اوائل النقاد الذين قرروا
ملاءمة اللفظ للمعنى في مواضع كثيرة من كتبه ، منها قوله :
« ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ، ولكل نوع من المعاني
نوع من الاسماء ، فالسخيف للسخيف والخفيف للخفيف
والجزل للجزل » (٣٠) وقال ابن طباطبا : « وللمعاني الفاظ
تشاكلها فتحسن فيها وتقع في غيرها » (٣١) . ولم يخرج قدامة
عن ذلك حين قال : « ولما كان المذهب في الغزل انما هو الرقة
واللطافة والشكل والدماثة ، كان مما يحتاج فيه ان تكون
الالفاظ لطيفة مستعذبة ، مقبولة غير مستكرهة ، فاذا كانت
جاسية كان ذلك عيباً . الا انه لما لم يكن عيباً على الاطلاق
امكن ان يكون حسناً ، اذ كان قد يحتاج الى الخشونة في مواضع
مثل ذكر البسالة والندجة والبأس والرهبة » (٣٢)

واما ابن سنان الخفاجي فقد رسخ هذا المقياس من
مقاييس نقد المفردة الشعرية فرأى ان على الشاعر « الا يعبر
عن المدح بالالفاظ المستعملة في الذم ولا في الذم بالالفاظ
المعروفة في المدح ، بل يستعمل في جميع الاغراض الالفاظ
اللائقة بذلك الغرض ، في موضع الجد الفاظه وفي موضع الهزل
الفاظه » (٣٣)

وفي لغة ابي تمام مفردات تخرج عن هذا المقياس
النقدي ، من ذلك انه نقل الفاظاً من مجالها الذي تستعمل
فيه ، وساقها في مجال آخر يستدعي الفاظاً اخرى ، تكون
الصق به ، واكثر تألفاً معه . فلفظتا (يهذي) و (محموم)
اللذان وردتا في قول ابي تمام مادحاً :
مازال يهذي بالمكارم دائباً حين ظننا أنه محموم

مجالهما الذم ، فاذا استعملهما ابو تمام في معرض
المدح ، ونعت بهما من يمدحه ، فقد صدم بذلك الذوق العام ،

وخرج عما الف هذا الذوق من الفاظ كريمة ، تناسب المديح ،
وتنسجم مع شعور المادح ، وهو شعور اعجاب واكبار في
الغالب (٣٤)

وكلمة (شيطان) لا موضع لها بين الكلمات التي درج
الشعراء على ان ينعتوا بها ممدوحيهيم ، فاذا استعملها ابو
تمام صفة لاحد ممدوحيه فقال :
وتشفى الحرب منه حين تغلي مراحلها بشيطان رجيم

فانه يعاب بذلك ويعد مجانباً للفظ الجيد او المختار (٣٥)
ومما يمد من الالفاظ موضوعاً في غير موضعه ، ومنقولاً الى
مجال المدح ، وهو بمجال الهجو الصق ، قول ابي تمام مادحاً :
سعى فاستنزل الشرف اقتساراً ولولا السعي لم تكن المساعي

الذي علق عليه الامدي قائلاً : « قوله (سعى فاستنزل
الشرف اقتساراً) ليس بالمعنى الجيد ، بل هو عندي هجاء
مصرح به ، لانه اذا استنزل الشرف فقد صار غير شريف ، وذلك
أنك اذا ذممت رجلاً شريفاً ، شريف الاباء كان ابغى ما تدمه به
ان تقول : قد حططت شرفك ووضعت من شرفك ، وقد وكد بقوله
(اقتساراً) » (٣٦)

وقوله يمدح الافشين في وقعة هزم بها بابك ، فيشبه
الافشين بالتينين ، وما سمع احد من الشعراء شبه به
ممدوحاً (٣٧)

ولم يظلم وهل ظلم امرؤ حث النجاء وخلفه التينين
وقول ابي تمام مادحاً ايضاً :

ياأبا جعفر جُعِلت فداكا فاق حسن الوجوه حسنُ قفاكا

و (القفا) من الالفاظ التي تستعمل في الذم ، وليست
من الفاظ المدح (٣٨)

ومن الالفاظ التي لا تليق بالغزل كلمة (ملطومة) التي
جاءت في قوله :

ملطومة بالورد أطلق طرفها في الخلق فهو مع المنون مُحَكَّم

وقد علق الامدي على هذا البيت قائلاً : « وقوله (ملطومة
بالورد) يريد حمرة خدها ، فلم لم يقل : مصفوعة بالقار ويريد
سواد شعرها ، ومخبوطة بالشحم يريد امتلاء لجسمها ،
ومضروبة بالقطن يريد بياضها ؟ ان هذا لاحق ما يكون من
اللفظ وأسخفه وأوسخه » (٣٩)

ومن ذلك قوله في الغزل ايضاً :

إن تضرعتُ بنطق فحُماداه السكوث

فكلمة (حُماداه) اي غايته « وهي لفظة كريهة في

معرض النسب كان يمكنه ان يضع موضعها (قصاراه) «^(٥٠)»
الدقة :

ومن مقاييس نقد الالفاظ (الدقة) ، واللفظ الدقيق عند
النقاد هو الذي يؤدي المعنى المراد ولا يصلح غيره لان يوضع
موضعه ، ولا شك في أن الوقوع على اللفظ الدقيق مهمة صعبة
لا يقدر عليها الا من عرف اللغة معرفة واسعة ، ووقف على
ما بين المفردات من فروق دقيقة . وقد أجس اللغويون منذ وقت
مبكر بصعوبة هذا الامر ، فندبوا أنفسهم لتأليف الكتب الخاصة
بالالفاظ ، وأودعوا تلك الكتب ما بين الالفاظ المتقاربة من فروق ،
مثل (الالفاظ الكتابية) للهمذاني ، و (الفروق اللغوية)
للمسكري و (فقه اللغة) للثعالبي وغير ذلك «^(٥١)»
ومع ان ابا تمام واسع الاطلاع على اللغة ، لم يختار اللفظ
الدقيق حين قال :
ديمه سَمْحة القياد سكوب مستغث بها الثرى المكروب

ذلك لان « الثرى لا يستغث بالديمة ، ولا يتلهف الى
مائها ، إلا اذا كان جافاً يابساً ، واذا كان كذلك فهو ليس ثرى
وانما هو تراب » «^(٥٢)»
واخطأ أبو تمام اللفظ الدقيق في قوله :

ضعفت جوانح من اذاقته النوى طعم الفراق فذم طعم العلقم
قال الامدي : « قوله (ضعفت) دعاء عليها ، اي
أضعف الله جوانح من اذاقته النوى طعم الفراق فذم طعم
العلقم ، والجوانح هي الاضلاع الصغار في الصدر ، التي تلي
الفؤاد ، الواحدة جانحة ، فكانه يدعو عليه ان تضعف عن حمل
حرارة الشوق ، وحرق الفراق ، ان كان صاحبها قد ذاق طعم
الفراق وعلم مرارته فذم طعم العلقم . و (ضعفت) كلام ضعيف
في هذا الغرض جداً ، و (أضعف الله) لو كان استقام له ان
يقولها أحسن وابلغ من (ضعفت) . وعلى أنه كلام لا يشبه
بعضه بعضاً ، و (حواس) ههنا أحسن والبق وأشبه من
(جوانح) لانه ذكر الطعم فكانت الحواس مع الطعم لفظاً
يشبه لفظاً ، ومعنى يشبه معنى » «^(٥٣)» ثم قال : « واطنه لو
استوى له ذكر الحواس في البيت لما عدل عنه » «^(٥٤)»

ولم تكن (الخد) هي الكلمة الدقيقة في قول ابي تمام :

لو صحح النع لي أو ناصح الكمد لقلما صحبك الخد والكبد
وقد علق عليه الامدي قائلاً : « وهذا بيت صالح وليس
بالجيد ولم يستوله ان يقول (العين والكبد) لانهما مؤنثتان
فكان يقول : (صحبتك) ، فجعل مكان (العين) (الخد) ،
لانه مذكر ولان كثرة البكاء تؤثر فيه ، وتذهب بلحمه ، وذهب
العين بالبكاء اخص من ذهب الخد . ولو قال : (صحبك العين

والكبد) لكان ذلك سائفاً ، ولو كانتا مؤنثتين لان هذا يجوز فيما
ليس لتأنيته حقيقة » «^(٥٥)»

ولم تكن (ألفته) هي اللفظة الدقيقة في قول ابي تمام
ايضاً :

ملكته الصبا الولوع فال فتة قعود البلى وسؤد الخطوب

قال الامدي : « وقوله (ألفته) ليس هذا موضع
(الفته) لان معنى (الفته) صادفته ، واذا كانت الريح هي
التي حلت بالربع فوجه الكلام (جعلته) لو استوى له ، لا
(الفته) ، واذا لم يستقم له (جعلته) ولا ما هو في معناها
نقض البيت بأسره ، وبناء بالفاظ آخر . وكأنه اراد ان يقول :
قعود البلى وهدفاً للخطوب ، او غرضنا للخطوب ، اي تقع به
ابداً وتصيبه ، فلم ينتظم له الوزن » «^(٥٦)»
واخطأ ابو تمام الكلمة الدقيقة في قوله :

عطفوا الخنير على البدر ووكّلوا قلم الستر بنور خور نهد
وشوا على وشي الخنير صيانة وشي البرود بمسجف وفهّـد

فقوله : بمسجف وممهد فالمسجف يريد به الخجلة وكل
ستر مشقوق ، وكل شق منها سجف ، والممهد الوطاء الذي يوطأ
تحت المرأة ، واذا كان الامر كذلك فكيف يعطف (الممهد) على
(السجف) الذي ذكر انهم ثنوه على وشي الخنود ؟ وقد حاول
الامدي ان يجد لابي تمام عذراً في عطف (الممهد) على
(السجف) فقال : « فان قيل يكون محمولاً على قول الشاعر :
ورأيت زوجك في الوغى متقلداً سيفاً ورمحاً

والرمح لا يتقلد ، وقول الآخر : (وزججن الحواجب
والعيوانا) والعيون لا تزجج ، وانما اراد ذلك متقلداً سيفاً
وحاملاً رمحاً ، واراد هذا وزججن الحواجب وكحلن العيون ،
قيل : متقلد السيف هو حامله ايضاً فحسن ان يعطف الرمح
على السيف لانهما جميعاً محمولان ، وكذلك زججن وكحلن هما
جميعاً زينة فحسن عطف احدهما على الآخر . والممهد لا يشرك
الستر في شيء من تغطية الوجه ولا صيانتها ، ولا بنيت الفاظ
البيت الاعلى ستر الخنود بالستور ، ولا يتعلق الممهد بالمعنى
باضمار لفظ ولا غيره » «^(٥٧)»

الإفادة :

و (الافادة) مقياس آخر من مقاييس نقد الالفاظ ،
يرجع اليه النقاد لبيان جودة الكلمة اورداءتها . ونعني
بـ (الافادة) ان تغيد الكلمة معنى جديداً لم تغده الكلمات
الآخرى ، فيكون لها تبعاً لذلك قيمة واضحة في السياق ، لا ان
تكون مقمحة فيه ، لا تسهم في اغنائها ، ولا تضيف جديداً اليه .

وبهذا المقياس حكم النقاد على طائفة من مفردات أبي تمام ، فأروا أنها زائدة ، أو حشو يمكن إسقاطه من الكلام ، دون أن يختل معناه . ويبدو أن النقاد فرقوا بين الكلمات المقمحة في الشعر فسموا ما يقع منها في أثناء البيت (حشواً) وسموا ما يقع منها قافية (استدعاء) ، وهما من عيوب الشعر (٩٨) . ومن الالفاظ التي عدت حشواً في شعر أبي تمام قوله :

خذا ابنة الفكر المهذب في الدجى

والليل اسود حالك الجلباب

فقلوه : « الدجى حشو لأن في القسم الثاني ما يدل عليه » . (٩٩)

ومن الالفاظ التي عدت (استدعاء) في شعر أبي تمام قوله :

كالظبية الأسماء صافت فارقت زهر العرار الفض والجثجاثا

وقد نقده المسكري فقال : « ليس في وصف الظبية أنها ترتعي الجثجاث فائدة وسواء رعت الجثجاث أو القلام أو غير ذلك من الذب ، وإذا قصد نعت الظبية بزيادة حسن قيل أنها تعطو الشجر لأنها حينئذ ترفع رأسها فيطول جيدها وتظهر محاسنها » . (١٠٠) وكان قدامة قد عرض لهذا البيت أيضاً فعابه لورود كلمة (الجثجاث) فيه زائدة استدعتها القافية (١٠١) . ومما عُد حشواً في شعر أبي تمام قوله :

جنبنت نداء غدوة السبت جنبنة فخر صريماً بين أيدي القصائد

قال ابن سنان : « أن قوله : « غدوة السبت حشو لا يحتاج إليه ولا تقع فائدة في ذكره ، ومن ذا الذي يؤثر أن يعلم اليوم الذي أعطى الممدوح فيه أبا تمام » . (١٠٢)

وأرى أن هذا تجن من ابن سنان ، فإذا كان هو لا يهمه اليوم الذي قابل فيه الشاعر الممدوح ، فإن ذلك اليوم يعني أبا تمام ، وقد يكون عنده يوماً مشهوداً لا ينسأه ، لأنه حظي فيه بلقاء كان قد عقد عليه آمالاً ، وحدث به النفس طويلاً . وإذا علمنا أن الشعراء كان يحجبون بابواب الممدوحين أياماً ، يتعوضون فيها لآلام شتى (١٠٣) أدركنا مبلغ أهمية اليوم الذي يؤنن فيه للشاعر في لقاء الممدوح .

ومما عيب على أبي تمام بسبب ما عده بعض النقاد كلاماً غير مفيد قوله :

تقدو الرياح سوافياً وعوافياً فتضيم مغناها وليس تضيمها

قال الامدي : « وقوله : فتضيم مغناها يعني الرياح أنها تضيم المغنى وليس تضيمها ، وهذا أيضاً معنى ليست له حلوة ، ولا يقود الى فائدة لأن المعلوم أن الارض لا تضيم الرياح » . (١٠٤)

وأرى أن الامدي ليس على حق في عده قول أبي تمام (وليس تضيمها) لغواً لافائدة فيه ، لأن الشاعر أراد بهذا أن يشير الى جبروت الريح ، وطغيانها على المغنى ، وقيام المغنى ازاءها عاجزاً ذليلاً ، يتلقى ضيماً له ، ثم يقصر عن دفعه ، أو الذيل من سببه .

ومما عيب على أبي تمام من مفردات فرضتها القافية ، ولم تثبت لاغناء المعنى ، أو اضافة جديد اليه قوله :

مهاة النقا لولا الشوى والمأبض وإن محض الاعراض لي منك ماحض (١٠٥)

قال الامدي : « وقوله : والمأبض عني منه ولكنة وأراد القافية » . (١٠٦)

وقريب من هذا الباب ، أي اجتلاب الالفاظ لاقامة القافية أو الوفاء بالوزن ، أن تقصر الكلمة على مكانها لسبب آخر هو تحقيق فن من فنون البديع التي اغري بها أبو تمام ، وجعلها غايته وبغيته . من ذلك قول أبي تمام :

فاضحى الفلا قد جدّ في بزي نخضه

وكان زماناً قبل ذلك يلعبه

قال الامدي : « وقوله يلعبه لفظة ضعيفة المعنى ، وإنما جاء بها من أجل قوله : (جدّ) في بري نخضه ، ليطابق بين الجد واللعب ، أي أن الفلا جد في أخذ لحمه في سيرنا هذا السير ، فجعل مكان هذا القول (وكان زماناً قبل ذلك يلعبه) على مذهبه في عشق الطباق الذي لا بد له من أن يأتي به ، وأن حصل المعنى معه ضعيفاً ركيكاً وربما محالاً » . (١٠٧) وقوله :

فاسلم سلمت من الافات ماسلمت بسلام سلمي ومهما أوقى السلم

قال الامدي : « فان هذا من كلام المبر سمين ، وقد عابه عبد الله بن المعتز ببعض هذه الابيات في كتاب البديع ، جاء بها في قبح التجسيس » . (١٠٨) الاشتراك :

نظر النقاد العرب الى المفردات في ضوء مقياس آخر ، فذهبوا الى أن الكلمة المشتركة المعنى ، أي التي تدل على معان عدة ، لا تكون جيدة إلا اذا صاحبته قرينة توضح المقصود بها . (١٠٩) وعلق ابن الاثير على قوله تعالى : (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون) : « ألا ترى أن لفظة التعزيز مشتركة تطلق على التظيم والاكرام ، وعلى الضرب الذي هو دون الحد ، وذلك هو نوع من الهوان ، وهما معنيان ضدان ، فحيث وردت في الآية جاء معها قرائن من قبلها ومن بعدها فخصت معناها بالحسن وميزته عن (كذا) القبيح ، ولو وردت مهمة بغير قرينة وأريد بها المعنى الحسن لسبق الى الوهم ما اشتملت عليه من المعنى القبيح . مثال ذلك لو قال قائل : لقيت فلاناً فعزته لسبق الى

الوهم انه ضربه وأهانته ، ولو قال : لقيت فلاناً فأكرمته وعززته
لزال ذلك اللبس » (٧٠).

ولكلمة (عقل) معنيان : أحدهما معروف والاخر الدية ،
الا ان استعمالها بالمعنى الثاني قليل ، واليه قصد ابو تمام
حين قال :

أعطيت لي دية القتيل وليس لي

عقل ولا حق عليك قديم

وقد عاب ابن الاثير على ابي تمام استعمال كلمة
(عقل) دون قرينة تحدد المراد بها ، قال : « فقلوه : ليس لي
عقل يظن انه من عقل الشيء اذا علمه ، ولو قال : ليس لي
عليك عقل لزال اللبس » (٧١).

ومن المشترك الذي عيب على ابي تمام قوله :

متفجر نادمته فكانني للدلو او للمزمن نديم

قال ابن سنان (٧٢) « فالدلو ها هنا احد البروج ،
ولا اختاره لموافقته اسم الدلو المعروف » وهناك ضرب آخر من
الالفاظ المشتركة ، وهي التي اكتسبت مع الزمن دلالة قبيحة ،
وأصبح النطق بتلك الالفاظ مثيراً لتلك الدلالات في نفوس
سامعيها . وقد عاب النقاد هذه الالفاظ ، ونصحوا بالتباعد
عنها ، ومن الامثلة عليها (الفائط) التي وزعت في قول عمرو
ابن معد يركب :

وكم من غائط من دون سلمى قليل الانس ليس به كتيع

ذلك لانها كانت تعني البطن من الارض ، ثم صارت تطلق
على الحدث (٧٣) . وأرى أن عمرو بن معد يركب غير ملوم على
استعمال هذه اللفظة لانها لم تكن في عصره مستعملة بالمعنى
المستقبح الذي ذكرناه . وكلمة (الادبار) التي جاءت في قول
ابي تمام :

وعزائماً في الروح معتصمية ميمونة الادبار والاقبال

كلمة غير مرضية لانها اقترنت بمعنى مكروه (٧٤).

الاصطلاحات :

ونعني بها الالفاظ التي اصطنعها اهل العلوم المختلفة
للدلالة على معانيهم ، وهي الفاظ نقلوها من معانيها المعروفة ،
وصاروا يطلقونها على ما استنبطوه من معان ، ووقفوا عليه من
حقائق .

وعلى هذا فالمصطلح كلمة « لها معنى لغوي يفهمه الناس
عامة ومعنى آخر لا يفهمه الا اهل ذلك العلم » (٧٥) الذي
استعملت فيه الكلمة . فاذا قلنا مثلاً : (فاعل) فان هذه
الكلمة « تدل بمعناها اللغوي على من قام بفعل من الافعال ،

على حين هي في عرف النحويين الاسم المرفوع المسند اليه فعل
على طريقة فعل او شبهه ، ولفظة (الخبر) معروفة بمعناها
اللغوي ، وهي في عرف النحويين الجزء المنتظم منه مع المبتدأ
جملة ، وهكذا الامر في الفاظ العلوم الاخرى » (٧٦).

وحين نشطت حركة العلوم في العصر العباسي ، ووضعت
اعداد كبيرة من المصطلحات في مختلف العلوم تسرب بعض تلك
المصطلحات الى لغة الشعر ، وجرت على اقلام المنشئين ،
فتصدى النقاد لهذه الظاهرة ، وعابوا غزو الفاظ العلم للغة
الادب . وكان حازم القرطاجني قد عرض لهذا الموضوع فانضم
الى النقاد الذين يدعون الى تنقية لغة الادب من المصطلحات
العلمية فقال : « ان البصراء بهذه الصناعة كابي الفرج قدامة
واضرابه قد نص جميعهم على قبح ايراد المعاني العلمية
والصناعية والعبارات المصطلح عليها ، ونهوا عن ايراد جميع
ذلك في الشعر » (٧٧) وقال (٧٨) « ان مستعمل هذه المعاني
العلمية في شعره يسيء الاختيار » . ومن هنا عاب ابن سنان
قول ابي تمام :

مودة ذهب أثمارها شبه وهمة جوهر معروفها عرض

« لان الجوهر والعرض من الفاظ اهل الكلام الخاصة
بهم » (٧٩) ومن ذلك قوله :

كم في الندى لك والمعروف من بدع اذا تُصَفِّتِ اختبعت على السنن

« فقد ذكر البدع والسنن وهما من الفاظ الفقهاء » (٨٠).
ومن هذا الباب قوله في الخمر :

خرقاء يلعب بالعقول حبابها كتلاعب الافعال بالاسماء

« فقد تكلف لذكر الافعال والاسماء كانه من اصحاب
النحو » (٨١) ومنه قوله :

لن ينال الفلا خصوصاً ما بال لا شيء عليه حجاب
من الفتيان من لم يكن نداء
عموماً

« فقد ذكر الخصوص والعموم وهما من الفاظ
المناطق » (٨٢) ومنه قوله :

فب من له شيء يريد حجاب ما بال لا شيء عليه حجاب

لقد « عبر عن العدم بكلمة لاشيء وهي من كلام
الفلسفة » (٨٣).

غير ان ابن الاثير خالف النقاد القائلين باستبعاد الفاظ
العلوم من لغة الادب ، وقبل الالفاظ التي ردها ابن سنان
وغيره ، فقال راداً على ابن سنان : « شذ عنه ان صناعة المنظوم
والمنثور مستمدة من كل علم وكل صناعة لانها موضوعة على
الخوض في كل معنى ، وهذا لا ضابط له يضبطه ،

ولا حاصر يحصره ، فاذا اخذ مؤلف الشعر او الكلام المنتور في صوغ معنى من المعاني واداه ذلك الى استعمال معنى فقهي او نحوي او حسابي او غير ذلك فليس له ان يتركه ويحيد عنه ، لانه من مقتضيات هذا المعنى الذي يقصده ، الا ترى الى قول ابي تمام في الاعتذار :

فان يك جرم عن أوتك هفوة على خطا مني فعنري على عمد
فان هذا من أحسن ما يجيء في باب الاعتذار من الذنب ، وكان ينبغي له على ما ذكر ابن سنان ان يترك ذلك ولا يستعمله حيث (كذا) فيه لفظتا (الخطا) و (العمد) اللتان هما من اخص الفاظ الفقهاء . وكذلك قول ابي الطيب المتنبي : ولقيت كل الفاضلين كأنما ردّ الاله نفوسهم والاعصرا نسقنا لنا نسق الحساب مقدماً

واتى فذلك ان أتيت مؤخرًا

فاختلاف النسج اذن احد ما نعي على ابي تمام ، فقال المبرد : « وشعر البحترى احسن استواء ، وابو تمام يقول النادر والبارد ، وهو المذهب الذي أعجب الى الاصمعي ، وما أشبه ابا تمام إلا بغائص يخرج الدر والمخشلة » .^(١٠٨) ويمعنى آخر ان شعر ابي تمام « كان يرتفع احياناً حتى يصل الى ذروة الفن في جودته ، وينخفض احياناً حتى يصل الى الحضيض في رداءته » .^(١٠٩) وقد اعترف البحترى نفسه بهذه الحقيقة فقال عن ابي تمام : « جيده خير من جيدي ورديني خير من رديني » .^(١١٠) وأقر الامدي بذلك فقال :^(١١١) « جيد ابي تمام لا يتعلق به جيد أمثاله ، ورديني مطروح مردول ، فلهذا كان مختلفاً لا يتشابه » ويبدو ان هذه الفكرة ظلت مسيطرة على ذهن الامدي ، فكان اذا ظفر بجيد ابي تمام أشاد به ، واذا وقع على رديني عابه ، وشنّع عليه .

مجازات ابي تمام

مر بنا في التمهيد ان الاستخدام الفني للغة يقتضي ان يستعمل الاديب الالفاظ بارتباطات جديدة ، او ان ينشئ بين الكلمات علاقات لم يتعارفها الناس ، ولم يسكنوا اليها في لغتهم المألوفة ، وأشرنا هناك ايضاً الى ان ابا تمام كان مولعاً بهذا النحو من الاستخدام للغة ، مفرغى بالابتعاد عما ألف الناس ، فكان هذا ابرز سمات مذهبه الجديد ، واهم ما استوقف النقاد ، واثار جدالهم حول فنه .

فاكثر النقاد الذين عرضوا لشعر ابي تمام وقر في نفوسهم ان اللغة تتمثل في مجموعة « الفاظ » وضعها العرب ليعبروا

بها عن مقاصدهم واغراضهم ، وهي عندهم نوعان : الفاظ حقيقية وضعت في الاصل للدلالة على مسميات معينة ، فاذا ذكرت تلك الالفاظ تمثلت مسمياتها في الذهن ، والفاظ مجازية انتقلت دلالاتها الاصلية الى دلالات اخرى بينها وبين الدلالات الاولى علاقة . وعلى هذا الاساس فان المتكلم إما ان يستخدم اللغة استخداماً حقيقياً ، وإما ان يستخدمها استخداماً مجازياً ، الا ان المفضل في الادب - كما مر في التمهيد - هو الاستخدام الثاني . والمتكلم في كلتا الحالتين محكوم في نظر جمهرة من نقاد ابي تمام بالعرف اللغوي ، وليس له ان يخل به ، او يحيد عنه ، فيستعمل الالفاظ في غير ما وضعت له ، او يخرج بها الى دلالات لا يوجد بينها وبين الدلالات الاولى ضرب من مناسبة ، او نوع من علاقة . فكما ان الشاعر غير حر في الاستخدام الحقيقي للغة ، فلا يحق له ان يغير دلالات الالفاظ ، او يعبر بها عما لم يتقرر في العرف اللغوي ، فكذلك هو غير حر في الاستخدام المجازي ايضاً ، بل « ان عليه ان يرتبط بنوع خاص من العلاقات حددها اسلافه من قبل ، وأي خروج على هذه العلاقات المجازية المحددة سلفاً ، لا يعد خروجاً على التقاليد والنظام اللغوي فحسب ، بل يعد خروجاً على قواعد العقل ، وعناصر الواقع الثابتة ايضاً » .^(١١٢)

ومعنى هذا ان العرب جرت على ان تستعبر بعض الالفاظ لتدل بها على معان اخرى غير المعاني المقررة لها ، او الموضوعية بازائها ، وما على المتكلم ألا ان يتابعهم في ذلك ، فهم استعاروا « الاسد » للرجل الشجاع ، واستعاروا « النور » للعلم واستعاروا « الحمار » للرجل البليد ، فاذا اراد شاعر ان يستعمل هذه الالفاظ استعمالاً مجازياً آخر ، او يطلقها على معان غير هذه ، رُفض استعماله ، وحُكم عليه بالخطا ، وعلى هذا عيب قول الشاعر :

بل لو رأنتني اخت جيراننا اذ انا في الدار كاني حمار

لانه استعمال « حمار » ليدل به على صحته ، وتمام قوته ، ففارق العرف اللغوي الذي درج على تشبيه الرجل البليد بالحمار ، او استعارة الثاني للاول .^(١١٣)

لقد كانت احدى سمات التجديد في فن ابي تمام هي استخدام الالفاظ على غير النحو المألوف ، وفي غير المجال الذي كانت ترد فيه .

لم يشأ اكثر نقاد ابي تمام ان يبيحوا له الحرية في استخدام اللغة ، ولم يتصوروا « ان طريقة تفكير الشاعر وحالاته الذهنية يمكن ان تفرض عليه استخداماً خاصاً للغة ، من حيث الدلالة والتراكيب » .^(١١٤) ولم يروا ان من حق الشاعر ان يندمج بالاشياء المحيطة به « ويعاملها كما لو كانت هي ذاته » ،^(١١٥) فينعتها بما يشاء من نعوت ، ويسقط عليها من

الدهر شطره) ان يقول : لتضعض او لانهد ، او لامن الناس صروفه ونوازله « (١٢٠) وقال ابو تمام :

أنزلته الايام عن ظهرها من بعد اثبات رجله في الركاب وقال :

ياهر قوم من اخذك فقد أضجت هذا الانام من خرقك

فلم يرض الامدي ، ومن تبعه من انصار القديم عن هذا (التشخيص) للدهر والايام ونعتهما بما لم يتعارف من نعموت ، ووجدوا في امثال هذه التعابير خروجاً على السنن العربي المورث ، اذ لم يؤثر عن عربي انه جعل للايام ظهراً او ركاباً ، او جعل للدهر اخدعاً ، واذا كان احد من العرب قد تورط في شيء من هذا ، فلا يحق للمتأخر ان يجاريه فيه ، لان ما يصدر عن العرب على سبيل الندرة او السهو لا يمكن ان يسوغه متأخر ، (١٢١) او يجعله أصلاً يحتذيه او يستكثر منه (١٢٢) كما لا ينبغي « للمتأخر ان يحتذي الاخذ الا للجدد لمختار لسعة مجاله ، وكثرة امثلته » (١٢٣)

لقد صدر نقاد ابي تمام من اللغويين ومن تبعهم من المحافظين عن نظرة تكبر القديم ، وتغلو في التعصب له ، وترى في « الاستعمال الجديد للغة خروجاً على الموروث من تقاليدها ومواضفاتها ، ولو انهم لم ينظروا الى الجديد هذه النظرة لقبولها ما جاء به ابو تمام من استعمالات ، ان فارقت مذاهب العرب ، فانها وفّت لما يقتضيه الفن الشعري من اعادة لتشكيل المفردات على النحو الذي تعليمه الرؤية الشعرية ، او تفرضه طبيعة التجربة .

ثانياً : لغة الشعر عند ابي تمام من منظار لغوي

لقد اعترف غير واحد من نقاد ابي تمام واللغويين الذين نظروا في شعره بأنه « فقيه لغة وناقد الفاظ ، فاذا وقع في الخطأ فمرد ذلك الى التسامح الذي ياخذ به نفسه احياناً ، والى كلال الخاطر احياناً أخرى » (١٢٤) ولهذا كان الامدي يقول عند ذكر بعض اخطائه : « وليس أبو تمام ممن يذهب هذا عليه ، ولكنه يسامح نفسه في الفاظه ، فيقع في الفلط عند كلال خاطره » (١٢٥) وكان المعري يسلم لأبي تمام بمعرفته باللغة « فما عرف أنه خطاه في استعماله للفظ ما ، بل كان يقف موقف ملتزم العذر له » (١٢٦) وكان عبد القاهر الجرجاني لا يضيق بدقيق معاني ابي تمام ، ولا بغامض افكاره « وانما شدد نكبه عليه لتعسفه في اللفظ ، لان اللفظ ليس مما يرضي عبد القاهر ، وتعسف ابي تمام في اللفظ يقوده احياناً الى مخالفة النحو ، ومخالفة النحو يعتبرها الجرجاني كبيرة من

نفسه ما يريد من المشاعر ويستعمل اللغة تبعاً لذلك استعمالاً يتلاءم مع هذه الطريقة ، في تصور الاشياء والاحساس بها . ولا شك في ان هذا النحو من التصور والتفكير يؤدي الى ان تنمحي الحدود بين الاشياء ، وتهتز الفواصل بين العناصر الخارجة عن ذات الشاعر ، ويطلق على هذا الشيء ما اعتاد الناس اطلاقه على الشيء الاخر ، فاذا المعنوي المجرد يعبر عنه بما يعبر به عن المحسوس ، واذا الحيوان ينعت بما ينعت به الانسان ، او العكس .

وكان ابو تمام اشد الشعراء خروجاً على ما هو كائن ، ومتعارف عليه من استعمالات لغوية ، فاعطى نفسه قدراً كبيراً من الحرية في استخدام الالفاظ ، واقامة علاقات جديدة بينها ، وكانت طريقته هذه « فخاً يوقع اللغويين في شرك عدم الفهم » (١٢٧) مما جعل الصولي يسخر منهم سخرية مرة ، ويرميهم بالجهل بالجديد .

لقد صنف اللغويون ومن تبعهم من النقاد عن شعر ابي تمام ، لانهم استشعروا في استخدامه للغة غموضاً ، وغرابة لم يعمدوها في الشعر القديم ، فحملوا عليه ، ووصفوه بأنه « شاعر عدل عن مذاهب العرب المألوفة الى الاستعارة البعيدة ، المخرجة للكلام الى الخطأ والاحالة » (١٢٨)

نظر اللغويون ومن تابعهم من النقاد فوجدوا ان العرب كانت تستعير « المعنى لما ليس هو له ، اذا كان يقاربه او يناسبه ، او يشبهه في بعض احواله او كان سبباً من اسبابه ، فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشيء الذي استعيرت له ، وملائمة لمعناه » (١٢٩) اما ابو تمام فلم يجر في هذه السبيل ، بل كان يضع الالفاظ في غير مواضعها المألوفة ، ويعبر بها عن معان لم تنقرر في العرف اللغوي المأثور ، فجَزَّ ذلك عليه اعنف النقد ، ودفع الى التعصب عليه ، والتشهير به .

وقد مثل الامدي هذا الموقف ، وتصدى لحرية ابي تمام في استعمال الالفاظ ، فلم يرض عن عدد من مجازات ابي تمام ، وافرط في تانيب الشاعر عليها ، ولا بد من الاشارة الى ان موقفه هذا قد استمر في العصور اللاحقة ، فأمن به عدد من النقاد كالروماني والخطابي والقاضي الجرجاني والعسكري وهم معاصرون للامدي ، وابن سنان وابن رشيق وغيرهما (١٣٠) لقد أَرَقَّ الامدي ما وجد عند ابي تمام من جرأة في استخدام الالفاظ لغير ما وضعت له ، واستهانته بالشائع والمألوف من تعابير العرب ومذاهبهم . من ذلك قول ابي تمام :

تحملت مالو خُل الدهر شطره

لفكر دهرأ أي عبايه أثقل

قال الامدي : « فجعل الدهر عقلاً ، وجعله مفكراً في اي العبائن اثقل ، وما شيء هو أبعد من الصواب من هذه الاستعارة . وكان الاشبه والاليق لما قال (تحملت مالو حمل

الكبائر، واعتبر الاعجاز كله قائماً على معرفة النحو وفقهه، وعد النحو وسيلة لمعرفة النظم» (١٢٧). وكان عبد القاهر يقول: «ان أبا تمام ما أتى من سوء فهمه للنحو، وقلة معرفته بالعربية، وإنما أتى من تهاونه، ومن انصرافه نحو تزويق اللفظ، فإلهاه ذلك عن الجوهر، وشغله بالمرض». وقال: «وقد عرفت ما جناه التهاون بهذا النحو من الاجترار على أبي تمام، حتى صار ما يُنمى عليه منه أبلغ شيء في بسط لسان القادح فيه، والمنكر لفضله، واحضر حجة للمتعصب عليه» (١٢٨).

وسنعرض في هذه الفقرة من البحث طائفة من آراء اللغويين في شعر أبي تمام ومناقشاتهم وسنرى ان بعضها يتعلق بالنحو وبعضها يتصل بالصيغ أو الصرف، وأما القسم الثالث فيتناول الدلالة.

النحو

الظروف:

أخطأ أبو تمام في استعمال (بين) فقال: ومشهد بين حكم النذل منقطع صاليه أو بحبال الموت متصل

فقال الامدي: «فقوله: بين حكم النذل، لو كان حكم النذل اشياء متفرقة لصلح فيها (بين) غير ان حكم النذل والنذل بمنزلة واحدة، وكذلك حكم العز والعز، فكما لا يقال: بين العز كذلك لا يقال: بين حكم العز، حتى يقال هذا، لان (بين) هي وسط بين شيئين. فان قال: ان حكم النذل مشتمل على مشهد الحرب ومن يصل بها، فكانه ذهب بقوله (بين) الى معنى وسط، أي ومشهد وسط حكم النذل. قليل: وسط لا يحل محل بين، وبين لا يحل محل وسط، لانك تقول: البئر وسط الدار، ولا تقول: البئر بين الدار» (١٢٩).

حروف الجر:

قال أبو تمام:

لم تطلع الشمس فيه يوم ذاك على بان باهل ولم تقرب على عزب جاء في النظام: «يقال: بنى على اهله، ويكرهون: بنى باهله، وهو خطأ. وكان الاصل فيه ان الداخل على اهله كان يضرب عليها قبة ليلة دخوله بها، فقليل لكل داخل باهله: بان» (١٣٠). وقال المعري: «ولا يمنع القياس دخول الباء في هذا الموضع، ويكون المعنى: بنى باهله، أي من أجلهم، كما يقال للرجل: خذ هذا بما فعلت، أي من أجله» (١٣١). ولكن دفاع المعري هذا لم يقنع ابن المستوفي، فقال: «واللغة انما يوقف عليها مع السماع، والاول الصحيح» (١٣٢).

الاعراب:

أخذ الامدي على أبي تمام قوله:

ثانية في كبد السماء ولم يكن لاثنين ثان اذهما في الغار

فقال: «معنى هذا البيت ان بابك صار في الصلب جاراً لمازيار، وهو ثانيه في كبد السماء، ولم يكن ثانياً لاثنين اذ هما في الغار، انما هو ثاني اثنين في الصلب، الذي هو رذيلة، وليس هو ثانياً لاثنين في الغار، لان تلك فضيلة. فكان يجب ان يقول في البيت: (ولم يكن لاثنين ثانياً) لانه خبر يكن، واسمها هو اسم بابك مضمرة فيها، فليس الى غير النصب سبيل في البيت» (١٣٣).

وأخذ الامدي على أبي تمام قوله:

يوم أفاض جوى اغاض تمزياً خاض الهوى بحري حجاج المزيد

فقد قال الامدي: «قال: بحري حجاج المزيد وخفضه، وكان وجهه ان يقول (المزيدين) صفة للبحرين» (١٣٤). وقال ابو تمام:

يا غالباً لا غالباً لرزية بل الموت لاشك الذي هو غالب

فقال ابو العلاء: «اذا صحت الرواية على هذا اللفظ فقولوه (يا غالباً) نداء للذي يرثيه، واسمه غالب، وتنوين العلم المنادى محسوب من الضرورات، والنحويون فيه مختلفون، بعضهم يختار النصب، وبعضهم يختار الرفع، وهذا البيت ينشد نصباً:

ضربت صدرها اليّ وقالت يا عدياً لقد وقتك الاواقي

وبيت الاحوص ينشد على الوجهين:

سلام الله يامطرُ عليها وليس عليك يامطر السلام» (١٣٥)

وقال ابو تمام:

جلير بان يستحيي الله بابياً به ثم يستحيي الندى ويراقبه

فقال المعري: «يستحيي الثانية رفعها لمكان القافية، لان لا يمكنه فيها غير ذلك، ولو جعلها في موضع نصب لكان قد أسكن الياء في موضع التحريك، وذلك رديء، والكوفيون يرون ان الناصب اذا لم يصحب الفعل رفعه جائز. ورفع (يستحيي) اوكد لرفع (يراقبه) لان المرفوع يكون تابعاً لمثله» (١٣٦). اما ابن المستوفي فقد خرج رفع (يستحيي) الثانية بقوله: «ولو رفعه على تقدير (ثم هو يستحيي الندى) كان جائزاً» (١٣٧). التعدي واللتزم:

قال ابو تمام :

هما أظلماً حالّي ثمت أجلياً ظلاميهما عن وجه أفرّأ أشيب^(١٣٨)

قال ابو العلاء : « جعل (أظلم) ها هنا متعدياً ، وذلك قليل في الاستعمال ، وهو في القياس جائز ، وهو على قياس من قال (ظَلِمَ الليل) في معنى (أظلم) . فان ادعى ان (أظلم) هنا غير متعد ، وأن (حالّي) منصوب كانتصاب الظرف ، فان قوله (اجلياً ظلاميهما) يرفع ذلك ، لانه عدّى (أجلياً) الى الظلامين » .^(١٣٩)

التحذير :

قال ابو تمام :

انظر وياك الهوى لا تُمكنن سلطانة من مقلة شوساء^(١٤٠)

جاء في النظام : « قال التبريزي : كان النحويون المتقدمون يرون ان إياك ينبغي أن تستعمل مع الواو ، مثل قولهم : إياك وزيداً ، وينكرون مجيئها على غير ذلك ، الا أن تستعمل بـ (أن) كقولك : إياك أن تقوم ، والواو عندهم مُراداة . وكذلك تحذف حروف الخفض معها كقولك : أمرتك أن تفعل ، والمراد بان تفعل ، فان عدمت قبح عندهم الحذف الا في ضرورة الشعر كقوله :

إياك إياك المراء فانه الى الشر دعاء وللشر جالب

واصحاب هذا القول يرون ان الحذف جاز مع (المراء) لانه مصدرلـ (ماريت) فهو مؤد معنى (ان تماري) ، وكذلك الهوى مؤد معنى (ان تهوى) . وأما غير هؤلاء فلا يرون بحذف الواو باساً مع (أن) وغيرها . لانهم يتأولون المعنى اذا قالوا (إياك ان تقوم) على تقدير (احذر ان تقوم) » .^(١٤١) اضافة (ذو) الى الضمير :

قال ابو تمام :

غدوث بهم أمذ ذوي ظلاً واكثر من ورائي ماء واد

جاء في النظام : « وقوله : (ذوي) اضاف (ذوي) الى الضمير ، وذلك قليل ، فاما النحويون فيذكرون أنه لا يجوز » .^(١٤٢)

يتضح مما تقدم ان ما نسب الى ابي تمام من مخالفة للغة ، او استعمال للاوجه الضعيفة منها ، ليس سببه - كما قال الامدي وغيره - الجهل بالتعبير الراجح ، او المجمع على صحته ، وانما مبعثه مسامحة نفسه ، او احتفاله بالمعنى على حساب التعبير .

لقد اخذ الامدي على ابي تمام استعمال بعض الصيغ الصرفية ، من ذلك قوله :

أخي ان الصبا استمر به سير الليلي فانهجت بُرُده

فقال : « أنهجت (بُرُده) يريد (بروده) وفعل على تجمع فُعل » .^(١٤٣) وقوله :

ملكته الصبا الولوع فاك فته قعود البلى وسؤر الخطوب

قال الامدي : « قوله (الصبا الولوع) وانما اراد المولعة بالهبوب لانها اكثر الرياح هبوباً ، ولا اعلمه يقال : وُلِعَ بالشيء يولع فهو ولوع ، ولكن قد سمعت وُلِعَ مثل وزع يزع وولُوع بكذا ، واللغة المعروفة أولعت بالشيء فانا مؤلَع والمصدر الولوع » .^(١٤٤)

واخذ عليه غير الامدي في مجال الصيغ قوله :

أجبتة معلنا بالسيف منصلتا ولو اجبت بغير السيف لم تجب

قال المعري : « لا يعرف صُلَّتْه فانصلت » .^(١٤٥) وقوله :

على كل رؤاد الملاط تهدمت عريكته العليا وانضم حالبه

قال المعري : « والعريكة السنام ... وقونه العليا جاء بها كالمستعارة ، وليس هذا من مواضع العليا الممدودة ، ولكنه من مواضع العلّيا في وزن (الفُعْلَى) لانه لو قلت : تهدم سنامه قلت الاعلى ، والفعلّى أثنى الافعل » .^(١٤٦)

وقد ياتي ابو تمام بالصيغة على غير المعهود لان القياس يجيزها ، نحو قوله :

حواقله وأصبية ترامت بهم بيد الدخالة والسهوب

قال ابو العلاء المعري : « حواقله اي شيوخ الواحد حوقل وأصبية جمع صبي على القياس والمستعمل صبية » .^(١٤٧)

وقد يستعمل ابو تمام صيغاً مرجوحة ، غيرها أولى بالاستعمال ، من ذلك قوله :

وأحيا سبيل العدل بعد دُثوره وأنهج سُبُل الجود حين تعفّت

قال ابن المستوفي : « أنهج بمعنى أوضح من قولهم طريق نهج اي واضح ، والمعروف نهجت الطريق بغير الف اذا أوضحت ، ولعل أنهج لغة فيه » .^(١٤٨) وقوله :

قمر تبسم عن جُمان نابت فظللْتُ أرمقه بعين الباهت

قال ابن المستوفي : « وقوله (باهت) الافصح عندهم (بُهت) فهو مبهور وقد حكى (بُهت) ، وقرأ بعضهم

(فَبِهَتْ الذي كفر) ، ثم قال : « قال الجوهرى بهت الرجل بالكسر اذا دهش وتحير وبهت بالضم مثله ، وافصح منهما بهت كما قال جل ذكره (فَبِهَتْ الذي كفر) لانه يقال رجل مبهوت ولا يقال : رجل باهت ولا بهيت ، قاله الكسائي » . (١٤٩) وقوله : ضَرَحَ القَذَى عنها وشَذَبَ سيفُهُ

عن عيصها الخُزَاب والخُبَاتَا

قال ابو العلاء : « الخُزَاب جمع خارب وهو الذي يسرق الابل خاصة ، والخُبَات جمع خابث ، والمستعمل خبيث . وقد يجوز ان يقال خابث على غير الفعل أي ذو خبث كما يقال : تامر ولابن » . (١٥٠) وقوله :

ففي كل نجد في البلاد مغائر مواهب ليست منه وهي مواهب قال المعري : « يعني بـ (غائر) غوراً ، وكأنه على حذف الموصوف ، تقديره (وفي كل نجد ومكان غائر) . (١٥١) وقد وقف اللغويون امام طائفة مما اورد ابو تمام من صبيغ ، فذهبوا الى انها لم ترد عن شاعر قبله ، من ذلك قوله : بمختبل ساج من الطرف أحور ومُختَبَل صاف من الثغر أشنب

قال المعري : « واذا رويت ومُختَبَل فهو التقبيل .. والاعتبال من التقبيل معدوم في الشعر العربي القديم » . (١٥٢) وقوله :

من المَعْطِيَّات الحُسْن والمُؤْتَيَّاتِ

مُجَلَّبَةٌ أو فاضلاً لم تُجَلَّبْ

قال المعري : « اذا رويت (فاضلاً) فهو فاعل من (الفضل) . يقال : امرأة فَضُل اذا كانت في ثوب واحد . وقد يقال : ثوب فَضُل اذا لم يكن على اللابس غيره . فان ثبت انه قال (فاضلاً) وهو يزيد (الفضل) فهي كلمة لا تعرف في غير كلام المتقدمين ، وانما المعروف : تَفَضَّلَت المرأة اذا كانت فَضُلاً » . (١٥٣)

وقد يورد ابو تمام الكلمة مجموعة ثم يعاملها معاملة المفرد فيثنيها ، من ذلك قوله :

إن الأسنة والمائتي منكثرا فلا الصيامي لها قدر ولا الهلب (١٥٤)

قال المعري : « وقوله : مذكثرا جعل الاسنة والمائدي كالاثنتين وان كل واحد منهما يقع على جمع ، وهذا مثل قول الاسود بن يعفر : ان المنية والحتوف كلاهما يوفي المخارم يرقبان سوادي

فجعل الحتوف وهو جمع كالواحد فنثنى » . (١٥٥) ومما تجدر الإشارة اليه في مجال الصبيغ ابي تمام شغف

أبي تمام باستعمال المثني شغفاً واضحاً دون ضرورة . (١٥٦) من ذلك قوله :

تحملت مالمو حُمَل الدهر نصف لفكر دهرأ اي عبايه اثقل وقوله :

لو أن دهرأ رد رجع جوابي أو كف من شاويه طول عتابي

وقوله :

أبقي على جولة الايام من كُتِفِي رضى وأسر في الافاق من مثل

وقوله :

فما فضبتنا رضى ولائكن مُعِنِّي ولا الطوبى من ركن ولا أنف ينبلأ باثقل منه وطاة حين يفندي فيلقى وراء الملك نحراً و كُكُلَا

٣

الدلالة

استعمل ابو تمام كثيراً من الالفاظ في غير ما وضع لها من معان ، فانكر اللغويون ذلك عليه ، لانهم تمسكوا بالمسموع ، ولم يرتضوا ان تستعمل الكلمة في معنى غير الذي استعملها فيه العرب الذين يوثق بلغتهم ، ومن هذا الضرب من الاستعمال اللغوي قوله :

ومها من مها الخدود وآجا ل طباء يسر عن في الاجال

فقال النقاد : « وهذا مما غلط فيه ابو تمام لان الاجال جمع (إجل) وهو القطيع من البقر ، يقال : سرب من قطا وسرب من نساء وسرب من طباء » . (١٥٧)

ولم يرض الامدي عن ابي تمام لانه استعمل (الالتدام) وهو ان تضرب النساء صدورهن في النياحة بمعنى (اللطم) وهو ضرب الخدود . قال ابو تمام :

لها من لوعة البين التدام يُعيدُ بنفسجا ورد الخدود

فقال الامدي : « والتدام النساء في النياحة انما هو ضرب الصدور ، واللطم هو ضرب الخدود ، هذا المستعمل المعروف في كلامهم ، فاللطم هو الذي يعيد بنفسجا ورد الخدود لا الالتدام ، لان الالتدام أن تأخذ المرأة جلدأ أو نعلأ فتدق به صدرها .. فجعل ابو تمام لطم الوجه لدمأ » . (١٥٨) ثم عاد الامدي فقال : « ولعل ذلك يسوغ فان اللطم هو دق الشيء على الشيء » . (١٥٩) ولم يرض اللغويون عن استعمال ابي تمام الفعل (جُد) بمعنى (جَب) في قوله :

من نكبة محفوفة بمصيبة جُد السنام لها وجُد الغارب

جاء في النظام : « فاستعمال (جُب) في السنام اكثر من كلامهم في استعمال (جُد) وتعدوه الى الظهر ، قال النابغة : ونمسك بعده بذناب عيش أجب الظهر ليس له سنام

ولم يقولوا : بعير أجد السنام » (١٦٠)

وقد غير ابو تمام مجال استعمال الفعل (فَرَك) فقال : واذا نعمة امرىء فَرَكْتَهُ فَأَهْتَصِرْهَا اليك وَلَهَى عَزْوِيَا

فقال المعري : « فَرَكْتَهُ من (فَرَك النساء) وهو بغضهن لازواجهن ، وما أخرج الفُوك من الحيوان الى غيره من الشعراء أحد قبل الطائي . وقوله : فاهتصرها اي اعطفها اليك » (١٦١) وفات المعري ان يئنه هنا ايضاً على أن أبا تمام نقل (العزوب) من وصف للمرأة الى وصف المعنويات ، فقد وصف بها النعمة ، وهذا مذهب عُرف به ابو تمام - كما تقدم - وهو استعمال الالفاظ بعلاقات جديدة ، لم يالفها الناس .

٤

ظواهر لهجية

كان ابو تمام كثير الاستعمال للغة طيء التي هي قبيلته (١٦٢) ومن مظاهر هذه اللغة في شعره :

أ (لغة (يتعاقبون فيكم ملائكة) التي نسبت الى قبائل اخرى من اليمن مثل بلحرث « ولكن الحاج ابي تمام عليها يوثق الرأي القائل بأنها لغة طيء » (١٦٣) من ذلك قوله : وأُخِيسَ بِمَجْدٍ عاد فيه نواله وشاعر قوم عُذْن فيه قصائده

وقله :

شجا في الحشا ترداه ليس يفتُرْ به ضُننْ آمالي وإنني لَمُفْطِرْ

ب (حذف تاء التانيث التي تلحق الماضي حين يكون فاعله جمعاً غير عاقل كقوله :

كم انجبوا قمرأ جلا أفعاله قمرأ ومكزمة تناغي الفرقدا

ولو قال : (جَلَّتْ أفعاله) لاستقام الوزن .

ج (استعمال (نو) الموصولة ، يقول : أنا ذو عُرْفَتٍ فَإِنْ عَزَّتْكَ جهالة فانا المقيم قِيامة العُذال

د (وفي شعره من لغة ظبيء قوله :

هل أوريق المجدُّ الا في بني أدبٍ أو اجتنى منه لولا طييء تمرُّ

قال التبريزي : « اذا كان آخر الماضي ياء وة بلها كسرة

فسيء تقلبها ألفاً فيقولون (اجتنى) في (اجتنى) و (اقتنذ) في (اقتنذ) ومن العرب من يسكن وهي لغة رديئة ، والاغلب ان يكون الطائي سكن الياء هنا ولم يستعمل اللغة الطائية » (١٦٤)

هـ (ويقول قوم من طيء (دفن البناه من المكرمه : موضع قول غيرهم (دفن النبات من المكرمات) فيقول ابو تمام : إحدى بني بكر عبد مناه بين الكتيب الفرد والامواه ألقى النصف فانت خاذلة أمنية الخالي ولهو اللاهي المني

و (وكان ابو تمام « ذا علم بلهجات القبائل » (١٦٥) فنحن نرى قوله :

تَكَلْتُ قصائدي إن مَرَّ يومٌ ولما اقض فيه منك نَحْبا وكنتُ اذن كانت فانْ مثلي اذا ماكان مثلك كان كلبا

فاستعمال ضمير الرفع (انت) بعد الكاف لغة نادرة (١٦٦)

ثالثاً : تعقيب وتقويم

لا بد من الإشارة الى جملة أمور تميز بها مذهب أبي تمام الشعري ، أولها أنه شاعر جانب (الطبع) واعتمد على (الصنعة) في شعره ، فقد كان يعتقد ان الشعر فن ، وأن الفن لا يؤاتي صاحبه اذا ارسل نفسه على سجيته ، وأخذ ما يطفو على سطح خاطره ، بل لابد له لكي يكون الفن فناً ان يبذل جهداً ، وأن يشقى شقاء ما ، حتى يستوي له الفن ، ويؤاتيه منه ما يرضيه .

والثاني أنه أخذ بما كان مسلم بن الوليد قد اكثر منه من فنون البديع ، مما عرف بالمحسنات البديعية من طباق وجناس وغيرهما ، فاضاف اليها ماسماه بعض النقاد (التشخيص) او (التجسيم) ، فظهر شعره على نحو لم يالفه النقاد ، ولم يصادفوه في نماذج القدماء من شعراء العربية ، فاستقبحوه واستغثوه ، وهو لم يكن في جملته قبيحاً ولا غثاً ، وانما كان (غريباً) حقاً ، وهناك فرق بين (القبح) و (الغرابة) ، ولعل خير ما يمثل مجانية ابي تمام مذهب مسلم في المحسنات قوله :

كل يوم له وكل أوان خلق ضاحك ومال كئيب

فانت ترى في البيت (طباقاً) بين الضحك والكآبة ، ولكن أبا تمام لم يكتف بمجرد المطابقة بل زاد عليها لوناً آخر هو

(التصوير) أو (التشخيص) إذ جعل الخلق في صورة ضاحك ، وأبرز المال في هيئة شخص كئيب . وقوله :

أبست فوق بياض مجدك نعمة

بيضاء تسرع في سواد الحاسد

فالبياض والسواد لا يكفيان أبا تمام وهو الصانع الحائق ، الذي لا يأخذ عفو خاطره ، ولا يغترف من فيض طبعه ، وإنما يضيف الى الطبايق لوناً جديداً من الفن شغف به ، وأكثر منه هو (التشخيص) أو (التجسيم) أو ما سماه أرسطو « قوة وضع الأشياء تحت العين » ،^(١٦٧) فعبر عن (غيظ) الحاسد بالسواد وعن (نعمة) ممدوحه بالبياض « ولم يكتف بذلك بل جعل هذا البياض يسرع في السواد وينتشر فيه » .^(١٦٨) وقوله :

وأحسن من نلّ تقنحه الصبا بياض المطايا في سواد المطالب

لقد استخدم الطبايق حقاً ، ولكنه لم يكتف به ، بل شغفه بلونين آخرين هما (التشخيص) و (الحركة) فقد مثل العطايا في هيئة شخص اتخذ البياض لوناً ، ومثل المطالب شخصاً آخر اتشح بالسواد ، وجعل أحدهما يتحرك في الآخر وينتشر فيه .

إن هذا النمط من التعقيد في تناول مقومات الفن الشعري هو ما امتاز به أبو تمام ، وانفرد به عن أستاذه مسلم بن الوليد ومن سبقه من شعراء ، كانوا يعمدون الى الطبايق أو الجناس على نحو لا إغراق فيه من جانب ، ولا توشية له بلون جديد آخر هو (التشخيص) أو (التجسيم) .

والثالث أنه شاعر استجاب لمتطلبات عصره الثقافية والحياتية ، فآلم بالوان العلوم التي ظهرت في ذلك العصر ، وأخذ نفسه بثقافة وسعة حتى قالوا عنه أنه عالم .^(١٦٩) وقد اضاف الى هذه الثقافة ثقافة فنية لا تقل عنها اتساعاً « فقد كان مستبحراً في الرواية » ،^(١٧٠) وقد أثرت ثقافته العلمية في شعره فظهرت فيه بعض مصطلحات العلوم ، كما سلف به البيان ، وأثرت في شعره أيضاً ثقافته الفنية ، فظهرت في ذلك الشعر أمارات تدل على خبرة واسعة في اللغة ، وتمرس طويل بالأساليب .



وأما النقاد الذين تناولوا شعر أبي تمام ، وأكثرهم من المحافظين ، فقد اتسم نقدهم بأمرين :

الأول (الاحتكام الى القديم)

ولا نريد هنا أن نفرض من مبدأ الاحتكام الى القديم في اللغة ، ذلك لأن وعي الناقد بالتقاليد الأدبية التي سبقته وعاصرتها أمر محمود ، ومبدأ ضروري ، يعين الناقد على تقويم

الجديد ، وميز عناصره ، غير أن الذي يخشى منه هو أن يسرف الناقد في تطبيق هذا المبدأ الى الحد الذي « يحول بين الفنان وبين (كذا) التطور الذي ينشده » .^(١٧١)

كانت عودة بعض النقاد الى القديم واستشارتهم آياه في أمر الجديد موقفاً لا مفر منه للناقد الحصيف ، ليستطيع أن يقف على ما حققه المجددون ويفصل فيه ، فيقبل الاصيل ويرفض الزائف . فالجديد لا يعرف الا بعرضه على القديم وموازنته به ، وهذا مبدأ سليم . ولكن الذي تورط فيه النقاد المحافظون هو أنهم لم يرجعوا الى القديم لتعرف العناصر الجديدة ، وتقدير قيمتها ، بل رجعوا اليه ليتخذوا منه مقياساً ، فيقبلوا ما وافقه وسار على نهجه ، ويرفضوا ما خرج عنه ، ولم يلتزم امتلته ، او المعروف المتداول من قيمه وأساليبه .

ومما سوغ لهم هذا الموقف ، وصرفهم عما ينشأ عنه من ضرر باللغة والأدب ، ايمانهم « بأن الشعر والنثر نوعان من الكلام البليغ ، لا شكلان متميزان من التعبير » ،^(١٧٢) وقد ذهبوا نتيجة لذلك الى أن دور الكلمات في الشعر لا يتمايز من دورها في النثر ، وأن طبيعة استخدامهما في كلا الفنين واحدة ، وأن فهموا الامر على هذا النحو لم يمنحوا الشاعر حرية التعامل مع اللغة ، ولم يجيزوا له ان يتعدى اطرها الثابتة ، أو يحطم نسقها المتعارف عليه . وهم بذلك لم يصدروا عن فقه صحيح للفن الشعري ، وما تفرضه التجربة أحياناً من تصرف في اللغة ، واستخدامها استخداماً خاصاً . وبعبارة أخرى ان اولئك النقاد نظروا الى الشعر نظرة بعيدة من طبيعته بوصفه نشاطاً تخييلياً ، من حقه ان تستخدم اللغة فيه على الوجه الذي يتطلبه هذا الضرب من النشاط ، وحاولوا ان يفرضوا عليه نظاماً صارماً لا يسمح بأي تجديد أو تغيير . وهذا يعني أنهم تغافلوا عن ان اللغة في الشعر « لغة انفعالية مرنة ، بل أميز ما فيها هو هذه المرونة التي تجعلها متجددة دائماً بتجدد الانفعالات ، فالانفعالات الجديدة تستخدم الالفاظ دائماً استخداماً جديداً » .^(١٧٣)

وتبعاً لمعيار (الاحتكام الى القديم) او الى ما يسمى (طريقة العرب الاوائل) عاب اسحاق الموصلي أبا تمام وقال له : « يافتي ما أشد ما تنكئ على نفسك ، يعني أنه لا يسلك مسلك الشعراء قبله ، وإنما يستقي من نفسه » .^(١٧٤) وقد مر بنا في (مجازات أبي تمام) ما انكره النقاد ولا سيما الأمدي من بعض المجازات لخروجها عن مذهب العرب الاوائل في الاستخدام الفني للغة ، ونذكر هنا بيته المشهور :

رقيق حواشي الحلم لو أن بكفيك ما ماريت في أنه برد حلمه

فقال ابن عمار : « هذا هو الذي اضحك الناس منذ سمعوه وإلى هذا الوقت » .^(١٧٥) أما الأمدي فلم يكتف بالسخرية من الشاعر ، بل قال : « والخطأ في هذا البيت ظاهر

لاني ما علمت احداً من شعراء الجاهلية والاسلام وصف الحلم بالرقعة ، وانما يوصف الحلم بالعظم والرجحان والثقل والرزانة » .^(١٧٦) ثم ساق عدداً كبيراً من الشواهد على ذلك ، اختارها من شعر الجاهليين والاسلاميين وذكر ان العرب كانوا اذا ذموا الحلم وصفوه بالخفة ، وايد ما ذكره بشواهد كثيرة . ثم اخذ على ابي تمام انه وصف البرد بالرقعة ، وقد جرت العادة بوصفه بالثانة والصفاقة . واستنكر اشد الاستنكار قوله (لو ان حلمه بكفيك) . ثم اقر الامدي بان ابا تمام لم يكن ليذهب هذا المذهب في شعره ، جهلاً منه بالمتعارف من وصف الحلم ، او نعت البرد ، فكثيراً ما جاء في شعره وصف الحلم بالرزانة ، مقتدياً في ذلك بالعرب ، ولكنه كان يجنح في بعض الاحيان الى مغايرة ما تعارف عليه الناس .^(١٧٧) وفي « مغايرة ما تعارف عليه الناس » من علاقات بين الالفاظ يكمن الابداع احياناً ، وتبرز شخصية الاديب .

لقد عبر الناس مثل ابي تمام وهم يجدون الحلم مقروناً الى الرزانة ، او موصوفاً بها ، ويجدون البرد مضموماً الى اللفظة او المتانة ، فجاء ابو تمام فلم يشأ ان يجري على ما جرى عليه الناس او ان يأخذ بقوالهم واستعمالاتهم ، فانشأ للحلم قريباً آخر ، وابتدع له الفا جديداً ، وضم اليه كلمة اخرى ، غير التي لصقت به زمناً طويلاً فقال : (رقيق الحلم) وفعل مثل ذلك في تغيير العلاقة بين (البرد) و (المتانة) فقال (رقيق البرد) . ان عمل ابي تمام هذا هو الذي قصدناه حين قلنا ان الاديب يبتعد احياناً ، عن العلاقات المألوفة بين الالفاظ ، وينشيء سياقاً لغوياً جديداً غير الذي سكن اليه الناس ، والفوه .

ثم ان ابا تمام ان خرج عن طريقة العرب في التعبير عن (الحلم) و (الحليم) فانه لم يخالف اهل عصره في نوقهم اذ « ليس بغريب ان يوصف الحلم في عصر تسوده الحضارة والمدنية كالعصر العباسي بغير ما يوصف به في عصر تسوده البداوة والروح القبليّة كالعصر الجاهلي الذي كان يحتكم الى مبدأ القوة في كل شيء حتى لتبدو قيمه الخلقيّة والاجتماعية منتزعة من هذا المبدأ » .^(١٧٨) ولهذا كان من الطبيعي ان يوصف حليم العصر الجاهليّ بأنه الثابت كالطود ويوصف حليم العصر العباسي عصر الحضارة والمدنية بأنه الرجل الرقيق الذي لا يواجه مصاعب الحياة الا بوجه باش وثغر مبتسم .^(١٧٩) ولا عيب ايضاً في « أن يشبه ابو تمام رقعة حلم هذا الرجل برقة البرد ونعومته ، فليس من الضروري ان يكون البرد خشناً صفيقاً على الدوام ... ولا شك أن برد عصر البداوة كان يختلف عن برد عصر الحضارة » .^(١٨٠) فبرد عصر البداوة كان ينسج من الصوف ، ولذا شاع وصفه بالثانة والصفاقة ، « أما برد عصر الحضارة فيبدو انه كان يصنع من أنسجة رقيقة ناعمة تمشيياً مع رقعة حياة اهل ذلك العصر وترفهم في اختيار الملابس والازياء » .^(١٨١)

والثاني (التعصب على ابي تمام) والإفراط في ظلمه ، فقد أخذوا عليه ما لو اتسموا بالنصفة ، لما رأوا أنه معيب ، أو مردود . ومن امثلة مبالغتهم في نقده ، ورد ما لا عيب فيه من الفاظه وعباراته ، وقوف الامدي عند لفظة (عكاظ) في قوله : قد عهدنا الرسوم وهي عكاظ للصبا تزدهيك حسناً وطيباً

قال الامدي : « ولو قال : (سوق) لكان أجود من قوله (عكاظ) ، وانما ذهب الى ان عكاظ من اعظم الاسواق التي تجتمع اليها العرب ، وقد كان يكفي ان يقول (سوق) فيأتي باللفظة المستعملة المعتادة . وان السوق قد تكون عظيمة أهلة ، وعكاظ أيضاً سوق ، فما وجه التخصيص في موضع العموم ، والعموم أجود وأليق ؟ وقد يجوز أن يكون احتذاه على مثال ، والرديء لا يعتبر به ، وعلى ان الوزن لم يمكنه من سوق » .^(١٨٢) لم يكن الامدي مصيباً في عيب كلمة (عكاظ) وتفضيل كلمة (سوق) عليها ، فمما اعتاده الشعراء ان يذكروا في قصائدهم اسماء المواضع والاماكن ، لما لهذه الاسماء من احياء ، وما تبعث به من طلال ، فعكاظ تستدعي الى خاطر ما يعرفه السامع عنها ، وما كان يشاهد فيها ، فيكون ذلك ادعى الى تأثره باللفظة ، وانجذابه نحوها ، اما كلمة (سوق) فكلمة عامة ممسوحة ، لا تتعلق بها ذكريات ، ولا تبعث خيالا او عاطفة . وقد أشار بعض النقاد المحدثين الى ان معنى اللفظة في الشعر لا يقتصر على المعنى المقابل لها في المعجم « بل يشمل الارتباطات التي تتبعها اللفظة مفردة ومجموعة مع غيرها . فوظيفة اللفظة في الشعر ليست مجرد الإشارة الى الشيء ، وانما للغة في الشعر مكونات ثنائية وثلاثية ورباعية كما يقول كولرد » .^(١٨٣)

وقوف الامدي عند قول ابي تمام :
وأقاصٍ منوّزٍ في بطاح هزه في الصباح روض أريض

قال الامدي : « وقوله : (هزه في الصباح روض أريض) ليس بالجيد اللائق ، لأن الاقاصي هي من الروض ، والروض انما يهزه ويحركه الندى والنسيم ، لا أن يهزه بعضه بعضاً » .^(١٨٤) لقد ذهب الامدي الى (الهز) الحقيقي المادي الذي يسببه النسيم ، وتراه العيون ، وغفل عما قصده الشاعر من هز آخر لاتحسه العيون ، وانما يتمثل للخيال فحسب ، ويتراءى للنفس وحدها ، وهو تمايل خفي تبعته رؤية الازهار بعضها بعضاً ، وهي مطلولة تستقبل الصباح على غصونها ، فتنتشي وتتمايل ، لكأنني بالامدي ، وهو يعيب عبارة ابي تمام هذه ، يجهل لغة الشعر ، وتخفى عليه أسرارها .
ولعل من أوضح ما يمثل ظلم بعض النقاد لابي تمام وقوف الامدي عند قوله :
إن الخليفة قد عزت بدولته دعائم الدين فليعزز به الادب

لقد علق الامدي على هذا البيت قائلاً : « دعائم الدين قد توصف بانها ثبتت او تمكنت وأقامت وتوطدت ، فهذا هو اللفظ المستعمل ، الا ترى أنها اذا وصفت بغير هذا الوصف قيل : وهت وسقطت وخزت ، وهذا ان لم يكن خطأ فليس بالجيد لانه لفظ موضوع في غير موضعه » .^(١٨٥)

إن ما قصده ابو تمام بلفظة (عزت) هو أعم وأشمل من اللفظ الذي اقترحه الامدي وارتضاه ، فعز الدعائم يعني ثباتها وبوامها وهيئتها وامتناعها على من يرومها بنقض او تهديم . ولعل كلمة (عزت) البقية بلغة الشعر ، وما تقتضي من اثارة وتحريك خيال . من كلمة (ثبتت) او (رسخت) وغيرهما . وقد أصاب ابن المستوفي في رده الامدي هنا بقوله : « كان الامدي كثير التعصب على ابي تمام ، وهذا الذي ذكره هو على ما ذكره من اوصاف الدعائم حقيقة ، فاما مجازاً فجازز جوازاً حسناً ، هذا اذا كانت لفظة (عزت) ضد لفظة (نلت) ، فان اراد بها الشدة والقوة من قولهم (من عز بَز) ومن التفسير في قوله تعالى (فعزنا بتالث)^(١٨٦) مخففاً ومشدداً اي قوينا وشددنا فهو موضوع في موضعه على الحقيقة » .^(١٨٧)

ومثل ذلك وقوف بعض النقاد عند قول ابي تمام :
اعانلتي ما أخشى الليل مركباً وأخشن منه في الملة ركباً

اذ قال هذا الناقد : « ولم يسمع مركب خشن »^(١٨٨) بل المسموع (مركب وغر) . وليست بي حاجة للتعليق على هذا النقد ، فاللغة ليست من الجمود والتحجر بحيث لا تبيح للشاعر ان يستبدل بـ (وعر) كلمة (خشن) .

وقبل أن اختتم الكلام على ظلم بعض الناقد لابي تمام ، أود الإشارة الى ان هذا الظلم دعا المروقي الى تأليف كتاب سماه (الانتصار من ظلمة ابي تمام) نقل التبريزي في شرحه كثيراً منه ، ومما نقله عبارات المروقي في تعنيف اولئك النقاد ، واتهامهم لهم بأنهم لم يفهموا معاني ابي تمام ، من ذلك قوله : « اعلم ان هذا المنكر لم يفهم عن الرجل ما قاله ، فأخذ ينكر عليه مالم يدركه » ، وقوله : « ولعمري ان أكثر من يذهب عن طرائقه فانما يؤتى من سوء الفهم عنه »^(١٨٩) وقوله غير مرة : « وأنكر بعضهم قول ابي تمام كذا ... وقد ظلم هذا الانسان ابا تمام ظلماً مبيناً » .^(١٩٠)

٣

وأما اللغويون الذين عرضوا لشعر ابي تمام فقد برزت في ملاحظاتهم عليه ظواهر ثلاث :

الاولى (التقيد بالعرف اللغوي) ، وزاد من صرامة هذا التقيد أن جل اللغويين الذين تصدوا للنظر في شعر ابي تمام

كانوا من مدرسة البصرة ، وهي مدرسة لا تحتكم الى الشائع المطرد من كلام العرب ، ولا تقييم وزناً للمحاولات اللغوية الفردية ، لانها تحاول ان تقييم للغة نظاماً شاملاً ، ونسقاً صلباً ، لا يمكن تجاوزه ، او الخروج عنه ، وقد اعتمدت في اقامة هذا النظام اللغوي الشامل على اساس من لغة الشعراء القدامى ، بمعنى ان هذه اللغة اصبحت المعيار الاساس الذي يرجع اليه في تقويم شعراء المحدثين ، ومثل هذا المعيار يحتم على اللغوي ان يصم بالخطا « كل من يخرج في اللغة على ما عرفه الاولون وانتهوا اليه » .^(١٩١)

وتبعاً لهذا المعيار اي التقيد بلغة القدامى ، او ما يسمى طريقة العرب الاوائل ، رفض اللغويون كثيراً من الصيغ والعبارات التي ابتعد فيها ابو تمام عن الاطر اللغوية المألوفة . واذا اردنا لغوياً تمثلت في احكامه النظرة المحافظة للغة فهو الامدي ، الذي قدمنا أنه كان تلميذاً مخلصاً للاخفش ، درس عليه ، ورصي منهج البصريين . لقد هدف الامدي الى تجميد اللغة ، واراد لابي تمام أن يسير داخل الاطر اللغوية الجاهزة ، وقد جاء حكمه المشهور « اللغة لا يقاس عليها » دليلاً على شدة محافظته . وواضح أن « مثل هذا الحكم العام يتنافر مع الفهم الصحيح للفن وحركة تطوره المستمرة التي لا تنتهي عند حد ، كما انه لا يؤثر بالضرورة في منهج الناقد الذي قد يهمل في حدود هذه النظرة المحافظة الكثير من الجديد الذي قد يحققه الفنان » .^(١٩٢) ومن هنا حكم الامدي على ابي تمام بالخطا كلما خرج عن تقاليد اللغة والادب^(١٩٣) من ذلك انه عاب على ابي تمام قوله : (لا أنت أنت ولا الزمان زمان) ، ورأى في قوله : (لا أنت أنت) تعبيراً شعبياً ، وانكر أن يقيسه على قول من قال من العرب القدامى (ولا العقيق عقيق)^(١٩٤) « وفي هذا ما فيه من تأثر بالاحتكام الى القديم وحده ، ونظرتة الى اللغة القديمة نظرة تقديس » .^(١٩٥)

وفي نقد الامدي امثلة اخرى على ما تورط فيه من تعنت وجمود ، نتيجة لتمسكه بأن « اللغة لا يقاس عليها » ، ولا ينبغي التجديد فيها ، من ذلك انه نقد ابي تمام :

فافزع الى نحر الشؤون وعذبه فالدمع يذهب بعض جهد الجاهد
قال الامدي : « قوله (يذهب بعض جهد الجاهد) اي بعض جهد الحزن الحزن الجاهد اي الحزن الذي جهدك ، فهو الجاهد لك . ولو كان استقام له (بعض جهد المجهود) لكان أحسن واليق ، وهذا أعذب وأظرف . وقد جاء ايضاً (فاعل) بمعنى (مفعول) قالوا (عيشة راضية) بمعنى مرضية ، و (لمح باصر) وانما هو (مبصر فيه) واشباه هذا كثيرة معروفة ، ولكن ليس في كل شيء ، وانما ينبغي ان تنتهي باللغة الى حيث انتهوا ولا يتعدى الى غيره ، فان اللغة لا يقاس عليها » .^(١٩٦)

وليس على ابي تمام باس اذا استعمل (جاهد) بمعنى (مجهود) لان لاستعماله هذا نظائر كثيرة ، كقولهم (عيشة راضية) بمعنى (مرضية) و (نهار صائم) اي مصوم فيه ، ولكن نظرة الامدي الضيقة للغة هي التي دفعته الى عدم الاخذ بالقياس ، ثم تخطئة ما لم يرد عن القدماء .
والثانية (عدم التفريق بين الخطا والتطور) .

ان كل لغة يعروها مع الزمن شيء من التحول ، وذلك لصلتها الوثيقة باحوال متكلميها ، والعربية على الرغم من تمتعها بقسط كبير من الاستقرار اذا ما قيس بغيرها من اللغات ، لم تتوقف يد التطور عن العمل فيها . ولكن اللغويين نظروا الى التطور الطبيعي على انه خطأ يجب حماية اللغة منه . لقد كان المفروض ان يفرقوا « بين ما هو خطأ وانحراف وما هو توليد وتجديد وتطور فكلهما حدث جديد في اللغة ، وتبديل في بعض ظواهرها ، ولكن الخطأ تبديل يخالف خصائص اللغة ، وسنن نموها وناموس حياتها وقواعد فطرتها ، ويخل بنظمها .. واما التجديد والتطور فهو تبديل واحداث يجري وفقاً لسننها وينساب مع فطرتها ، وينقاد لقواعدها ، ويوافق روحها وخصائصها » (١٩٧) . وكان على اللغويين ايضاً ان يدركوا ان « اللغة كائن مرموق يستحيل وضعه في وعاء واحد ، او الحكم عليه ليسير في خط محدد » (١٩٨)

ولعل اهم ما يوضح هذه الظاهرة في نقد اللغويين لابي تمام موقفهم من استعماله بعض الكلمات في غير المسموع من معانيها ، مع ان التطور الدلالي للمفردات ظاهرة لا تسلم منها لغة ، ولا تفتأ تعرض للكلمات في جميع العصور . قال ابو تمام : وصنيعة لك ثيب اهديها وهي الكعاب لعائذ بك مصرم جلت محل البكر من معطي وقد رُفّت من المعطي زفاف الائم (١٩٩)

فخطاه الامدي لانه استعمل (الائم) بمعنى (الثيب) . قال الامدي : « الائم هي التي لا زوج لها بكراً كانت او ثيباً ، قال الله عز وجل (وأنكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم) أفترأه اراد : أنكحوا الثيبات من النساء دون الابكار ؟ انما اراد تبارك اسمه : أنكحوا النساء اللواتي لا أزواج لهن . فالثيب والبكر والصغية والكبيرة ممن لا زوج لها تدخل في الاية ، قال الشماخ :
يقر بعيني أن أحدث أنهار وان لم ألها أئم لم تنق

وهذا هو المعنى المعروف في كلامهم » (٢٠٠)
وقد علق إحسان عباسي على نقد الامدي هذا قائلاً : « إن الالفاظ تنزلق احياناً انزلاقاً يسيراً عما وضمت له بمرور الزمن ، وهذا مبدأ لا يحترمه أمثال الامدي القائلون بالتدقيق » (٢٠١)
وقال ابو تمام يصف فرساً :
مامقرب يختال في أشطانه ملان من ضلف به وتلهوق

فخطاة الامدي ايضاً لانه استعمل (الصلف) بغير المسموع من معناها . قال الامدي : « قوله (ملان من صلف به) يريد التيه والكبر ، وهذا مذهب العامة في هذه اللفظة ، فاما العرب فانها لا تستعملها على هذا المعنى وانما تقول : قد ضلفت المرأة عند زوجها اذا لم تحظ عنده ، وضلف الرجل كذلك اذا كانت زوجته تكرهه ، والضلف الذي لا خير عنده » (٢٠٢)
فتطور دلالة كلمة (الصلف) وتغير معناها امر لا باس باقراره ، لان له في العربية نظائر كثيرة ، وهو على ذلك ليس خطأ ، وانما هو من باب التطور ، واكتساب بعض الالفاظ دلالات جديدة .
الثالثة (التجمل في الحكم بالخطا) .

وهذه ظاهرة طبعت اعمال النقاد اللغويين عامة ، فالعربية لغة واسعة واللغويون عجزوا عن الاحاطة « بكل الكنز اللفظي الحي الذي كان مستعملاً اذ ذاك في عالم البداية » (٢٠٣) . واذا كان الامر كذلك فقد كان على اللغويين ان يترثوا في الحكم بالخطا على هذا الاستعمال او ذاك ، ولكن الذي حدث غير هذا ، فقد كان بعض اللغويين يتعجلون فيرمعون هذا المنشيء او ذاك بالخطا ، ولو انهم انعموا النظر ، وأمعنوا في الاستقصاء ، لوجدوا في كلام العرب ، والرفع منه احياناً ما يسند الاستعمال الذي خطؤه أو استهجنوه . وقد فطن القاضي الجرجاني لهذه الظاهرة فقال : « ولم أستحسن ما يتسرع اليه بعض اصحابنا من التصريح بمخالفة اللغة » (٢٠٤)

واذا تذكرنا ان ابا تمام « كان مستبحراً في الرواية » (٢٠٥) ، واسع الاطلاع على شعر العرب ، تشهد بذلك اختياراته منه ، أدركنا ضرورة التريث في تخطئته . غير ان الذي يتأمل ماوصم به ابو تمام من الخطا يجد الكثير منه مما يمكن ان يسوّغ بلغات العرب الكثيرة ، التي ربما غابت عن صرح بتخطئته .
نقل التبريزي عن المعري في نقده لبيت ابي تمام :
وليست بالعوان العنّس عندي ولا هي منك بالبكر الكعاب

انه قال : « وقد غاب بعض اهل العلم هذا البيت بقوله (العنّس) وقال : ولم تسمع العنّس الا في صفة الناقة ، كانه يذهب الى أنه اراد (العانس) فوضع (العنّس) مكانها . ويجوز ان يكون هذا غلطاً على الطائي فمن عابه ، اذ كان مثله مع أدبه لا يغيب عنه مثل ذلك » (٢٠٦) ومن ذلك نقدم كلمة (اغاض) في قوله :

يوم أفاض جوى اغاض تمزياً خاض الهوى بحري حباه المزيد
قال ابو العلاء : « وانما يقال غاض الماء وغاضه غيره ،

ويجوز أن يكون الطائي سمع أغاض في شعر قديم ، وإن لم يكن سمع فالقياس يطلقه » (٢٠٧).

ومن تعجل النقاد بتخطئة أبي تمام ردهم قوله :
مها الوحش إلا أن هاتا أوانس قنا الخط إلا أن تلك نوابل

قال ابن أبي الأصبع : « وقد غلط الامدي في تغليب أبي تمام في هذا البيت حيث (كذا) زعم أنه نفى عن النساء لبن القدود ، معتقدا أن الزواح سميت نوابل للينها ، والمعروف عن أهل اللسان ضد ذلك ، لأن العرب تقول : رمح ذابل إذا كان صلب الكموب ومن ذلك قولهم : ذبلت شفتاه إذا يبستا ، ولا تعرف العرب الذابل إلا اليايس الذي جفت رطوبته ، ومن ذلك قولهم : نواة ذابلة إذا جف ماؤها واخذت في اليبس . وأبو تمام لا يشك أحد أنه أبصر من الامدي باللغة ، واقعر منه في معرفة اللسان العربي » (٢٠٨).

وقد كان أبو العلاء المعري أكثر النقاد تحفظاً في تخطئه أبي تمام ، فقد ذكرنا أنه كان يسلم له بمعرفته باللغة . حاول أن يلتزم له العذر بدلاً من أن يصمه بالخطأ . ومن أجل ذلك كثرت في شرح المعري لشعر أبي تمام أمثال العبارات الاتية : « ويجوز أن يكون الطائي سمعها في شيء من شعر العرب » ، (٢٠٩) و « يجوز أن يكون أبو تمام سمعها في شعر قديم لأنه كان مستبحراً في الرواية » (٢١٠) وانطلاقاً من هذه النظرة لثقافة أبي تمام اللغوية ، كان الزمخشري - و تبعه الرضي في ذلك - يستشهد بشعر أبي تمام ، ويقول عنه : « أنه وإن كان محدثاً لا يستشهد بشعره في اللغة ، فهو من علماء العربية ، فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه » (٢١١).

الخاتمة

كان هذا بحثاً عرضت فيه للغة شاعر كبير من شعراء العربية ، كانت لغته أهم ما شغل نقاده ، وأبرز ما اتسم به مذهب الشعري الجديد .

وقد تتبعنا فيه آراء نقاد أبي تمام في لغته ، واستجليت المقاييس التي احتكموا إليها في استجادة ما استجادوا ورفض ما رفضوا منها ، كما اجتهدت في أن ألتمس الجديد الذي تميزت به طريقة أبي تمام في تعامله مع اللغة ، وهي لم تظهر عند شاعر قبله ، فاثارت لذلك جدل النقاد ، وقامت حولها حركة نقدية نشيطة ، ولكنها على كثرة ما انتجت من آراء ، وما أريق فيها من مداد ، لم تستطع استكشاف حقيقة تلك الطريقة ، ببيان مقدار ما حققت للشعر العربي من تطور . ولعلي لا اعدو الصواب إذا قلت أن هذه الطريقة لم يقبض لها أن تفهم ، وتوضع في مكانها من مسيرة تطور الشعر العربي إلا في العصر الحديث .

ولم اكتف في هذا البحث بتتبع آراء النقاد ، سواء أكانت صادرة عن منظار نقدي خالص يبحث عن الجيد والرديء ، أم صادرة عن منظار لغوي يميز الصواب من الخطأ ، بل قومتها وأظهرت ما اتسمت به من موضوعية حيناً ، وتعصب ومجانية للصواب حيناً آخر .

وبعد فأرجو أن أكون وفقت لتقديم صورة واضحة للغة أبي تمام ، بما انطوت عليه من جديد رفيع يدل على عبقرية وتفرد ، وما شابها من غث ساق إليه تسامح أبي تمام ، وكلال خاطره أحياناً .

الهوامش

(١) الموشح : ٣٨٥ .

(٢) الثابت والمتحول : ١٠٦ .

(٣) نفسه : وينظر مصدره .

(٤) نفسه : وينظر مصدره .

(٥) نفسه : ١٠٦ ، ١٠٧ وينظر مصدره .

(٦) نفسه : ١٠٧ وينظر مصدره .

(٧) الثابت والمتحول : ١٠٧ .

(٨) الفن ومذاهبه في الشعر العربي : ١٥١ .

(٩) أخبار أبي تمام : ١٥ ، ١٦ .

(١٠) الثابت والمتحول : ١١٤ وينظر مصدره .

(١١) أخبار أبي تمام : ٢٤٤ .

(١٢) الحركة النقدية حول مذهب أبي تمام : ٤٥ .

(١٣) معجم الأدباء : ١٩ / ١٢١ وينظر الحركة النقدية : ٤٥ .

(١٤) العمدة : ١٠٥ / ٢ .

(١٥) الشعر والشعراء : ١ / ٦٢ .

(١٦) نفسه : ١ / ٦٢ ، ٦٣ .

(١٧) الحركة النقدية حول مذهب أبي تمام : ٣٣٣ .

(١٨) اللغة والمجتمع : ٥ ، وينظر : قضايا النقد الأدبي

والبلاغة : ١٥ .

(١٩) قضايا النقد الأدبي والبلاغة : ١٥ ، ١٦ .

(٢٠) النقد الأدبي (سهر القلماوي) : ٦٧ .

(٢١) سر الفصاحة : ٧٨ .

(٢٢) نفسه .

(٢٣) نفسه .

(٢٤) نفسه : ٧٩ .

(٢٥) المثل السائر : ١ / ١٨٨ وما بعدها .

(٢٦) المثل السائر : ١ / ٢٨٤ .

(٢٧) النحل : ٨ .

(٢٨) المثل السائر : ١ / ٣٨٧ .

(٢٩) الحركة النقدية حول مذهب أبي تمام : ٣٧٩ وينظر

مصدره .

- فلت شعري من حظر عليه القواني واقتصر به على الثاء » .
 (٦٧) الموازنة : ٢ / ٢٨٥ .
 (٦٨) الموازنة : ١ / ٢٦٩ . السلام الحجارة ، سلمى : جبل ، السلم شجر له شوك .
 (٦٩) العمدة : ٢ / ٦٦ .
 (٧٠) المثل السائر : ١ / ١٨٥ .
 (٧١) نفسه : ١ / ١٨٧ .
 (٧٢) سر الفصاحة : ٧٦ . والمرزمان : نجمان .
 (٧٣) نفسه : ٧٦ ، ٧٧ .
 (٧٤) نفسه : ٧٧ .
 (٧٥) دروس في البلاغة : ٢٢٠ .
 (٧٦) دروس في البلاغة : ٢٢٠ .
 (٧٧) منهاج البلغاء : ٢٥ .
 (٧٨) نفسه : ٣١ .
 (٧٩) سر الفصاحة : ١٥٩ .
 (٨٠) الفن ومذاهبه في الشعر العربي : ١٤٨ .
 (٨١) نفسه .
 (٨٢) نفسه : ١٤٩ .
 (٨٣) نفسه .
 (٨٤) المثل السائر : ٢ / ٣٥٦ ، ٣٥٧ .
 (٨٥) العمدة : ١ / ١٢٣ .
 (٨٦) الموازنة : ١ / ٢٢٧ .
 (٨٧) نفسه : ٢ / ٢٤٦ ، ٢٤٧ .
 (٨٨) سر الفصاحة : ٦٥ .
 (٨٩) نفسه : ٦٦ .
 (٩٠) النظام : ٣ / ١٧٩ .
 (٩١) النقد الجمالي : ١٣٢ .
 (٩٢) المثل السائر : ١ / ٢٩٢ وما بعدها .
 (٩٣) سر الفصاحة : ٨٧ .
 (٩٤) نفسه : ٩١ .
 (٩٥) نفسه : ١٤٩ .
 (٩٦) نفسه : ١٥٠ .
 (٩٧) المثل السائر : ١ / ٣٠٣ .
 (٩٨) نقد الشعر : ٣٢ .
 (٩٩) المثل السائر : ٢ / ٤٦ .
 (١٠٠) الموازنة : ١ / ٢٨٠ .
 (١٠١) أسرار البلاغة : ١٣٠ .
 (١٠٢) الموازنة : ١ / ٢٧٨ .
 (١٠٣) نفسه : ٢ / ١٩ .
 (١٠٤) نفسه : ٢ / ١٧ ، ١٨ .
 (١٠٥) ابوتعام الطائي : ٧٧ . الأفييس والأنييس : الشجاع وجمع الأنييس النيس .
 (١٠٦) عيار الشعر : ٦ .
 (١٠٧) الوساطة : ٢٢ .
 (١٠٨) أخبار أبي تمام : ٩٧ .
 (١٠٩) الحركة النقدية حول مذهب أبي تمام : ١٩٨ .
 (١١٠) أخبار أبي تمام : ٦٧ .
 (١١١) الموازنة : ١ / ٥ .

- (٣٠) الموازنة : ١ / ٢٨٣ .
 (٣١) نفسه : ١ / ٤٤٣ .
 (٣٢) نفسه : ١ / ٤٤٣ ، ٤٤٤ .
 (٣٣) سر الفصاحة : ٥٧ .
 (٣٤) نفسه : ٦٣ . الصهلنق من الاصوات الشديد . وأشرح : ضم .
 (٣٥) اطلخم : ٦٣ . عشواء مؤنث الاعشى الذي لا يبصر ليلاً ، والغُبش جمع أغبش وغبساء وهي المظلمة ، والدهاريس : الدواهي .
 (٣٦) المثل السائر : ١ / ١٦٣ .
 (٣٧) النظام : ٥ / ٢٧٩ .
 (٣٨) الصورة الفنية : ٣٨١ .
 (٣٩) نفسه .
 (٤٠) الحيوان : ٣ / ٣٩ .
 (٤١) عيار الشعر : ٨ .
 (٤٢) نقد الشعر : ١٩٢ ، ١٩٣ .
 (٤٣) سر الفصاحة : ١٥٣ .
 (٤٤) نفسه .
 (٤٥) نفسه .
 (٤٦) الموازنة : ١ / ٢٢٨ .
 (٤٧) سر الفصاحة : ١٥٣ .
 (٤٨) نفسه : ١٥٤ .
 (٤٩) الموازنة : ٢ / ٩٤ .
 (٥٠) النظام : ٥ / ٢١ .
 (٥١) الالفاظ اللغوية : ٧٤ ، ٧٥ .
 (٥٢) مجلة مجمع اللغة العربية : ١ / ٣٢٠ .
 (٥٣) الموازنة : ٢ / ٥٤ .
 (٥٤) نفسه : ٢ / ٥٥ .
 (٥٥) نفسه : ٢ / ٦٦ .
 (٥٦) نفسه : ١ / ٤٦٦ .
 (٥٧) الموازنة : ١ / ٢٣٦ ، ٢٣٧ .
 (٥٨) ينظر في هذين المصطلحين : نقد الشعر : ٢١٤ ، ٢١٨ و الصناعيين : ٤٥٠ .
 (٥٩) العمدة : ٢ / ٧٠ .
 (٦٠) كتاب الصناعيين : ٤٥٠ .
 (٦١) نقد الشعر : ٢١٨ ، ٢١٩ .
 (٦٢) سر الفصاحة : ١٤٣ .
 (٦٣) ينظر في ذلك : طراز المجالس : ٧٨ وما بعدها .
 (٦٤) الموازنة : ١ / ٤٦٥ .
 (٦٥) يقول : انت مهة النقا لولا القوائم والاضلاف ، وانك أشبهتها وإن أعرضت عني
 (٦٦) الموازنة : ٢ / ٦٠ . ومن هذا قول أبي تمام : (سر الفصاحة : ٦٢) :
 قف بالطلول الدراسات غلات اضحت حبال قطينهن رثاتا

قال ابن سنان : « ولا احب ايضاً تسمية أبي تمام صاحبه (غلثة) ونداءه بالترخيم » وقال : « واذا كان الروي قاده الى ذلك

(١٥٦) ابو تمام الطائي : ٧٧ . مُغَيِّق : قصر باليمامة ، زُكُن
بضمين موضع باليمامة ، يذبل : جبل .
(١٥٧) الموشح : ٥٠٥ .
(١٥٨ ، ١٥٩) الموازنة : ٣٠ / ٢ .
(١٦٠) النظام : ٢٦٤ / ٢ ، ٢٦٥ .
(١٦١) النظام : ٢٥٩ / ٢ .
(١٦٢) ابو تمام الطائي : ٧٥ .
(١٦٣) نفسه .
(١٦٤) شرح التبريزي لديوان ابي تمام : ٣٠٢ / ٢ .
(١٦٥) ابو تمام الطائي : ٧٦ .
(١٦٦) نفسه .
(١٦٧) الفن ومذاهبه في الشعر العربي : ١٥٨ .
(١٦٨) الفن ومذاهبه في الشعر العربي : ١٥٤ ، ١٥٥ .
(١٦٩) نفسه : ١٤٨ .
(١٧٠) نفسه : ١٤٩ .
(١٧١) قضايا النقد الادبي والبلاغة : ٤١٦ .
(١٧٢) الصورة الفنية : ١٤٢ .
(١٧٣) الاسس الجمالية في النقد العربي : ٣٤٠ .
(١٧٤) قضايا النقد العربي والبلاغة : ٤١٧ .
(١٧٥) الموازنة : ١٣٨ / ١ وتنظر زيادة الواو في قوله (والى)
وهو خطأ قديم فيما يبدو .
(١٧٦) نفسه : ١٤٢ / ١ .
(١٧٧) نفسه .
(١٧٨) الخصومة بين القدماء والمحدثين : ١٧٥ ، ١٧٦ .
(١٧٩) نفسه : ١٧٦ ، وينظر : من حديث الشعر والنثر : ١٠٤ .
(١٨٠) الخصومة بين القدماء والمحدثين : ١٧٦ .
(١٨١) نفسه .
(١٨٢) الموازنة : ٤٨١ / ١ .
(١٨٣) قضايا النقد الادبي والبلاغة : ٣٨٢ ، ٣٨٣ .
(١٨٤) الموازنة : ١٠٥ / ٢ .
(١٨٥) نفسه : ٣٥٧ / ٢ .
(١٨٦) يس : ١٤ .
(١٨٧) النظام : ١٠٨ / ٣ .
(١٨٨) نفسه : ٤٣ / ٣ .
(١٨٩) شرح التبريزي : ٨٣ / ٢ .
(١٩٠) نفسه : ٣٥٤ / ١ .
(١٩١) قضايا النقد الادبي والبلاغة : ٤١٧ .
(١٩٢) قضايا النقد الادبي والبلاغة : ٤١٧ .
(١٩٣) النقد المنهجي عند العرب : ١١٩ .
(١٩٤) نفسه : ١٢٤ .
(١٩٥) قضايا النقد الادبي والبلاغة : ٤١٧ ، ٤١٨ والنقد
المنهجي عند العرب : ١٢٤ .
(١٩٦) الموازنة : ٢١٦ / ١ .
(١٩٧) خصائص العربية : ٦٧ .
(١٩٨) اللغة والحضارة : ١٣٨ .
(١٩٩) يريد ان هذه الصنعة ثيب عندك لانك قد اصنعت مثلها
مراراً ، وهي الكعاب - يريد البكر - عند هذا العائد بك لانها اول ما
اصنعت اليه ، او لانها اكبر صنعة صنعتها عنده ، والمصرم .

(١١٢) الصورة الفنية : ٢٥٧ .
(١١٣) الكامل : ١٣٢ / ٣ .
(١١٤) الصورة الفنية : ٢٥٨ .
(١١٥) نفسه : ٢٤٧ .
(١١٦) نفسه : ٢٦٠ .
(١١٧) الموازنة : ٢٢ / ١ .
(١١٨) نفسه : ٢٥٠ / ١ .
(١١٩) الصورة الفنية : ٢٦٨ .
(١٢٠) الموازنة : ٢٥٥ / ١ ، ٢٥٦ .
(١٢١) نفسه : ٢٤٩ / ١ ، ٢٥٥ .
(١٢٢) نفسه : ٢٥٩ / ١ .
(١٢٣) نفسه : ٤١٧ / ١ .
(١٢٤) الحركة النقدية : ٢١١ .
(١٢٥) الموازنة : ٥٠٥ / ١ .
(١٢٦) الحركة النقدية : ٤١٨ .
(١٢٧) الحركة النقدية : ٣٥٦ .
(١٢٨) اسرار البلاغة : ١٣٣ .
(١٢٩) الموازنة : ٢٢٦ / ١ ، ٢٢٧ .
(١٣٠) النظام : ٣٤ / ٢ .
(١٣١) نفسه .
(١٣٢) نفسه .
(١٣٣) الموازنة : ٢٩ / ١ .
(١٣٤) نفسه : ٢٧٩ / ١ .
(١٣٥) النظام : ١٦١ / ٣ .
(١٣٦) نفسه : ٦١ / ٣ .
(١٣٧) نفسه .
(١٣٨) عني بحاليه عقله ودهره ، وقوله : عن وجه امرئ اشيب
يعني نفسه ، ويقول : هو صغير السن ولكن سيبه عقله ودهره .
(١٣٩) النظام : ٢٠٧ / ٢ .
(١٤٠) يحذر المخاطب ان يغلبه الهوى فينظر الى الامور نظر
الاشوس اي بعين مائلة .
(١٤١) النظام : ٢١٧ / ١ .
(١٤٢) النظام : ٣٠١ / ٥ ، ٣٠٢ .
(١٤٣) الموازنة : ٢١٠ / ٢ .
(١٤٤) نفسه : ٤٦٦ / ١ .
(١٤٥) النظام : ٤٧ / ٢ .
(١٤٦) نفسه : ٥١ ، ٥٠ / ٣ .
(١٤٧) النظام : ٢١١ / ٣ .
(١٤٨) نفسه : ١٢ / ٥ .
(١٤٩) نفسه : ٢٠ / ٥ .
(١٥٠) نفسه : ٩٩ / ٥ . ضح : نحى ودفع . العيص : الشجر
الملتح .
(١٥١) نفسه : ٦٦ / ٣ .
(١٥٢) نفسه : ٢٠٤ / ٢ .
(١٥٣) النظام : ٢٠٥ / ٢ .
(١٥٤) المأذي الدروع واليلب الدروع القديمة والصياصي قرون
محددة كانت تتركب في الرماح مكان الاسنة .
(١٥٥) النظام : ١٠٤ / ٣ ، ١٠٥ .

- (٢٠٦) نفسه : ١ / ٢٩٠ .
 (٢٠٧) نفسه : ٢ / ٤٦ .
 (٢٠٨) تحرير التحرير : ٣٧٠ .
 (٢٠٩) شرح التبريزي : ١ / ٢٩٢ .
 (٢١٠) نفسه : ١ / ٣١٥ .
 (٢١١) الاقتراح : ٢٦ .

- القليل المال .
 (٢٠٠) الموازنة : ١ / ١٥٩ .
 (٢٠١) تاريخ النقد الادبي : ١٧٩ .
 (٢٠٢) الموازنة : ١ / ٢٣٤ .
 (٢٠٣) العربية : ٨٨ .
 (٢٠٤) الوساطة : ٨١ .
 (٢٠٥) شرح التبريزي : ١ / ٣١٥ .

المصادر

- العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده (ابن رشيق القيرواني)
 تح. محيي الدين عبد الحميد ط ٢ ، ١٩٥٥ .
 ● عيار الشعر (ابن طباطبا العلوي) تح. د. طه الحاجري
 ورفيقه القاهرة ١٩٥٦ .
 ● الفن ومذاهبه في الشعر العربي (د. شوقي ضيف) ط ٣ ،
 ١٩٥٦ .
 ● قضايا النقد الادبي والبلاغة (د. محمد زكي العشماوي)
 القاهرة ١٩٦٧ .
 ● الكامل (المبرد) تح. محمد ابي الفضل ابراهيم ورفيقه ،
 القاهرة ١٩٥٦ .
 ● اللغة والحضارة (د. مصطفى مندور) الاسكندرية ١٩٧٤ .
 ● اللغة والمجتمع (د. علي عبد الواحد وا. د. ط ٢ ، ١٩٥١ .
 ● المثل السائر (ابن الاثير) تح. محمد محيي الدين عبد
 الحميد ، القاهرة ١٩٣٩ .
 ● معجم الادباء (ياقوت الحموي) ، بعناية الدكتور احمد فريد
 رفاعي ، مطبوعات المامون .
 ● من حديث الشعر والنثر (د. طه حسين) ، دار المعارف بمصر ،
 ١٩٣٦ .
 ● منهج البلاغة وسراج الادباء (حازم القرطاجي) تح. محمد
 الحبيب بن الخوجة ، ١٩٦٦ .
 ● الموازنة بن شعر ابي تمام والبحري (الامدي) تح. السيد
 احمد صقر ، دار المعارف بمصر .
 ● الموشح (ابو عبيد الله المرزباني) تح. علي محمد البجاوي ،
 القاهرة ١٩٦٥ .
 ● النظام في شرح شعر المتنبي وابي تمام (ابن المستوفي) تح.
 د. خلف رشيد نعمان بغداد ١٩٨٩ .
 ● النقد الادبي (د. سهر القلماوي) ط ٢ ، ١٩٥٩ .
 ● النقد الجمالي واثره في النقد العربي (روز غريب) ط ١ ،
 ١٩٥٢ .
 ● نقد الشعر (قدامة بن جعفر) تح. كمال مصطفى ، ط ١ ،
 ١٩٤٨ .
 ● النقد اللغوي عند العرب (د. نعمة رحيم المزواوي) بغداد
 ١٩٧٨ .
 ● النقد المنهجي عند العرب (د. محمد مندور) دار نهضة مصر
 للطبع والنشر ، د. ت .
 ● الوساطة بين المتنبي وخصومه (للقاضي علي بن عبد العزيز
 الجرجاني) تح. محمد ابي الفضل ابراهيم ورفيقه ، ط ٣ ،
 د. ت .

- ابو تمام الطائي (نجيب البهيتي) ، دار الكتب ١٩٤٥ .
 ● اخبار ابي تمام (الصولي) تح. خليل محمود عساكر
 ورفيقه ، بيروت ، د. ت .
 ● اسرار البلاغة (عبد القاهر الجرجاني) تح. هـ. ريتز ،
 استانبول ١٩٥٤ .
 ● الاسس الجمالية في النقد العربي (عز الدين اسماعيل) ط ١ ،
 ١٩٥٥ .
 ● الالفاظ اللغوية (عبد الحميد حسن) معهد البحوث والدراسات
 العربية ١٩٧١ .
 ● الاقتراح (السيوطي) طبع مجتبائي بلا تاريخ .
 ● تاريخ النقد الادبي عند العرب (د. إحسان عابس) ط ١ ،
 بيروت ١٩٧١ .
 ● تحرير التحرير (ابن ابي الاصبغ المصري) تح. د. حفني
 محمد شرف ، القاهرة ١٣٨٣ هـ .
 ● الثابت والمتحول (أودونيس) ، ج ٢ ، دار العودة ، بيروت ط ١ ،
 ١٩٧٧ .
 ● الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام (د. محمود الريداوي)
 دار الفكر للطباعة والنشر .
 ● الحيوان (الجاحظ) تح. عبد السلام محمد هارون ، ط ١ ،
 ١٩٣٨ .
 ● خصائص العربية (محمد المبارك) معهد الدراسات العربية
 العالية ١٩٦٠ .
 ● الخصومة بين القدماء والمحدثين في النقد العربي القديم (د.
 عثمان مواني) الاسكندرية .
 ● دروس في البلاغة وتطورها (د. جميل سعيد) بغداد ١٩٥١ .
 ● سر الفصاحة (ابن سنان الخفاجي) شرح وتصحيح
 عبد المتعال الصعيدي ، القاهرة ١٦٩٦ .
 ● شرح ديوان ابي تمام للخطيب التبريزي .
 ● الشعر والشعراء (ابن قتيبة) تح. احمد محمد شاكر ، دار
 المعارف بمصر ١٩٦٦ ، ١٩٦٧ .
 ● كتاب الصناعيين (ابو الهلال العسكري) تح. علي محمد
 البجاوي ورفيقه ط ١ ، ١٩٥٢ .
 ● الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي (د. حابر عصفور)
 القاهرة ١٩٧٤ .
 ● طراز المجالس (شهاب الدين احمد بن محمد الخفاجي)
 القاهرة ١٢٨٤ هـ .
 ● العربية (يوهان فك) ترجمه د. عبد الحليم النجار ، القاهرة
 ١٩٥١ .

الزهر اليانع على قول صاحب القاموس

في الديباجة ولا مانع

تأليف

محمد بن يوسف الدمياطي المتوفى سنة ١٠١٤ هـ

د. هاشم طه شلح

كلية التربية / ابن رشد / جامعة بغداد

مقدمة

وبعد فقد تفضل الزميل الكريم الدكتور طه محسن رئيس قسم اللغة العربية في كلية التربية - جامعة الأنبار، فأهدى إليّ مشكوراً مخطوطة صرفية في أبنية الأفعال، كان قد نقلها من مكتبة خسرو باشا في أثناء زيارته للمكتبات الموجودة في استانبول، والمخطوطة بعنوان: «الزهر اليانع على قول صاحب القاموس في الديباجة ولا مانع» لمحمد بن يوسف الدمياطي. ووجدت أن المخطوطة جديرة بالنشر لما فيها من فوائد صرفية تعليمية في موضوع الأفعال الثلاثية المجزئة وضبطها، لاستيفائها ضوابط الأبواب المختلفة، وتفسيرها لما شذ عن تلك الضوابط اعتماداً على أقوال أئمة العلم في هذا الموضوع.

وقد اجتهدت في ضبط النص، وراجعت ما يقتضي التحقيق مراجعته، وأثبت ما وجدته نافعاً في الهوامش، ولم أنحر وسعاً في ذلك فإن وقفت في عملي فمن الله التوفيق. ترجمة المؤلف:

لم نلق على ترجمة وافية للمؤلف تشير إلى ولادته ونشأته ومصنفاته. وما ذكره محمد المحبّي^(١) في كتابه خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر لا يعدو أن يكون معلومات يسيرة لا تغني الدارس المتطلع إلى تفصيل يكشف عن شخصية المؤلف بما يرضي تطلّعه. فقد ذكر أنه محمد بن يوسف بن عبد القادر الدمياطي المصري الحنفي، مفتي مذهب النعمان بالقاهرة، المبدئي من تحريراته التحقيقات الباهرة، المتكلم في المجالس، والمظهر من ثمر بحره النفاث، الذي جمع وألف وكتب وأفاد... ولازم شيوخ الحنفية من المصريين كالشيخ الإمام زين بن نجيم وأخيه الشيخ عمر، وشيخ الفقهاء في وقته الشيخ علي بن غانم المقدسي وغيرهم، وأجازوه، وتصدّر للتدريس ونفع الناس...

وكانت وفاته بمصر يوم الجمعة سابع عشر شهر ربيع الثاني سنة أربع عشرة وألف.

وقد نقل عن الخفاجي - من غير إشارة إلى كتابه الذي نقل منه - مدحاً للمؤلف وثناءً عليه ووصفاً لآخلاقه، وأبياتاً من بعض نظمته.

وقد لخص عمر رضا كحالة في كتابه معجم المؤلفين^(٢) ما أورده محمد المحبّي في خلاصة الأثر بقوله «محمد بن يوسف بن عبد القادر الدمياطي المصري الحنفي، فقيه أفتى وجمع وألف وتوفي بمصر» ونقل سنة وفاته منه. الزهر اليانع:

صرح المؤلف نفسه بنسبة هذه الرسالة إليه إذ قال في مقدمتها: «فيقول الفقير إلى الله تعالى محمد بن يوسف الدمياطي الحنفي..».

وأشار إلى أن هذه الرسالة هي إجابة عن سؤال وجهه بعض الإخوان من علماء عصره عن معنى قول الفيروز آبادي في ديباجته في كتابه المسمى بالقاموس المحيط والقابوس الوسيط ما نصّه: «وإذا نكرت المصدر مطلقاً أو الماضي بدون الاتي ولا مانع فالفعل على مثال كتب، وإذا ذكرت آتية بلا تقييد فهو على مثال ضرب»، وحدّد موضع السؤال بقول صاحب القاموس: «ولا مانع»^(٣).

وكتب رسالته بأسلوب واضح في غالب المواضع، ولم يخل أسلوبه من تأثير الفلسفة والمنطق أحياناً فهو يقول مثلاً: «إن الشرط يلزم من عدمه العدم، ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم»^(٤).

وقد سار المؤلف في عرض رسالته على نهج مُرتّب غاية الترتيب، وقد بدأ بعرض أقوال علماء هذا الفن في هذه المسألة، ثم أخذ يوضح أقوالهم توضيحاً مبسوطاً، كان يختهه بالتأييد أو النقد أو الترجيح.

وقد استقى المؤلف مادة، رسالته من عدد من المصادر يقتضي المقام إيراد أسماء مؤلفيها بحسب تسلسل وفياتهم: ١ - الكسائي علي بن حمزة المتوفى سنة ١٨٩ هـ. ولم يصرّح

بالمصدر الذي نقل منه في موضع واحد من رسالته .
٢ - الجوهري : اسماعيل بن حماد المتوفى في حدود سنة ٤٠٠ هـ . وقد صرح المؤلف بالنقل من كتابه الصحاح في موضعين .

٣ - ابن مالك الطائي : جمال الدين محمد بن عبد الله النحوي المتوفى سنة ٦٧٢ هـ . وقد صرح بالنقل من كتابه .
أ - لامية الافعال في ثمانية مواضع .
ب - تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد في أربعة مواضع .
٤ - ابن فلاح : تقي الدين أبو منصور بن فلاح بن محمد بن محمد اليميني النحوي المتوفى سنة ٦٨٠ هـ ، وقد صرح بالنقل من كتابه الكافي في موضع واحد .
٥ - الفيروز آبادي : مجد الدين المتوفى سنة ٨١٧ هـ . وقد صرح بالنقل من كتابه المشهور القاموس المحيط في ستة مواضع .
٦ - بحرق اليميني : أبو عبد الله محمد بن عمر الحضرمي المتوفى سنة ٩٣٠ هـ . وقد صرح بالنقل من كتابه شرح لامية الافعال لابن مالك المسقى « فتح الاقفال وحل الاشكال بشرح لامية الافعال » في عشرة مواضع .
٧ - البرماوي : لم أقف على الرجل المقصود بهذا اللقب ولم أقف على نسبة أحد شروح لامية الافعال الى واحد ممن لقبوا بهذا اللقب . وقد صرح اليمياني بالنقل من هذا الشرح في موضع واحد .

المخطوطة :

توجد المخطوطة في مكتبة خسرو باشا في استنبول ، وهي واحدة من مجموع ضم ثمانتي عشرة مخطوطة في علوم مختلفة ، رقمه في المكتبة ٧٥٤ .
والمجموع في مجلد واحد خطه واضح جميل موحد ، قياسه (٢٠ × ١٥) ، وتبدأ مخطوطة (الزهر اليانع) من الورقة ١٣٧ ، وتنتهي بالورقة (١٤٥ هـ) ، وتشتمل الصفحة الواحدة من كل ورقة على خمسة عشر سطراً . وتنتهي الصفحة بالتعقيية التي تشير الى اللفظة الواردة في بداية الصفحة التالية .

اما الرسائل الاخرى التي يضمها المجموع فهي :

- ١ - شرح خطبة القاموس لمحمد أمين البخاري أمير باندشاه المتوفى في حدود سنة ٩٨٧ هـ .
- ٢ - الحاصل بالمصدر لمحمد أمين البخاري .
- ٣ - تحقيق الحرف (قد) لمحمد أمين البخاري .
- ٤ - اعراب حديث التسبيح : لم يذكر اسم مؤلفه .

- ٥ - الفرق بين الضاد والظاء : منظومة لابي نصر محمد بن أحمد الفروخي الكاتب المتوفى سنة ٧٥٥ هـ كما ذكر الاستاذ الفاضل الدكتور طه محسن (٥) .
 - ٦ - مسألة تعتمد ما بعد إلا لجمال الدين بن هشام الانصاري المتوفى سنة ٧٦١ هـ .
 - ٧ - الكلام على قوله تعالى : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبد الله » ، لجمال الدين بن هشام الانصاري .
 - ٨ - حقيقة الاستفهام والفرق بين أدواته : لجمال الدين بن هشام الانصاري .
 - ٩ - مسائل في موضوعات متفرقة أجاب عنها جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ .
 - ١٠ - المقالات المسفرة عن دلائل المغفرة : لنور الدين علي بن عبد الله بن أحمد السهمودي المتوفى سنة ٩١١ هـ .
 - ١١ - رسالة على اوائل صحيح البخاري : لجلال الدين السيوطي .
 - ١٢ - الشماريخ في علم التاريخ : لجلال الدين السيوطي .
 - ١٣ - جمع الشهور والأيام : منظومة ليحيى بن سلامة بن الحسن الحصكفي المتوفى سنة ٥٥١ هـ .
 - ١٤ - الزهر اليانع على قول صاحب القاموس في الديباجة ولا مانع : لمحمد بن يوسف الدمياطي الحنفي المتوفى سنة ١٠١٤ هـ .
 - ١٥ - حزب البحر الاكبر : لابي الحسن علي بن عبد الله الشاذلي ، المتوفى سنة ٦٥٦ هـ .
 - ١٦ - حزب محيي الدين النووي .
 - ١٧ - تحفة السلوك في فضل السواك : لابي العباس أحمد بن محمد الزاهد المتوفى سنة ٨١٩ هـ .
 - ١٨ - شرح حزب البحر لابي الحسن الشاذلي : لأحمد بن محمد بن عيسى المعروف بزروق المتوفى سنة ٨٩٩ هـ .
- عملنا في التحقيق .

- ١ - ضبطنا النص بالحركات ضبطاً مفيداً
- ٢ - استخدمنا النقاط والفواصل حتى تكون جمل النص واضحة عند القارئ .
- ٣ - أثبتنا في المتن ما رأيناه صحيحاً في المخطوطة ، ونبهنا في الهوامش على ما هو موجود في الأصل .
- ٤ - خرجنا الشواهد القليلة في مظانها التي وردت فيها .
- ٥ - خرجنا أقوال علماء اللغة الواردة اسمائهم في المتن وأشرنا الى مواضع ترجماتهم قدر المستطاع .

[النَص]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد الذي بيده تصريف الافعال ، الصمد الفرد المنزه عن كونه . أخوف او ذا مثال ، العالم بخفيات الامور وظواهرها بلا ريب اشكال ، الكاشف لمن شاء عن حقائق دقائق العلوم فيترجم بلسان القال عن لسان الحال ، والصلاة والسلام على افضل الخلق من ملك وينشر ، بما أودعه الله فيه من كرائم الخلال^(١) ، وبما أتحنه به من أنسبه في حضرات قدسه ، حين أسفر له عن ذلك الجمال ، وصلى الله عليه وعلى آله وصحبه خير صلب وخير آل . وبعد ، فيقول الفقير الى الله تعالى محمد بن يوسف الدمياطي الحنفي : قد تكرر السؤال من بعض الاخوان الذين هم خلاصة ذوي العلوم ، وإنسان عين الزمان ، على قول العلامة ذي المؤلفات العديدة ، والاسفار الجامعة المفيدة ، أبي عبد الله محمد بن أبي يوسف يعقوب بن محمد الفيروز آبادي ، في ديباجة كتابه المسقى بالقاموس المحيط والقاموس الوسيط ما نصه :^(٢) « واذا ذكرت المصدر مطلقاً او الماضي بدون الآتي ،^(٣) ولا مانع ، فالفعل على ١٣٨ ظ / مثال كتب . واذا ذكرت آتية بلا تقييد فهو على مثال ضرب » . فوقع السؤال عن ذلك ممن وقعت الاشارة إليه من الاخوان ، ما معنى قوله ولا مانع ؟ فما المانع من هذا الشأن ؟ فاستخرت الله تعالى ، وكتبت على ذلك ما تيسر جمعه ، وأرجو من الله العظيم ان يعم نفعه ، مُسمياً لذلك بـ « الزهر اليانع على قول صاحب القاموس في الديباجة ولا مانع » ، وخدمت به حضرة جناب المولى الاعظم ، والمخدوم الكريم المعظم ، ملك علماء المسلمين ، وأوحد نبلاء العالمين ، فرد أبناء الزمان ، وواحد نوع الانسان ، رحلة الشتاء والصيف ، حاوي فضيلتي القلم والسيف ، حلال المشكلات بتحقيقاته ، كشاف المعضلات بتدقيقاته مزين الممالك العثمانية ، ومشرف الامصار المرادية^(٤) الخاقانية حضرة مولانا حسين افندي باشا زادة^(٥) ، ادام الله له السيادة والسعادة ، ويلقنه في الدارين مُراد^(٦) ، وأتاه في الجنة الحسنى وزيادة ، ولا زالت الايام متجملّة برياسته ، والاقداؤ جارية بارادته . آمين .

فقلت مستعيناً بالله الذي بيده أزقة التوفيق ، والمرشد الى مقامات ١٣٩ و / التوفيق : أعلم أنّ الذي يدل عليه كلام الشيخ ابن مالك^(٧) ، رحمه الله تعالى في لامية الافعال^(٨) أنّ المضارع لفعل المفتوح العين إن كان يفعل بضم العين أو يفعل بكسرها ، فكل منهما إما أن يكون قياسياً وإما أن يكون سماعياً . فلنفرض الكلام على ذلك في فصلين :

الفصل الاول

في الكلام على فعل يفعل

إعلم أنّ فعل المفتوح العين الذي مضارعه يفعل بضمها ، تارة يكون الضم قياسياً ، وتارة يكون سماعياً ، فيكون قياسياً في أربعة مواضع :

في أربعة مواضع :

- الاول : إذا كان عينه واواً نحو : قال يقول ، وكان يكون .
 - الثاني : إذا كان لامه واواً نحو غزا يغزو ونجا ينجو .
 - الثالث : إذا كان مضاعفاً متعدياً نحو : منه يؤده وعنه يعده .
 - الرابع : إذا قصد بالفعل غلبة المفاخرة : كسابقته فانا أسبقه بضم الباء مع أنه في غير المفاخرة يكون بكسرها^(٩) .
- فهذه المواضع القياس فيها ان يكون المضارع مضموماً ، وإلى ذلك الإشارة بقول ابن مالك في اللامية :

.....
.. والمضارع من فَعَلَتْ إن جُعِلَا

مضموم عين وهذا الحكم قد بُدِّلَا

داعي لزوم انكسار العين نحو قَلَا^(١٠)

عينا له الواو أولاً يُجاء به

لما لبث مُفَاخِر وليس له

يقوله قبل ذلك :

كذا المضاعف لازماً كحَنْ طلا ١٣٩

وَضُمَّ عَيْنٌ مُعْذَاهُ وَيَنْدُرُ ذَا كَسْرٍ كَمَا لَازِمٌ ذَا ضَمٍّ احْتِمَالاً^(١١)

★★★

تنبيهات :

الاول : يستثنى مما اذا كان عينه واوا ما اذا كان لامه ياء نحو شوى يشوي وغوى يغوي وما أشبه ذلك فإنه يكون بالكسر لثقل اجتماع الواوين .

الثاني : شرط في التسهيل^(١٢) للزوم الضم فيما كانت لامه واوا ان لا يكون عينه حرف خلق وهو مقتضى كلامه في اللامية حيث قال :

عين المضارع من فَعَلَتْ حيث خلا

من جالب الفتح كالمبني من عَتَلَا

فاكسر أو اضمم^(١٣)

واعترض عليه العلامة اليميني بخرق في شرح اللامية^(١٤)

فقال : « وكأنه رحمه الله لم يمعن النظر في ذلك ، فإني تتبعته موادّه فوجدتُ غالب حلقي العين مضموماً ، ولم ينفرد الفتح الا في قليل منها ، وجاءت موادّ منه بالضم والفتح ، فالمضموم : ثفت الشاة تنغو صَوْتُتْ ، وجحا التراب يحجوه فرقه ، وعدّ من ذلك خمسة عشر فعلاً^(١٥) انفردت بالضم على القياس » . ثم قال : « ولم أظفر بما انفرد بالفتح سوى طحا الأرض يطحها بسطها ، وطغى يطفئ جاوز القدر ، وفيه لغة كرضي^(١٦) ، وفحا التراب يفحاه^(١٧) فهذه ثلاثة ، وجاز في أفعال الضم والفتح كدحى الأرض يدحوها ويدحاه ، وسحا التراب يسحوه ويسحاه . ١٤ و / حَزَفَ ، وصغى اليه يصغو ويضغى ، وضخى للشمس يضحو ويضخى فهو ضاح : برز ، وطها اللحم يطهوه ويطهاه : أنضجه طبخاً وشياً ، ومحا الكتاب يمحوه ويمحاه ، ونحا نحوه ينحو وينحا : قصده ، فهذه سبعة انتهى »^(١٨)

وأقول : الشارح المذكور^(١٩) هو الذي لم يمعن النظر في كلام ابن مالك ، وذلك لان ابن مالك شرط في التسهيل للزوم الضم ان لا تكون عينه حرف خلق ، وما ذكر الشارح مما وجده من غالب الحلقي مضموماً لو سمع فيه الفتح لجاز كما هو في الثلاثة التي انفردت بالفتح ، وكما في السبعة التي فيها الامران ، ليس الضم فيها لازماً ، بل ولا الأفعال التي انفردت بالضم ليس الضم فيها لازماً لما تقرّر من أن الشرط يلزم من عدمه العدم ، ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم ، اللهم لو كان ابن مالك قد ذكر أن شرط مجيء الضم اقتضاء حرف الحلق لكان يأتي ماذكر ، فابن مالك جعل ذلك شرطاً للزوم لا للاتيان ، والظاهر انه انعكس على الشارح الشرط بالمشروط ، لانه قد وقع له مثل ذلك في الأفعال الحلقية فقال^(٢٠) وشذ بغاه يبغيه أي : طلبه ، ونعى الميث ينعيه : ندبه ، ووخاه يخيه ووعاه يعيه وهى يهي فتأمل .

التنبيه الثالث : ١٤٠ ظ / يستثنى من المضاعف المتعدي نوعان :

ما انفرد فيه الكسر وهو فِعل واحد : حَبَّه يَجِبُّه ، وهي لغة في أَحَبَّه ، ومنه صيغ المحبوب ، وبهذه اللغة قرأ أبو الجوزاء أوس بن عبد الله وأبو رجاء العطاردي ، واسمه عمران قوله تعالى ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾^(٢١) بفتح أول الفعلين وكسر ثانيهما . قال في الصحاح^(٢٢) « ولا يأتي في المضاعف يفعل بالكسر الاو يُشرحه يفعل بالضم إذا كان متعدياً خلا هذا الحرف »

النوع الثاني : ذكر ابن مالك^(٢٣) خمسة أفعال يجوز فيها الوجهان ، الضم والكسر وهي : هَزَّ الشيء : كَرِهَهُ ، وأَمَّا هَزَّ الكلبُ أي : نبَحَ فهو بالكسر لا غير ، وشَذَّ الشيء أَوْتَقَهُ ، وَعَلَّ الشَّراب : سَقَاهُ عَلَّلاً بعد نَهَلٍ ، وَبَقَّه ، قَطَعَهُ وَنَمَّ الحديث : حَمَلَهُ وَأَفْشَاهُ وزاد عليه الشارح اليميني^(٢٤) أربعة أفعال ، وهي : نَتَّ الخبر : أَفْشَاهُ ، وَشَجَّ رأسه ، وَأَضَّه : أَلْجَاهُ ، وَزَمَّه : أَصْلَحَهُ ، وَزِدَّتْ عليهما فِعلين وهما : صَرَّه يَضُرُّه : إذا جمعه ، وبهما قرأ ابن عباس : « فِضْرُهُنَّ » بضم الصاد وكسرها مع تشديد الراء ، وهش الورق يهش يهشه خبطه^(٢٥) بعضا ليتماث^(٢٦)

التنبيه الرابع : ١٤١ و / يستثنى من غلبة المفاخر ما إذا كان في الفعل ما يقتضي كون مضارعه على يفعل بالكسر وسيأتي ذلك في الفصل الثاني ، وما إذا كان عينه أو لامه حرف خلق عند الكسائي^(٢٧) ووافقه الجوهري^(٢٨) وصاحب القاموس^(٢٩) والعبارة لصاحب القاموس : خَاصَمَةٌ مَخَاصِمَةٌ وَخُصُومَةٌ فَخُصِمَ يَخْصُمُهُ غلبه وهو شاذ لان فاعلته ففعلته يردُّ يفعل منه إلى

الضم ، إن لم تكن عينه حرف حلق فإنه بالفتح كفاخره ففخره يُفخره انتهى . وما عدا ما تقدم من المواضع الأربعة فهو موقف على السماع ، فما سمع مضموماً أتبع ، ومالا فلا نحو نصر ينصر ، وكتب يكتب ، ودخل يدخل ، ولولا خوف الإطالة لذكرت الأفعال المسموعة بالضم في المضارع وهي مثنان وخمسة وثلاثون وما فيه الوجهان ، وما فيه ثلاثة الأوجه^(٢٢) ، والكلام على ذلك مستوفى في شرح لامية الأفعال لليمني فراجع^(٢٣).

الفصل الثاني

في الكلام على فعل يفعل بفتح العين في الماضي وكسرها في المضارع اعلم أن هذا النوع أيضاً على قسمين : قياسي وسماعي : فالقياسي أيضاً واقع في أربعة مواضع :

الاول : إذا كان فاؤه واواً نحو : وعد ١٠٤١ / يعد ، ووزن يزن وما أشبه ذلك .

الثاني : إذا كان عينه ياءً نحو باع يبيع ومال يميل .

الثالث : إذا كان لامه ياءً نحو : رمى يرمي ، وأتى يأتي .

الرابع : إذا كان مضاعفاً لازماً كحذ يحذ ، وأن يئذ . فهذه المواضع الأربعة القياس فيها أن يكون المضارع مكسوراً وإلى ذلك الإشارة بقول ابن مالك في اللامية^(٢٤) :

..... وأنم

كشراً لعين مضارع يلي فعلاً

ذا الواو فاء أو اليا عيناً أو كاتى

كذا المضاعف لازماً كحذ فلا

تنبيهات :

الاول : صرح في التسهيل بأن سائر العرب غير بني عامر تلتزم كسر مضارع ما فاؤه واو ، ولم يستثن منه شيئاً ولا شرط له ، وهو مقتضى كلامه في اللامية ، لكن قال الشارح اليمني^(٢٥) وذلك عجيب من الناظم فإنه قد جاءت منه أفعال بالفتح ، بل أنا أقول باشتراط كون لامه غير حرف حلق فإنني تتبعته موائه فوجدت حلقي اللام منه مفتوحاً كوجأ أنشيه نجاً : رضى خضيتيه ، وودعه يدعه : تركه / ووزعه يزعه : كفه ، ووضع يوضه ، ووقع يقع ، ووثع رأسه يثعه : شدخه ، وولع الكتب يلغ ، وويه ييه ، إذا فطن ، ولم اعثر على شيء من ذلك غير وضع الأمر يضح ، انتهى ، قلت : ١٤٢ / مجمل كلام ابن مالك في الحكم على سائر العرب غير بني عامر أنها تكسر مضارع هذا النوع إما لفظاً أو تقديراً ، فإنما لفظاً فظاهر وتقديراً فمما ذكره الشارح من الأفعال الثمانية بالفتح ، فإن قلت : من أين [عرف]^(٢٦) أنها مكسورة تقديراً ؟ قلت : الدليل على أنه مكسور تقديراً حذف الواو من الأفعال الثمانية للقاعدة المتقررة من حذف الواو إذا وقعت بين ياء مفتوحة وكسرة ، لأن هذه الفتحة تشبه الفتحة النائية عن الكسرة فيما لا ينصرف في الجمع المعتل بالياء الموازن لمفاعل كجوار ، فإنه في حال جزه يُجرُ بالفتحة ، وكان مقتضى ذلك أن تظهر الفتحة فيه على الياء ، لكن حكموا بأن النائب^(٢٧) عن الثقيل وإن كان خفيفاً في نفسه ثقيل فلم تظهر الفتحة فيه في حال الجز لذلك ، وكذلك هذا فإن حرف الحلق لما كان ثقیلاً ، والكسرة معه ثقيلة أقاموا هذه الفتحة لخفتها مقام الكسرة التي كانت مستحقة ، فهي وإن كانت خفيفة في نفسها فهي ثقيلة ، ولأجل ذلك حذفت الواو من هذه الأفعال كلها بخلاف وجل يوغل لأن ماضيه مكسور العين فالمضارع جاء مفتوحاً على القياس لأنه من باب علم يعلم ، فالفتحة فيه لفظاً وتقديراً لا لفظاً فقط كما تقدم ، فلأجل ذلك تشبث الواو . ١٤٢ ظ / قلت : فما تصنع في وسع يسع ؟ فلم لا يكون مثل وجل يؤجل ؟ قلت : يحمل على أنه من الباب الشاذ الذي هو باب حسب يحسب ، فأقيمت الفتحة فيه مقام الكسرة ، فلأجل ذلك حذفت الواو ، فكل موضع حذفت منه الواو فالفتحة فيه قائمة مقام الكسرة لأجل ثقل حرف الحلق ، ومالا فلا فإن قلت : قد يثبت الواو في أفعال حلقية جاءت بالفتح ، وهي : وغر صدره يغز ويغز يعنى توقد ، ووجر جسراً ويوجر بمعناه ، وولة يله ويؤله : ذهب عقله ، فهلا حذفت الواو في حال الفتح أيضاً ، قلت : الذي يفهم مما تقدم أن وجود حرف الحلق شرط لحذف الواو من يفعل بالفتح ، وقد علم من التقرير أن الشرط لا يلزم من وجوده الوجود ، نعم لو حذفت الواو من يفعل بالفتح بدون حروف الحلق لكان ذلك وارداً فتأمل فإنه في غاية من التحقيق في هذا النظام وقال في القاموس^(٢٨) : وجده يجده ويخذه بالضم ولا نظيره انتهى ، فهو في غاية الشذوذ .
التنبيه الثاني : فكر في التسهيل^(٢٩) أيضاً أن العرب جميعاً التزم كسر مضارع ما عينه ياء ولم يشذ منه شيء فحينئذ يحمل نحو بات / ١٤٣ و / يبيت ويبيت ، وناله يناله وينيله أن المكسور مضارع المفتوح والمفتوح مضارع المكسور .

التنبيه الثالث : يستثنى من يأتي اللام أبى يابى على أنه نقل في القاموس^(١١) أبى الشيء يابيه بالكسر على القياس أيضاً ، وذكر في التسهيل^(١٢) أيضاً أن التزام كسر هذا النوع لغة غير طي من سائر العرب . قال الشارح اليميني^(١٣) ومفهومه أن طيلاً يفتحونه قياساً ، ولم ينقله غيره عنهم إلا في قلاه بقله أى : أبغضه ، قلت : قال العلامة ابن فلاح^(١٤) في كافيته^(١٥) وما جاء على يَفْعَل بفتح العين من غير حرف الحلق شاذ وقد نقلت ألفاظ : أبى يابى ، وقل يلقى ، وسلى يسلى ، وجبى يجبى ، وغشى الليل يغشى ، فهذه تزداد على ما نقله غيره عنهم .

التنبيه الرابع : يستثنى من المضاعف اللازم ضريان : الأول : ما يشارك الكسر فيه الضم^(١٦) وذكر ابن مالك في اللامية^(١٧) أنها ثمانية عشر فعلاً وهي : صد عن الشيء : أعرض ، وصد منه : ضج وضجر ، وأث ، أي : كثُر ، وخز ، أي : سقط ، وحذت المرأة ، أي : تركت الزينة ، وبزوت العين أي : غرز دُمعها ، وجذ في عمله ، أي : قصده بعزم وهمة ، وتزوت يذه بالمشاة ، وطزت بمعناه ، أي طارت عند القطع ، ودرث ١٤٣ ظ / باللبن ، أي : بكثرة ، وجم الماء : كثُر واجتمع ، وشب الحصان إذا فرح ونشط فرفع يديه جميعاً ، وعز له ، أي : عرَضَ ، وفحبت الأفعى بالمهمة والمعجمة^(١٨) إذا نفخت بفمها وصوتت ، وشذ إذا انفرد ، وشخ ، أي : بخل ، وشطت الدار أي : بغدت ، ونش ، أي : جف وزهبت رطوبته ، وخز النهار ، أي : خفيت شمسها . وزار عليه اليميني ثمانية أفعال وهي : شت ، أي : تفرق ، وعزت الناقة بالمهملتين ، أي : سلحت ، وقز ، أي : برز ، وأزت القدر : شمع لغليانها صوت ، ووزت الجراة بتقديم المهمة : غرزت ذنبها لتبيض ، وأضت الناقة ، اشتد لحماً وسميت ، وكغ عن الشيء : جبن وضغف ، وخل لحمة : فزل ، انتهى ، فتصير الأفعال اللازمة التي فيها الوجهان ستة وعشرين . وزاد العلامة البرماوي في شرح اللامية^(١٩) لج في الأمر يلج باللام والجيم لجوجاً ولججاً ولجاجة ، وهو التماذي فيما لا يليق . الضرب الثاني : ما ينفرد فيه الضم ، وذكر في اللامية^(٢٠) أنها ثمانية وعشرون وهي : مز به : جاوزه ، وجل عن منزله : ارتحل ، بخلاف جل قدرة فبالكسر فقط ، وهبت الريح نسمت ، وذرث الشمس : فاض شعاعها ١٤٤ و / وأجت النار والريح : شمع لها دوي ، وكز على قرنه : رجع ، وهم بالامر : قصده ، وغم النبث : طال ، وزم بانفه : إذا تكبر ، وشخ المطر : نزل بكثرة ، ومل في سيره : أسرع ، وآل السيف ، لمع ، وشك في الأمر : تردد فيه ، وآب : تهيا للسفر ، وشذ في المشي ، أي : عدا ، وشق عليه الأمر ، إذا أضر به ، وخش في الشيء ، إذا دخل ، وغل فيه ، أي : دخل فيه أيضاً ، وفش القوم : حسنت حالهم بعد بؤس ، وجن عليه الليل : دخل ، ورش السحاب : أمطر ، وطش : أمطر أيضاً مطراً خفيفاً ، وثل ، أي : رات ، وظل دمه ، أي : ضاع ، وخب الحصان ، أي : أسرع ، وكم الدخل ، إذا أطلع أكماله ، وعشت الناقة ، زعت وحدها ، ومشت أيضاً كغشت . وانتقد عليه الشارح اليميني^(٢١) في ثلاثة منها وهي : آل وآب وطش فذكر نقلاً عن القاموس^(٢٢) أنها بوجهين .

وزاد عليه الشارح المذكور^(٢٣) في التزام الضم في المضاعف اللازم ثمانية عشر فعلاً وهي : مث اليه ، وسخ الماء ، سال ، وسخ بطنه : رقا الخارج منه ، وأخ بالمهمة : سفل ، وسخت الجراة بالمعجمة : غرزت ذنبها لتبيض ، وأذ البعير : رجع الحنين في جوفه ، وحد عليه : غضب ، وعز الظليم : صاح ، وحص الحمام إذا شرط وعدا وضم أدنيه وخضع ١٤٤ ظ / بذنبه ، ولطت الناقة بذنبها ، ألصقته بين فخذيها ، وكف بصره ، عمي ، والناقة تاكلت أسنانها من الكبر ، وبق في كلامه : أكثر ، وشق بصر الميت : تبع روحه ، وعك يومنا ، اشتد حره مع سكون ريحه ، وفك الرجل ، أي : هزم ، وأمت المرأة : صارت أمّاً ، وغم يومنا ، اشتد خزه ، وصن عنه ، صد واغرض ، فهذه الثمانية عشر تلحق بالثمانية والعشرين فيصير المستثنى ستة وأربعين ، وماعدا ما ذكر من الأنواع الأربعة المتقدمة فالكسر فيها سماعي كضرب يضرب ، وجلس يجلس ، فغلم من جميع ما تقدم أن السماعي من الأفعال بضم عين مضارع فعل المفتوح أو بكسرها على طريق الاجمال ماعدا واوي العين واللام ويائيهما ، وواوي الفاء والمضاعف مطلقاً وما لغلبة الفاخر ، وقد نظمت ذلك فقلت .

قد جا قياساً ومسموعاً فخذ جُملا
عيناً كذاك إذا في اللام قد جُملا
إلا الذي لغة عن ذلك اعتزلا
ولم يكن بدواعي الكسر قد شُغِلا
أي فائه من حروف الحلق قد حصلا
بالواو ماء أتى أو عيناً أو كملا

ضم المضارع عيناً أو بكسرتـه
ينقاس ضمّاً إذا ما الواو فيه أتى
وفي المضارع موصوفاً بتمعية
وفي الذي قد أتى من ذي مفاخرة
١٤٥ و / ولم يكن عند بعض غير أوله
وخذ قياساً لكسر في المضارع إن

سوى الذي جاء مضموماً وما اشتملا
وما عدا ذلك مسموع كما نُقِلَا

بالياء أو ذا لزوم أو مضاعفة
على انضمام وكسر في مضارعه

ولنرجع الى كلام صاحب القاموس في قوله في الديباجة ولا مانع ، اذا ذكرت المصدر مطلقاً الى آخره ، فقوله ولا مانع أي لا مانع من الضم وهي الاقسام الاربعة المذكورة أول الفصل الثاني الموجبة للكسر ، فاذا ترجم بالمصدر أو بالفعل الماضي فقط وكان من الاقسام المذكورة فهو بالكسر ، فقد انكشف بحمد الله تعالى قوله : « ولا مانع ، فقوله في فصل الواو من باب الباء : الوثْبُ ، الطفر ، فقد ترجم بالمصدر فلولا قوله : ولا مانع لحكمنا بأنه من باب كتب لكن منع من ذلك كون فائه واواً ، وهو موجب للكسر ومانع من الضم كما يعلم ذلك مما قدمناه في هذه الرسالة ، وكذلك قوله في فصل القاء من باب الهمز : « الفَيْءُ : ما كان شمساً فنسخه الظل ، والرجوع » ،^(٩٦) فهو وان ترجم له بالمصدر فهو من باب ضرب لأنه يائي العين . وكقوله ١٤٥ ظ / في فصل الغين من باب التاء : الغيث : المطر ، وغاث الله البلاد »^(٩٧) فترجم المصدر أولاً ثم بالماضي بدون الاتي ، وهو من باب ضرب لكونه يائي العين ، وقس على ذلك ما وقع من نظائره ، فلا نطيل بذكر الامثلة وهذا آخر ما تيسر جمعه في هذا المقام ، والحمد لله ولي الانعام ، وعلى رسوله أفضل الصلاة والسلام وهو حسبي ونعم الوكيل ، تم .

هوامش المقدمة

- (١) خلاصة الأثر ٤ / ٢٧٠ - ٢٧١
(٢) ج ١٢ ص ١٢٧
(٣) القاموس المحيط ٤
(٤) الزهر اليانع
(٥) مجموعات مخطوطة في مكتبات استانبول ص ٤٩
(الهامش)

هوامش النص

- (١) في الاصل « كرايم »
(٢) القاموس المحيط والقاموس الوسيط ص ٤ .
(٣) أي المضارع وقد ورد في الاصل (الاي) وهو تصحيف .
(٤) نسبة الى مراد الرابع
(٥) لم نقل على هوية المذكور
(٦) في الاصل (مزاده) والتصحيح يقتضيه السياق .
(٧) أبو عبد الله جمال الدين محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجبائي الشافعي النحوي ، توفي في دمشق سنة ٦٧٢ هـ . من أشهر كتبه : الخلاصة الالفية وتسهيل الفوائد ، وعمدة الحافظ وعدة الالفاظ وغيرها . انظر ترجمته في نفع الطبيب ٢ / ٢٨١ وبغية الوعاة ٢١٠
(٨) انظر شرح لامية الافعال لابن النازم ٢٢٩ - ٢٣٦
(٩) تقول : (أسبغه) بكسر الباء .
(١٠) شرح لامية الافعال لابن النازم ٢٣١ و ٢٣٣
(١١) نفسه ٢٢٩ و ٢٣٠ .
(١٢) تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ١٩٧ .
(١٣) شرح لامية الافعال لابن النازم ٢٣٥ وتتمة البيت الأخير :
..... اذا تعين بعضهما
للفقد شهرة اوداع قد اعتزلا
(١٤) بحرق : لقب محمد بن عمر بن المبارك بن عبد الله بن علي الحميري الحضرمي الشافعي علامة اليمن ، ولد سنة ٨٦٩ هـ بحضرموت ، وتوفي مسموماً بالهند سنة ٩٣٠ هـ انظر تاج العروس حيان ٢ / ٣٠٠ .
- (بحرق) وهديّة العارفين ٢ / ٢٣٠ .
(١٥) اسم الشرح : « فتح الاقفال وحل الاشكال بشرح لامية الافعال »
(١٦) وذكر في الشرح المختصر من ذلك أيضاً : دعا يدعو ولغا يلفو ، ولها يلهو ، وسخا بالمال . يسخو ، وصحا يصحو . انظر ص ٢٦
(١٧) اي (طيفي) .
(١٨) شرح لامية الافعال لبحرق اليميني الشرح المختصر ٢٦ .
(١٩) شرح لامية الافعال لبحرق اليميني (الشرح المختصر) ص ٢٦ .
(٢٠) يعني بحرق .
(٢١) شرح اللامية لبحرق (الشرح المختصر) ص ١٥ فقد ذكر فيه الفلمين الاولين .
(٢٢) آل عمران ٣١ . وجاء في تفسير البحر المحيط ٣ / ٤٣٠ : « قرأ ابو رجاء المطاردي » « تجبّون » ، و « يجيكم » بفتح التاء والياء من « يحب » وهما لغتان . ونقل ابو حيان عن الزمخشري انه قرئ « يجيكم » بفتح الباء والادغام .
(٢٣) مادة (حب) .
(٢٤) شرح لامية الافعال لابن النازم ٢٣٠ .
(٢٥) أربعة افعال تتحق بالخمسة التي ذكرها ابن مالك ، وقد نقلها الدمياطي عنه كما ترى .
(٢٦) البقرة ٢٦٠ . وانظر في القراءة تفسير البحر المحيط لابي حيان ٢ / ٣٠٠ .

(٢٧) في الاصل (بعض) وما أوردناه هو المعروف .
 (٢٨) في الاصل (لتيما) والصحيح ما ذكرناه نقلاً عن اللسان والتاج (هـش) .
 (٢٩) انظر شرح لامية الافعال لابن الناظم ٢٣٣ - ٢٣٤ .
 (٣٠) الصحاح مادة (خصم) .
 (٣١) القاموس المحيط مادة (خصم) .
 (٣٢) في الاصل : الثلاثة أوجه ، وما أوردناه هو الافصح .
 (٣٣) يعني الشرح الكبير الذي لم نقف عليه . وقد اختصر ما اشار اليه في شرحه المختصر ٢٦ - ٢٧ .
 (٣٤) شرح لامية الافعال لابن الناظم ٢٢٨ و ٢٢٩ .
 (٣٥) التسهيل ١٩٧ .
 (٣٦) قول الشارح اليميني بحرق في شرحه الكبير الذي لم نقف عليه وقد لخصه في شرحه المختصر الذي اعتمدنا عليه ص ١٨ .
 (٣٧) زيادة يقتضيه سياق الكلام .
 (٣٨) في الاصل (النايب) .
 (٣٩) القاموس المحيط (وجد) .
 (٤٠) التسهيل ١٩٧ .
 (٤١) مادة (أبي) .
 (٤٢) التسهيل ١٩٧ .
 (٤٣) بعني (بحرق) . والشرح المشار اليه هو الشرح الكبير الذي لم نقف عليه .
 (٤٤) ابن فلاح : منصور بن فلاح بن محمد بن سليمان بن معمر اليميني ، تقي الدين أبو الخير المشهور بابن فلاح النحوي ، له مؤلفات في العربية منها الكافي . جزء في غاية الحسن يدل على معرفته بأصول الفقه ، مات سنة ثمانين وستمئة . انظر ترجمته بغية الدعاة ٣٩٨ وهدية العارفين ٤٧٤/٢ .

مراجع الدراسة والتحقيق

(٤٥) لم أقف عليه .
 (٤٦) في الاصل (اللام) والتصحيح يقتضيه السياق .
 (٤٧) شرح لامية الافعال لابن الناظم ٢٣١ .
 (٤٨) أي (فُحِت) بالخاء ايضاً .
 (٤٩) أي بحرق ، في شرحه الكبير الذي لم نقف عليه ، وقد اشار في شرحه المختصر على اللامية الى تلك الافعال قال : « وقد ذكرت في الشرح ثمانية افعال تتلحق بها » انظر ص ٢٥ .
 (٥٠) لم أقف على هذا الشرح ولم أجد اشارة اليه فيما نُسب الى من لُقّب بالبرماوي ولعل المؤلف : ذو النون بن احمد بن يوسف البرماوي ثم المينتابي الحنفي المتوفى سنة ٦٧٧ هـ كما في هدية العارفين ١ / ٣٦٤ ، أو محمد بن عبد الدائم بن موسى البرماوي المصري شمس الدين ابو عبد الله الشافعي ، اصله من عسقلان ولد سنة ٧٦٣ وتوفى بالقدس سنة ٨٣١ كما في هدية العارفين ١٨٦/٢ .
 (٥١) شرح لامية الافعال لابن الناظم ٢٣٠ - ٢٣٤ .
 (٥٢) شرح لامية الافعال لبحرق اليميني (الشرح المختصر) ٢٢ ، ٢١ .
 (٥٣) القاموس المحيط الموائد : (ائل) و (أبب) و (طشش) .
 (٥٤) زاد عليه بحرق في شرح اللامية الكبير الذي لم نقف عليه ، وأشار في شرح اللامية المختصر الى ذلك بقوله « وذكرْتُ في الشرح ثمانية عشر فعلاً تتلحق بها . انظر ص ٢٢ .
 (٥٥) القاموس المحيط مادة (وثب) .
 (٥٦) القاموس المحيط مادة (فيا) . والرجوع معنى ثان من معاني الفياء . وفي القاموس المحيط معانٍ أخرى لم يذكرها المؤلف .
 (٥٧) المصدر نفسه (غيث) . وفي القاموس معانٍ أخرى أغلبها المؤلف اختصاراً .

(الشرح المختصر) . دار احياء الكتب العربية ، عيسى ألبابي الحلبي . (د . ت) . وعليه حاشية الطالب بن حمدون بن الحاج .
 ٨ - شرح لامية الافعال لبحرق اليميني محمد بن عمر الحضرمي (ت ٩٣٠ هـ)
 ٩ - الصحاح : لاسماعيل بن حماد الجوهري (ت في حدود ٤٠٠ هـ) . تحقيق احمد عبد الغفور عطار ، دار الكتاب العربي بمصر ١٩٥٦ م
 ١٠ - القاموس المحيط : لمجد الدين الفيروز آبادي (ت ٨١٧ هـ) . مطبعة السعادة بمصر ، وعليه تقييدات لأبي نصر الهوريني .
 ١١ - لسان العرب : لابن منظور (ت ٧١١ هـ) مطبعة صادر / بيروت ١٩٦٨ م .
 ١٢ - مجموعات مخطوطة في مكتبات استنبول . د . طه محسن ، منشورات معهد المخطوطات العربية ط ١ الكويت ١٩٨٥ م .
 ١٣ - معجم المؤلفين : عمر رضا كحالة ، مطبعة الترقى بدمشق ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م .
 ١٤ - هدية العارفين : لاسماعيل باشا البغدادي : استنبول ١٩٥١ م .

١ - القرآن الكريم .
 ٢ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) ط ١ مطبعة السعادة - القاهرة ١٣٢٦ هـ .
 ٣ - تاج الفروس من جواهر القاموس لمحمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥) طبعة الكويت .
 ٤ - تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لجمال الدين بن مالك (ت ٦٧٢ هـ) تحقيق محمد كامل بركات . دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٩٦٧ م .
 ٥ - تفسير البحر المحيط : لأبي حيان (ت ٧٤٥ هـ) ط ١ نشر مكتبة ومطابع النصر الحديثة - المملكة العربية السعودية - الرياض (د - ت) .
 ٦ - خلاصة الاثر في تراجم اعيان القرن الحادي عشر : لمحمد المحبي . المطبعة الوهبة بمصر ١٢٨٤ هـ .
 ٧ - شرح لامية الافعال : لبدر الدين بن مالك (ت ٦٨٦ هـ) نشرها د . حسام سعيد النعمي في مجلة كلية الدراسات الاسلامية العدد الرابع ١٩٧٢ م عن نشرة الالماني فوليك سنة ١٨٦٦ م ،

ثنائية الزمن الوجداني : الزمانية السلبية والزمانية الايجابية

النص

كبرت جميل !

١ - تقول بثينة لما رأت

فنونا من الشعر الاحمر

٢ - كبرت جميل وأودى الشباب

فقلت : بشئ إلا فاقصري

٣ - اتنسبن أيامنا باللوى

وأيامنا بدوي الاجفر

٤ - لما كنت أبصرتني مرة

ليالي نحن بدوي جوهر

٥ - ليالي انتم لنا جيرة

ألا تذكرين ، بلى فأذكري

٦ - وإد أنا أغيد غش الشباب

أجز الرداء من المنزبر

٧ - وإد لمتي كجناح الغراب

ترجل^(١) بالمسك والعنبر

٨ - ففتّر ذلك ما تلمعن

تفتّر ذا الزمن المنكر

٩ - وأنت كلؤلؤة المزيان

بماء شبابك لم تُعصري

١٠ - قريبان مريمنا واحد

فكيف كبرت ولم تكبري !

١ - يستمدّ النص مقومات قيامه من موقف جميل بثينة .

من الزمن .. الزمن الذي شغل الفلاسفة والفنّانين ، والبشر الاعتياديين ، بوصفه احساساً إنسانياً تشترك فيه امم الارض جميعاً في كل زمان ومكان . فالشاعر العربي منذ ما قبل الاسلام حتى يومنا هذا ، يشكل الزمن بما ينسجم ووجدانه أو حركة وجدانه ، أو مشكلاته الحضارية والاجتماعية ، أو الظروف البيئية . ولذلك تمذنت زوايا النظر الى وقع أقدام هذا الذي يحلّ

في الفراغ والمادة على حدّ سواء .

ان موضوع الزمن ، موضوعة دقيقة ومتشعبة . ولذلك ساحاول تناولها من زاوية النظر الى حركة الوجدان التي ينفعل في دائرتها الشاعر . بمعنى أنّ تحديد حركة الزمن في وجدان الشاعر تقع في ترثبات عالم توجس الوجدان من حركة الزمن في مدّها وجزرها ، وأثرها في المصير الانساني . فمعالجة النص ستكون على أساس تناول الزمن بوصفه معطى مباشراً « من معطيات الوجدان »^(٢)

أنّ الشعور بالقلق والاضطراب والاعتراب ، له الاثر الفاعل في توجيه نظر الشاعر الى الوجود المرتبط بالزمن . من هنا ، فان الشعور بالزمن هو شعور بالقلق والاضطراب والاعتراب . وبهذه المعادلة الجدلية ، تكون الذات في علاقة ثنائية مع الزمن . فهي زمانية ايجابية ما دامت تحقق وجودها في الزمن ، من ناحية ، وزمانية سلبية وهي تنظر اليه نظرة حذر وترقب وخيفة ، بوصف الزمن اداة لتغيير الاشياء من ناحية اخرى . فالزمانية السلبية موجودة ، ما دام التغيير موجوداً ، ومؤثراً خطراً في الوجود . وهذا التأثير يتأتى من كونه سعيّاً حثيثاً لإدانة التحولات في الشيئية ، التي تغادر بكارتها ، الامر الذي يؤدي بالشاعر الى رصد ، وتحويل قيمتها الى نقطة تصادم بين الوجدان المنتمي الى الحرية في صورتها الام ، وعدم ثبوتية الاشياء التي تولّد في النفس مشاعر عميقة وحادة تنكث كآبة وخوفاً ورهبة ، تتوزع حاضراً الماضي ، وحاضراً الحاضر ، وحاضراً المستقبل الذي يُرى من زاوية نظر حذسية .

وعلى اساس زاوية النظر الى التحولات الدائمة في الشيئية ، يكون الزمن غير منفصل عن الموت الذي يقع في اثناء الزمن . من هنا ، تجيء النظرة الى الزمن (اللاتناهي) ، متكافئة مع النظرة الى الموت (التناهي) . وهذا ما يقيمه وجدان الشاعر حين يحول القيمة الانفعالية التي توجدها حركة الزمن ، الى قيمة تعبيرية تستند الى رؤية داخلية تنكث عن شعور مفرط بـ (الانا) القادرة على الابداع في عالم موضوعي تراه ممرقاً ، ومحدداً ، لا يفي ، ولو بدرجة دائية ، بمتطلباتها وهذا من شأنه ، ان يدفع بالشاعر الى الشعور بالحزن .

٢ - ما موقف جميلة بثينة من الزمن في هذا النص الذي انتظم في عشرة أبيات^(٣) أنّ تخفي ، أو تحاول اخفاء ، آثار الزمن ،

موقف يشير الى رفض نتيجة ماثلة للعيان ، ولكنها نتيجة الغرض التي لا تمش الجواهر .. وهذا ما نجده في مفتتح النص :

تقولُ بثينةُ لما رأت فنوناً من الشَّعر الأحمر

فـ (الشَّعر الأحمر) رفضُ حالة فرضها الزمن (الزمن - الشَّيب) ، وتجسد هذا الرفض في تخضيب الشيب بلون يزيل ، أو يكاد يزيل ، الاحساس بالزمن ، أو - في اقل تقدير - الاحساس بوطاته . ولعل مما يساند ما ذهب اليه ملفوظات بثينة التي نقلها النص : (كبرث جميل وأودى الشباب) . وفي هذا تشكيل نواة منفصلة بآثار الزمن الذي تحسسه بثينة ، من خلال نظرها الى جميل ، وتحويل (الشَّعر الأحمر) الى منته ذي آثار وأخزة . وهذا ما يشتغل عليه رد فعل (جميل) الذي يتجلى في تكوين لساني قاذف - يمدلوله المباشر - أن يحذ من آثار الوخز ؛ بل يصده . وهذا التكوين هو جملة (الـ فاقصري) . فـ (الـ) - هنا - أداة تخفيض تؤدي - بالاشتراك مع الطلب - الى إحداث قطع يتضمن اختراماً مقصوداً لزمنية آنية تعمل على الحلول في ماضٍ طارئ لمؤثرات فاعلة في الوجدان . وطبقاً لهذا التكوين ، فإن قصر كلام بثينة ، يعني الاصرار على الكف عن ذكر المزيد المؤثر في (جميل) . وهذا يعني رفض حالة قائمة ؛ ولكن غير معترف بها .

أن مثل هذا الاحساس بالرفض ، هو الذي أملى على (جميل) أن يلجأ الى الماضي في مزدوجة : الزمان والمكان : « أنتنسين أيامنا باللوى » : زمان ومكان . « وأيامنا بذوي الاجفر » : زمان ومكان . « أما كنت أبصرتني » : زمان ومكان . « ليالي نحن بذوي جوهر » : زمان ومكان . « ليالي انتم لنا جيمة » : زمان ومكان . « الا تذكرين بلى فانكري » . في الزمان والمكان .

أن الالتفاف الى تحريك مكان الماضي وزمانه ، يفضي الى رسم قبضة حديدية بوجه الزمن . وهذا يعني ان وظيفة النص في هذا (التحريك) تقع في دائرة حظر نشاط منظور « بثينة » الزمني الصائت . بمعنى آخر : حشر الالتفاف الى الزمن الحاضر من خلال الاستغراق في صور الشباب . ومما يساند ما ذهب اليه أمران نحويان : الاول : فعلان طلبيان هما : (اقصري) - البيت الثاني ، و (انكري) - البيت الرابع . ومن خلالهما يبرز السمي الحثيث لتوسيع الصورة ، وتضافرها ، لاستعادة زمن ماضٍ . والثاني : « إذ » ذات الدلالة الزمنية الماضية التي اضيفت الى جملتين اسميتين بهدف ادامة الثبوت الزماني - اذا جاز التعبير ، على الرغم من حركية دلالتها ، من جانب ، وتدفعها السياقي ، من جانب آخر . وعلى الرغم من أنها - أقصد « إذ » - تتحرك في اطار هذا الفهم النحوي ؛ غير أنها تنطوي

على معنى آخر يؤدي دلالة . وهذا المعنى هو النحت باتجاه صيورة تفضي الى : التعليل . وهذا مؤدى بالطلب انكري ؛ للحد من نشاط الاعتراف بالزمن وآثاره ، ومن ثم العبور باتجاه الماضي . واذا كانت تلك هي غاية جميل ، فإن الازمة الحادة التي يولدها الزمن في كيان جميل ، تجعله ينسحب من موقف الرفض .. فمن لمثي كجناح الغراب - بوصفه تراتياً لونياً مسانداً لتفبيب الازمة ، الى ففتح ذلك ما تعلمين تفتح ذا الزمن المنكر - بوصفه تقريراً لفعل الزمن الانبي .

جميل - هنا - يولد التناقض في موقف الزمن .. التناقض القائم على التعليل والتبرير : تفتح ذا الزمن المنكر . وطبقاً لهذا التأسيس ، فإن النهج المرسوم - وظيفة موضوعية / قيمة انفعالية - ، يفضي الى : زمن يسير ولايسير : التذكر والارتقاء في احضان الماضي ، احساس بسير الزمن . والشَّعر الأحمر / المخضب ، اصرار على عدم سيره . و « أنت كلولة المرزبان » ، و « لم تكبري » : اصرار على عدم سيره ، و « كبرث ، ولم تكبري » احساس بالازمنة : سيره وعدمه ؛ غير ان تلك الازمة لم تولد عند الشاعر حالة استمراء الموت ؛ لانه اقام توازناً بين ماضي وحاضر : ماضي لمتو كجناح الغراب ، وحاضر صاحبه التي تبدو « كلولة المرزبان بماء شبابها لم تعمر » ... وهذا يعني التجند في الزمن ، أو تجميد الزمن عند زمن المراهقة . ومثل هذا التوازن يشير الى خيال (جميل) التعويضي في زمن يفزعه ، والآ كيف نفسر « فكيف كبرث ولم تكبري ؟ » .

أن الانتكاء على الماضي ، اتخذ نهجاً تعويضياً عن ثقل الخاضر الذي يحاصره وطبقاً لهذا الغرض ، فإن الماضي لا يشكّل موتاً ، وانما هو انبعاث . بمعنى ذلك أن الانتكاء على الزمن المستعاد هنا ، ليس انتكاء عاجزاً ، وانما هو انتكاء يشير الى نبض التجند بفعل القوة المسلطة على شر الزمن : الشَّعر الأحمر = الخضاب ، للانتصار عليه انتصاراً حقيقياً ، ثم التغلب على الموت .

ومع هذا كله ، فإن النص يضرب على وتر ثنائية الزمن لتحقيق الذات : الزمانية الايجابية : ايقاف الزمن « وأنت كلولة المرزبان » ، وهذا مساو متناظر بينهما : « قريبان مريعا واحد » ، والزمانية السلبية : التفتير الموجود : « فنوناً من الشَّعر الأحمر » ، و « ففتح ذلك ما تعلمين » .

والنص - بعد ذلك - يجسد ما ذهب اليه ، في ضربتين متضادتين متكافئتين ، يمثلها : عجز البيت الاول ، وعجز البيت الاخير فنوناً من الشعر الأحمر x فكيف كبرث ولم تكبري - الشيب الخضيب = الشباب) . وبهذا يقفل (جميل) قفل الزمن ، ليشير الى عدم انكفاله على وجهه من خلال لغة الغياب التي تؤدي الى النظر الى الحياة .

٣ - لا شك في أن الصورة حياة الشعر ، فهي تومئ أخطر أدوات الشاعر (١) لأن الشعر ، كما يقول بيتس « دم وخيال

وفكر تتدفق معاً»^(٦)، أو هو تحويل آلام الدم الى حبر، على حد تعبير البيوت^(٧)، وإذا كان صحيحاً ان المجاز هو الاداة الكبرى من ادوات التعبير الشعري^(٨) ومن دونه يصبح الشعر «كتلة جامدة»^(٩)، فان ثمة صوراً تعتمد في بنائها على عبارات تتكئ على المدركات الحسية العرفية التي تقدمها التجربة الخارجية، غير انها تتجاوز ذلك فتدخل في حوار مستمر مع الداخل، لنقل المشاعر الداخلية، أو تصوير العالم الداخلي. ومعنى ذلك ان التجلي الخارجي، هو نقل للعالم الداخلي من القوى الرمزية التي تستحيل الى نظام غير اعتيادي، بعد أن تكون رؤية الشاعر قد غاصت في اكوام هائلة من الالفاظ.

ان «الشاعر حين يستخدم الكلمات الحسية بشتى انواعها لا يقصد أن يمثل بها صورة لحشد معين من المحسوسات، بل يقصد بها تمثيل تصوّر ذهني معين له دلالاته وقيّمته الشعورية»^(١٠). وعلى اساس هذا الفهم، فإن «الشعر ليس شيئاً يضاف الى القصور الحسية، وانما الشعور هو الصورة، أي انها هي الشعور المستقر في الذاكرة الذي يرتبط في سرية بمشاعر اخرى ويعمل عنها. وعندما تخرج هذه المشاعر الى الضوء وتبحث عن جسم فانها مظهر الصور في الشعر»^(١١). ان الصورة ليست تشكيلاً لغوياً طارئاً على شعور الشاعر، وانما هي نابعة من داخله، واضطراب ذاته، وقلقها، واتزانها؛ لانها منتج من اعماق الذات، وبذلك تكون الصورة جزءاً من التجربة الشعرية، سواء أكانت مبنية على المجاز، أم على استعمال العبارات استعمالاً حقيقياً.

واستناداً الى ما ذهب اليه، فان النص لم يدفع باللفة اشارية الى الورا، اذ اعتمد على تعالق الذات بالفاظ حسية لا تومىء الى ومضى يدهم المتلقي، ويدهشه، ولكنها تشير. ويستوي ذلك حتى حين يتوسل بالاساليب البلاغية المتمثلة ببعض علمي البيان، والمعاني. وسنفحص - هنا - تعالق الذات بالتشبيه.

من الوسائل التي اعتمد عليها النص في بنيته التصويرية، التشبيه. يقول:

وإذ تلتني كجناح الغراب ترجلُ بالمسك والعنبرِ

هنا، وقوف عند التشابه الحسي.. انه قياس غير مباشر، لانه يقيم علاقة مقارنة تجمع طرفين. الاول: اللمة، والثاني: جناح الغراب، لينفذ الى وجه الشبه السواد، لتقرير الفتوة والشباب. والقبض على هذا التشابه تم عن طريق الرصد الخارجي الذي شكلته عين الشاعر المبصرة. ومثل هذا القبض لا يوحّد الاشياء، ولا يذيب التنافر. فقد ظلت (اللمة) منفصلة عن (جناح الغراب). والمظهر العملي لهذا الانفصال

هو أداة التشبيه: (الكاف).

لقد سيطرت على هذه الصورة حدقة الفهم والتقرير والوضوح، فكانت - بناءً - التفتاً الى الخارج أكثر من كونها التفتاً الى الداخل. بمعنى ان عين الرؤية الداخلية - بناءً ايضاً - منطفئة، الامر الذي يفضي الى القول إن بنيتها الحسية تركد وتستقر في معادلة تكاد تكون علمية: اللمة = جناح الغراب = سواد. وفي هذا تماثل مطابقة مجرى على اساس التقريب.

هكذا تبدو الصورة في بنيتها السطحية، ولكننا حين نعاودها على وفق الرؤية الزمانية الايجابية، فانها ستدخل في مجرى يحدث في دلالة القوة والفتوة، بدلالة فرز لفظية (الجناح) في معناها الإشاري، وفي مهمتها الوظيفية: الانتقال أو الإرتحال. ومثل هذه الازدواجية تفضي الى استعادة ماضٍ. ليس ذلك فحسب، وانما يسمى المعنى الإشاري لفعل (الجناح): جَنَحَ: مال، يسعى الى الاصطفاف مع الماضي في نراه. كما أن الجذر اللغوي لـ (الغراب) يقع في دائرة الذهاب: (غَرَبَ: ذَهَبَ). وطبقاً لهذا التأسيس، فإن الإيتان بالغراب متضاداً، ليس من قبيل التشابه اللوني، وانما يتأتى من مخزون موروث مستقر، استفزّه باعث الزمن الايجابي، إذ يُضربُ بالغراب المثل في: البعد، والبكور. وهذا ما يسعف الشاعر لإحداث أثره الماضي / البعد، والجدة / البكور. ومن المخزون الموروث الذي يصطف مع الالتفاف الى الماضي في محاولة للتبث فيه، هو ما يؤثر عن العرب قديماً. إذ انهم كانوا إذا نعتوا أرضاً بالخصب قالوا: وقع في أرض لا يطير غرابها^(١٢). وفي هذا دلالة على خصب زمن الشباب الذي تتعلق به الصورة، بعد اشتغال (العمق الإشاري)، كما اسميه. هذا من زاوية النظر الى الزمانية الايجابية. اما النظر الى الوجه الآخر للزمانية - أقصد السلبية - فان محاولة الطرق على المتضادتين تقود الى تصويت تسعى موجهة الى إيراد نزوع الحاضر الى المفارقة المبنية على أساس المثلث فيه: بمعنى: الاعتراف بتحوّلات الشئئية وهذا ما يشتغل عليه (العمق الإشاري) الآخر. وطبقاً لهذا الاستغال، فان (جناح الغراب) يمتنع من مخزون معرّي ولغوي أيضاً. إذ كان العرب يقولون: طار غرابه أي: شاب. وفي هذا العمق الإشاري صدور من حاضر متحرك - إحساساً ووقماً - الى ماضٍ ثابت - نزوعاً -؛ ولكنه الحاضر المهيمن الذي يقبض على الغرض والجوهر في آن واحد.

ويقول جميل متوسلاً بالتشبيه ايضاً.

وأنّ كلّ لؤلؤة المرزبان بماء شبّابك لم تُعصري

فما عمق الانفعال في تشبيهه (بثينة) (بـ) لؤلؤة المرزبان؟ يبدو أن جميلاً، كان منفعلاً انفعلاً قادراً على الالتحام ببركني التشبيه: على الرغم من حسيتهما، ووجود

بثينة المتصادم مع رفض جميل .. ثم « فاذكري » الذي تشبّع بدلالة تشير الى تثبيت الصورة التي ترحح الموقف الانبي المحاصر . فضلاً عن ذلك ، فان تكرار التماثل قد ادى مهمات دلالية وايقاعية . فقد كُزّر « إذا » مرتين في بداية البيتين : السادس والسابع . وكُزّر « الشباب » في الثاني والسادس . وتكرار الايقاع : « فغير ، تغفّز » ، ثم « لم تعصري ، لم تكبري » لتمثل التجنيس الازدواجي . ان توسل النص بهذه الاساليب ، قد قربه من المتلقي ، غير ناسين ما للاداء الدرامي (القصصي - الحواري) ، من أثر في تحقيق وحدة النص العضوية ، فضلاً عن نزوع الشاعر الى اسلوب التداعي : « أما كنت أبصرتني » حتى « وإن لمتي ... » ، حيث أسهم فنياً في تحقيق بنية متماسكة غير قابلة للانتثار .

٤ - ينتمي النص الى وزن المتقارب التام الذي يقوم على نواة واحدة هي (فعولن) . والملاحظة الايقاعية التي يفرزها النص ، هو هذا التداخل الذي - يجريه على الاعاريض . فقد جمع العروض المحذوفة (الحذف علة) : (فعولن - فعو = فَعْل) بالعروض المقبوضة (القبض زحاف) : (فعولن - فعول) . وفي هذا مستوى دلالي كما سنرى .

ولست أشك في القول ان حركة الوزن لا ترتبط بموضوع النص - أي نص ، وانما لها تساوٍ مع الانفعالات والعواطف : لانها حركة أنية لا تسبق حركة انصهار العناصر المولدة للشعر ، أو تعقبها ، لعلّ ترتبط بهيمنة الانفعالات اشاعر على مستويات التجربة وأبعادها في لحظات التكوين الشعري : وهي لحظات أنية تصهر العناصر ، حيث لا انفصام بينها . ان تلك الحركة - بوصفها بنية لامة - جاءت متوزعة بين النواة الصحيحة (فعولن) ، والنواة الزاحفة المقبوضة (فعول) ، والنواة المعلولة المحذوفة (نَعْل) . ومثل هذا التوزع يقود الى تأليف ايقاعي ، يتحسس الانسجام الوظيفي للتجربة الشعرية .

وتأسيساً على هذا التوزع ، فان المدقق في النص - يجد ان النويات الايقاعية المذكورة تشكل الاحصاء الاتي :

النواة	تسميتها	عدد مرات ورودها	النسبة المئوية
فعول	مقبوضة / زحاف	٣٤	٤٢ و ٥٠ %
فعولن	صحيحة	٣١	٣٨ / ٧٥ %
فعو	محذوف / علة	١٥	١٨ / ٧٥ %
	المجموع	٨٠	

(الكاف) . ومثل هذا الالتحام هو نتاج الانبهار بصورة (بثينة) التي تحاول إحلاها ، أو إخفاءها عن الزمن في محاولة للتغلّب من الحاضر . من هنا ، وجد جميل المقارنة بصورة لؤلؤة المزيان التي لا يملوها الزمن ولا ينالها الصدا ، قادرة على لم زاوية النظر في نقطة تتصادم مع دائرة الزمن . صحيح ان الصورة نظر من خلال الادراك وليس من خلال الذهول ؛ غير أنها التفات الى الداخل ، مثلما هي التفات الى الخارج . بمعنى آخر ان حدقته التشبيهية حذقة وضوح ومقابلة ؛ غير انها مجولة الى حذقة رؤيا خاصة بالاشياء ، خلقت دلالة جديدة تشير الى : عدم التحول بالمعنى المتضاد مع الزمن الذي يحوّل الشيثية باستمرار .

والسؤال الآن : اذا كان النص يتحرك على مستوى (التغيير غير المركب) - الصورة تشكيلاً ترابطياً ، فما الذي يجعله ذا - كما أسميه - أقصد على مستوى استعمال العبارات استعمالاً لا اشارياً ، وتشكيل نبض قادر على احتواء المتلقي ؟ ان تمثل صورة الحرمان في التراث المذري ، يؤدي - بالضرورة - الى التعاطف مع نوات العذرين ، ورحلات الصبر والمعاناة من جانب ، ومع ذات المتلقي وايقاع الحياة الذي يثير وترًا ذا نزوع رومانسي ، من جانب آخر . قد لا يدخل ما ذهبت اليه في صميم العملية النقدية ؛ ولكنه - في أي حال من الاحوال - مؤثر في الجذب ، مهما كانت درجته .

ان لغة النص قد أسهمت في تقريب المتلقي اليه ، حيث اننا لا نكاد نجد الفاظاً مستغلقة على الفهم ، تكون معها استشارة المعجم ضرورية . فالفاظه غير جاسية ولا نافرة . ولا ابالغ اذا قلت ان لغته - على الرغم من المساحة الزمنية الفاصلة بيننا وجميل - هي لغة حاضرا ؛ بل ان ما يكتبه بعض معاصرينا يستغرق على الفهم ، لا بسبب تعقيد الترابط التصويري والرمزي ، وانما بسبب الاستعمال غير الرشيد للمعجم الشعري الموروث .

لقد استعمل النص اسلوباً انشائياً هو : الاستفهام المتصل بالفعل المضارع تارة ، وبالماضي اخرى ، وهو اسلوب ذو وظيفة مهمة في تقريب المتلقي ، وشذ انتباهه : « أتسنين .. » ، و « أما كنت أبصرتني ... » . الاستفهام - هنا - لا يريد جواباً ؛ لأنّ الفرض منه ليس طلب الفهم ، وانما : الحلول في زمن غير زمنه . بمعنى آخر : الحلول في زمن مستعاد . كما لجأ الى المسائلة ، والاجابة عنها بـ (بلى) ، وفي هذا نفي النفي / اثبات ، انسجماً مع صورة الحلول تلك . وقد يصل اسلوب الاستفهام الى حدّ العتاب الواخز المتولد من الاستفهام الانكاري 'لتمجبي :

فكيف كبرث ولم تكبري ؟

ونلاحظ ايضاً اسلوب الامر : (فاقصري) الذي يؤدي دلالة تصاحب حالة رفض تأثيرات الزمن ؛ لانه يشكل (قطعاً) لقول

ان ترتب [فعول] على رأس النسب ، له تأثيراته الإيقاعية ، اذ تجعل هذا التشكيل الإيقاعي ، منفثاً من خلال الغاء الصوت الساكن : النون في النواة ، والصوت الساكن في الكلمة أو في الأكثر من كلمة . ومثل هذا الانفتاح يخلق اختصاراً صوتياً : (حذف النون = $\frac{4}{1}$ درجة)^(٥٥) ، في حين يشكل الانغلاق : النواة الصحيحة ، مذا صوتياً : (فعولن = $\frac{1}{4}$) . وتخلق النواة (فعول) سرعة أكبر مما تخلقه (فعول) بالتاكيد : فعو = $\frac{2}{1}$ = $\frac{4}{3}$] .

وانطلاقاً من تلك النسب ، والتشكيلات الإيقاعية ، فإن حركة الوزن الإيقاعية ترتبط بالدلالة . يظهر ذلك في الجملة الشعرية التي يمثلها البيتان : الاول والثاني ، حيث ترددت (فعول) ٨ ، أي بنسبة ٦٢٥ % ٥٠ % ، و (فعولن) ٥ أي بنسبة ٨٧٥ % ٣١ % ، و (فعو) ٣ ، أي بنسبة ٣٧٥ % ١٩ % . وهذا ما تسمى اليه إيقاعية (فعول) التي تزعمت النسبة . وهو سعي يساند الدلالة التي تختصر ، من أجل خلق تضاد مع تأثير الزمن الذي يرفضه جميل الخضاب رفض الشيب . والجملة الشعرية الثانية ، تتوزع النويات بين الترددات الآتية :

(فعولن) : ٢٤ ، بنسبة ٨٧٥ % ٤٢ ، و (فعول) : ٢٢ ، بنسبة ٢٥٨ % ٣٩ ، و (فعو) : ١٠ ، بنسبة ٨٥٧ % ١٧ .

إن غلبة (فعولن) إيقاعياً ، يسهم في تكثيف الدلالة التي تقدمها الأبيات :

٣ - ٩ . وهذه الدلالة تشير الى الحلول في ماضٍ مستعاد . ومثل هذا الحلول يحتاج الى تلبث ينماز بالبطء .

أما الجملة الشعرية الاخيرة المتمثلة في البيت العاشر ، فيتشكل الترتد على النحو الآتي :

(فعول) : ٤ ، بنسبة ٥٠ % ، و (فعولن) : ٢ ، بنسبة ٢٥ % ، (فعو) : ٢ ، بنسبة ٢٥ % .

ان احتلال (فعول) يقود الى إيقاع أسرع ، وهو ما تشتغل عليه الدلالة التي تنهي النص بالتماثل (مربعنا واحد) ، والتضاد المتفق (فكيف كبرت x ولم تكبري) : الاستفهام التكنيبي الإنكاري .

عود آخر الى إيقاعية (الأعاريض) ، نجد تساوياً حنسبياً في النواتين : (فعول) : الزاحفة و (فعو) : المعلولة ، اذ بلغت (فعول) ٥ ، أي بنسبة ٥٠ % ، و (فعو) ٥ ، أي بنسبة ٥٠ % . والتوزع المتناصف يشير الى دلالة النص الكبرى :

الزمانية الإيجابية ، والزمانية السلبية ، وهذا ما ينحت :

عجز البيت الاول : (فنوناً من الشعر الأحمر = فكيف كبرت ولم تكبري) : عجز البيت العاشر . و صدر البيت الثاني : (كبرت جميل وأودى الشباب = قريبان مربعنا واحد) : صدر البيت العاشر . ويتعكس هذه المعاملة تكون الدلالة المتخلقة من احلال السلب والايجاب في حركة « توازن » : الرجوع الى الماضي وسحبه الى الحاضر ، وأرجاع الحاضر الى الماضي .

الهوامش

- (٥) - الشعر كيف نفهمه ونتذوقه ، اليزابيث دور ، ترجمة : د . محمد ابراهيم الشوش ، بيروت ، ١٩٦١ ، ص ٣٩ .
- (٦) - المكان نفسه .
- (٧) - اللغة الشاعرة ، عباس محمود العقاد ، (د . م .) ، مطبعة الاستقلال الكبرى ، د . ت . ص ٤٠ .
- (٨) - الشعر العربي المعاصر ، د . عز الدين اسماعيل ، بيروت ، دار العودة ودار الثقافة ، ١٩٨١ ، ص ١٣٢ . وينظر مصدره .
- (١٠) - نفسه ، ص ١٣٥ .
- (١١) - ينظر : لسان العرب ، مادة (غزب) .
- (١٢) - يقصد بالدرجة هنا مصطلحها الحديث ، البعد الطنيني ، وهو الثانية الكبيرة . وهذا البعد بمثابة درجة كاملة ، قابلة للقسم على انصاف وارباع . ينظر الشعر العربي الحديث في العراق ص ٢٤٢ وما بعدها .

- (١) - في الاصل : تطل . وما ثبتته البستاني لتفادي عيوب الوزن وهو مجاء في حاشية الديوان .
 - (٢) - الزمن في الادب ، هانز ميرهوف ، ترجمة د . اسعد رزوق ، القاهرة ، مؤسسة سجل العرب ، ١٩٧٢ ، ص ١٦ .
 - (٣) - النص في الديوان يتألف من أحد عشر بيتاً . العشرة تنتمي الى المتقارب ، اما البيت الاخير فينتمي الى البحر الطويل وهو :
- حلفت لها بالراقصات الى منى وما سلك الاحزاب احزاب غزور

- ولا ادري كيف فات الدكتور حسين نصار هذا الوهم .
- (٤) - تطور الشعر العربي الحديث في العراق ، د . علي عباس علوان ، بغداد ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام ، ط ١ ، ١٩٧٥ ، ص ٤١ .

ويجدر بي استعراض بعض المخطوطات المهمة التي احتوتها خزائن الموصل سواء الشخصية منها ام العامة .
لابن سينا مخطوطات طبية مختلفة منها :
كتاب القانون في الطب : يوجد ١٥ خمس عشرة نسخة منه
اقدمها نسخت سنة ٦٠١ هـ ، وهي محفوظة ضمن خزائن
المدرسة الامينية في جامع الباشا ، وتقع في ١٦٤ ورقة .
كذلك هناك مقالة في الحميات من كتاب القانون نسخها
محمد سليم الطبيب ، ومقتبسات من القانون في خزائن
المدرسة الامينية نفسها .

لهذا الكتاب الجليل شروح كثيرة :
للأملي المتوفى سنة ٧٥٣ هـ ، والايلافي المتوفى سنة ٦١٨ هـ
ولأبي الحسن علي بن ابي الحزم القرشي في
مجلدين - قطع كبير ، وشرح آخر لم يذكر مؤلفه .
وقد أوجز ابن النفيس المتوفى سنة ٦٨٧ هـ هذا الكتاب
فسماه (الموجز في الطب) : وقد وجد له تسع نسخ اقدمها
نسخت سنة ٨٦٦ هـ .

وقد حل رموز هذا الكتاب محمد بن محمد الاقراي
المتوفى سنة ٨٠٠ هـ ، ونسخة الكتاب تقع في ١٦٢ ورقة
فيها نقص من الاول والاخير وهي محفوظة في الاوقاف ضمن
خزائن المدرسة الاحمدية .

وكان للموجز عدة شروح : للإقراي : نسخ سنة ٨٠٠ هـ ،
والسديدي نسخ سنة ١٠٨٠ هـ ، وآخر غير منسوب الى
مؤلف .

وهناك نقولات من شرح الموجز للشيرازي المسمى
المغني في علم الطب ، وهو مخطوط يقع ضمن مجموع في
مدرسة الخياط .

وهذا المغني المسمى (المغني في شرح الموجز) له
نسختان احدهما لم يحدد شارحها ، والاخرى للسديدي
الطبيب الذي كان حيا سنة ٧٤٥ هـ ، وهي نسخة جيدة
الخط ، عليها آثار رطوبة نتيجة سقوط الثلج عليها في الموصل
سنة ١١٧٠ هـ ، وهي موجودة حالياً في دار صدام .
ولابن سينا أيضاً أرجوزة في القضايا الخمس والعشرين
لابقراط في الدلالة على الموت ، وهذه الأرجوزة بنسختين
تقعان في المدرسة الاحمدية ضمن مجموع لكل منهما ،
وله أيضاً منظومة العلاج الواقي وتقع ضمن مجموع في

من خزائن المكتبات في الموصل

كلية التربية / الجامعة المستنصرية

يضم هذا الفهرس المخطوطات الطبية الموجودة في
خزائن مكتبات الموصل ، وقد اعتمدت في اعداده على الفهارس
المطبوعة الخاصة بمخطوطات الموصل : كفهرس الجلبلي
وفهرس الاوقاف وفهرس جامعة الموصل والمكتبة العامة في
الموصل ، يضاف الى ذلك المخطوطات التي كانت بحيازتها
دار صدام للمخطوطات في بغداد فتمت بتسجيل معلومات عن
المخطوطات الطبية منها اضافة الى تدوين المخطوطات التي
لها نسخ او مترجمون موصليون او تملكها أناس « موصليون
فكان بذلك هذا الفهرس جامعاً للمخطوطات الطبية في اغلب
مكتبات الموصل ، إن لم نقل جميعها ، ومن هنا تأتي أهمية
كونه اول فهرس يضم بين طياته كل المخطوطات الطبية في
جامعة الموصل . وقد أنصب اهتمامي على المخطوطات
العربية وسجلت ما عثرت عليه من مخطوطات تركية
وسريانية .

اما ترتيب الفهرس فقد اعتمدت التسلسل الهجائي
للحرف الاول من اسم المخطوط ، يليه اسم المؤلف فالناسخ
فسنة النسخ إن وجدت مع معلومات اخرى عن محتوى
المخطوط : أوله صفاته ... الخ ، ثم رقمه والمدرسة التي وجد
فيها حيث ركزت على اسم المدرسة التي اوقفت فيها
المخطوطات .

ثم ادرجت قياس المخطوط ، والمصدر المعتمد ، وهذا المصدر هو
المكان الذي توجد فيه المخطوطة وقد وضعت مخطوطات
الشروح مع مخطوطاتها الاصلية ، مثلاً كتاب شرح القانون
وضعته مع كتاب القانون على طريقة ترتيب استاذنا الفاضل
كوركيس عواد .

ولم يقتني ادخال مخطوطات النباتات الطبية الموجودة
في خزائن الموصل ، وبهذا تضمن الفهرس مخطوطات الطب
بفروعه كافة ، والادوية والاقرباذين والنباتات الطبية
فاستغرقت صفحاته ٢٢٦ صفحة حوى فيه المخطوطات
المنفردة والمجاميع الخطية .

مدرسة الاحمدية .

ولابن رشد القرطبي شرح لمنظومة ابن سينا فيها نقص من آخرها وتقع ضمن خزانة المدرسة اليونسية .

هذا ولابن سينا عدة أراجيز في الطب .

أما الرازي المتوفى سنة ٣١٣ هـ فله الحاوي الكبير في الطب في أربع نسخ غير كاملة أقدمها سنة ٧٩٦ هـ بخط صدر الدين بن اسكندر وتمثل قطعة من الجزء السادس .

وللرازي مخطوطة جداوله الحاوي نسخها داود الجلبلي سنة ١٩٢٥ م وهي موجودة في خزانته .

ولهذا الكتاب شرح للقزويني فيه نقص من آخره .

وفي الموصل ثلاث نسخ من كتاب المنصور في الطب للرازي ، منها نسخة بخط صالح بن منصور وهي نسخة قديمة ، وأخرى نسخت سنة ٩٤٠ هـ والثالثة نسخت في القرن الثاني عشر الهجري .

وهناك علاجات الحاوي الكبير (المجلد الثاني منه نسخة قديمة) ومن كتب الرازي الأخرى كتاب دفع مضار

الاغذية نسخة بخط محمد بن الحسين بن زيد سنة ٤٠٣ هـ .

وكتاب براء الساعة وله أربع نسخ أقدمها سنة ١١٧٢ هـ .

ورسالة تقع في ٤٤ صفحة ضمن مجموع . هناك أيضاً مجموع طبلي يتضمن عدة رسائل وهو موجود في خزانة د . داود

الجلبلي . وله أيضاً مختصر بعض أسماء الادوية مرتبة على حروف المعجم نسخ سنة ٨٥١ هـ .

ومن الكتب الأخرى التي لها نسخ كثيرة في خزائن الموصل كتاب الاسباب والعلامات لنفيس بن عوض له ثمان

نسخ ، وكتب داود الانطاكي :

التحفة البكرية

وتذكرة أولي الالباب وله سبع نسخ .

مع رسالتين في الطب

والنزهة المبهجة وله خمس نسخ

مع مختصر النزهة .

وكتب صالح افندي :

غاية الإتقان وله ثمان نسخ

ومركبات صالح افندي

ومفردات غاية البيان

ونزهة الابدان بنسختين

وقد تضمن فهرس المخطوطات كتباً في الطب ورسائل ومخطوطات ومقالات طبية بعضها لافلاطون والكثير منها ليس

لها أسماء مؤلفين وقد وجدت كتب أخرى لبقرات وابن بختيشوع والسيوطي وابن الجوزي ويهمني في هذا المقام أن القي الضوء على مخطوطات مؤلفين موصليين وهي :

١ - تعاريف في الصحة / لعلي بن علي العمري الموصللي وتقع ضمن مجموع في المدرسة الاحمدية .

٢ - تعليق على كتاب النقش في الحجر لغان ديك - طب وكيمياء لمحمد ضياء بن عبد الرحمن وصفي بك بن شريف بك

امين زادة الموصللي المتوفى سنة ١٣٥٤ هـ ، ناسخ هذا المخطوط :

الخطاط الشيخ محيي الدين ، ويقع في ٤٤ ورقة ضمن مخطوطات عبد الله نشاة

٣ - جامع علوم العمل في مداواة الامراض للموصللي

٤ - رسالة في النبض

جمع محمد الطبيب المهدي الموصللي المتوفى سنة ١٢٦٣ هـ تشتمل على بابين ومقدمة .

٥ - الرياض النعمانية في فوائد الطب من الحكمة الطبيعية لنعمان بن عثمان الدفترلي العمري الموصللي . هذه النسخة تعد

أول نسخة كتبت سنة ١١٦٥ هـ ، يلي الكتاب قسم من قانون ابن سينا ، ويقع المخطوط في ١٧٧ ورقة ضمن مخطوطات

جامع النبي شيت .

٦ - شرح أرجوزة للرئيس ابن سينا

لمحمد الطبيب المهدي بن قسيس يوحنا الطبيب الموصللي نسخها المؤلف بنفسه سنة ١٢٤١ هـ ، وتقع في ٢١٢ ورقة

ضمن خزانة د . داود الجلبلي .

٧ - شفاء السقيم

يحتوي على كتب طبية منقولة من كتب باللغة التركية والعربية منها مفردات قاسم المولوي الموصللي . وتقع في ٧٠

ورقة ضمن خزانة د . داود الجلبلي .

٨ - الشفاء العاجل والداء الكامل

لامين بك حفيد ياسين افندي الموصللي ، له نسختان .

٩ - الطب الجديد الكيمائي

للعالم الالماني براكليوس

ترجمة السيد محمد جلبلي الطبيب الموصللي ، وله ثلاث

نسخ . من هنا نخرج بنتائج مهمة ان المخطوطات الطبية في

الموصل لم تقتصر على الموصليين ، حسب بل حوت كتباً في مختلف فروع الطب والادوية والنباتات الطبية لمؤلفين معروفين

في التراث العلمي الطبي ، وهذه الكتب للموصليين نصيب طيب

في تأليفها أو نسخها أو ترجمتها أو جمعها في مجاميع .
واخيراً ان يتسع صدر الباحثين الكرام لما قد يقع من
سهو أو وهم في اعداد هذا القهرس كوني اقدم لأول مرة باعداد
فهرس ضخم للمخطوطات ولمدة قصيرة .
كما اتمنى ان ييسر عملي للباحثين والمحققين في مجال
الطب الاطلاع على مخطوطات الموصل الطبية .

(١) الاحكام الملخصة في حكم ماء الحمصة

لابي الاخلاص حسن الشرنبلاني المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ اتمها
تأليفاً سنة ١٠٥٩ هـ .
ضمن مجموع برقم ٣١ / ٢ مخطوطات د . محمد صديق الجليلي
القياس : ٢٨ / ١٨ ، و - ٢٠٥ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٦ / ٣٠٧ .

(٢) الاختلاج

١) اما بعد فهذا كتاب الاختلاج فيما ذكر عن الخضر عليه السلام
وذي القرنين في تفسير الاختلاج في جميع الاعضاء ...)
ضمن مجموع برقم ٥٩ / ١٨ (٦) المدرسة الرضوانية
القياس : ٢١ × ١٥ ، و - ١٢٠ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٨ / ١٣٦ .

× نسخة أخرى

اختلاج نامہ لاغصان البون ، النسخ سنة ١٢٩٣ هـ ضمن مجموع
برقم ٥٠ / ١٦ (١) المدرسة الاحمدية
القياس : ١٨ × ١١ ، و - ٦٤ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٥ / ١٢٤ .

× نسخة أخرى - نظم -

ضمن مجموع برقم ٥٣ / ١٨ (٢٣) المدرسة الرضوانية
القياس : ٢١ × ١٣ ، و - ١٠٦ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٨ / ١٢٧ .

× نسخة أخرى

بمعنوان (شرح اختلاجات الاضاء على خمس مقالات)
الناسخ : ياسين بن خير الله العمري سنة ١٢٢٣ هـ

ضمن مجموع برقم ٩ / ٦٤ (٢) خزائن د . داود الجليبي
القياس : ٢٢ × ١٤ ، و - ٦٦ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٦ / ٢٦٢ .

× نسخة أخرى

فيها آراء للامام علي كرم الله وجهه في الاختلاج
مجدول بالحمرة وفي كل صفحة ١٧ سطراً
ضمن مجموع برقم ٣٤ × ٢٥ (٢) المدرسة الحسنية .
القياس : ٢١ × ١٥ ، و - ١٢٣ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ١ / ٢٣١ .

× اختلاج الاعضاء

جعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٨ هـ
ضمن مجموع برقم ٥٠ / ٢٤ (٤) المدرسة الاحمدية
القياس : ٢٢ × ١٧ ، و - ١١٩ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٥ / ٣٠٧ - ٣٠٨ .

(٤) × أرجوزة في حفظ الصحة

لابن سينا : ابو علي حسين بن عبد الله المتوفى سنة ٤٢٨ هـ
تقع في صفتين
ضمن مجموع برقم ٢٦ / ١٩ (٢) مخطوطات جامع النبي شيت
القياس : ٥ × ١٥ ر ٥ ، و - ٦٧ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٢ / ٢٢١ .

(٥) × أرجوزة ابن سينا في القضايا الخمس والعشرين
لابقراط في الدلالة على الموت ، لابن سينا .

ضمن مجموعة برقم ١٥٢ / ٢ المدرسة الاحمدية
المصدر : فهرس الجليبي ٣٣ .

× نسخة أخرى

ضمن مجموع برقم ٦٦ / ٢٤ (٣) المدرسة الاحمدية
القياس : ٢٧ × ١٢ ، و - ٢٣٤ .

المصدر : فهرس عبد الرزاق ٣١٧ / ٥ ..

(١٠) X الأرجوزة الكبرى في الطب لابن سينا .

(٦) X أرجوزة صغيرة في علة المراق

ضمن مجموعة برقم ١٥٢ / ١ المدرسة الاحمدية
المصدر : فهرس الجليبي ٣٣ .

ضمن مجموع برقم ١٥٤ / ١٢ المدرسة الاحمدية
المصدر : فهرس الجليبي ٣٤ .

X نسخة اخرى

(٧) X أرجوزة في الطب

ضمن مجموعة برقم ٦٤ / ٢٤ (١٠) المدرسة الاحمدية نقص من
اولها
القياس : ١٨ x ١٣ ، و - ٢٨٦ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٣١٦ / ٥ .

لم يذكر اسمها ولا اسم ناظمها
ضمن مجموع برقم ١٥٤ / ١٠ المدرسة الاحمدية
المصدر : فهرس الجليبي ٣٤ .

X نسخة اخرى

(٨) X أرجوزة في الطب (كفاية المرتاض في علمي
الابوال والامراض لابن سينا

ضمن مجموع برقم ٦٦ / ٢٤ (١) المدرسة الاحمدية .
القياس : ٢٧ x ١٢ ، و - ٢٣٤ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٣١٧ / ٥ .

ضمن مجموع برقم ٦٤ / ٢٤ (١١) المدرسة الاحمدية
القياس : ١٨ x ١٣ ، و - ٢٨٦ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٣١٦ / ٥ .

(١١) X اسئلة واجوبة في شرب التتن (الدخان)

X نسخة اخرى

المؤلف : غير معروف
منه نسخة في مكتبة اوقاف الموصل
الرقم : ١٦ / ١٦ (٤) مدرسة الخياط .
المصدر : ١ - فهرس سالم عبد الرزاق ١١٠ / ٥
٢ - مصادر النباتات الطبية عند العرب
تأليف الاستاذ كوركيس عواد
مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٨٦ / ص ١٨١

ضمن مجموع ٩ / ٥٦ (٦) خزنة د . داود الجليبي
القياس : ٢٠ x ١٥ ، و - ١٧٣ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٢٥٦ / ٦

X نسخة اخرى

(١٢) X الاسباب والعلامات

ضمن مجموع برقم ١٥٤ / ١١ المدرسة الاحمدية
المصدر : فهرس الجليبي ٣٤ .

محمد بن علي بن عمر المتطبب المتوفى سنة ٦١٩ هـ
(الحمد لله على نعمائه السابقة ...)
الناسخ : ابو المحاسن محمد بن ابي بكر النيسابوري
الرقم : ٢٠ / ١ المدرسة الاحمدية .
القياس : ٢٥ x ١٧ ، و - ١١٥ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٢٥٩ / ٥

(٩) X أرجوزة في المجريات

للرئيس ابن سينا
ضمن مجموع برقم ٦٦ / ٢٤ (٢) المدرسة الاحمدية
القياس : ٢٧ x ١٢ ، و - ٢٣٤ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٣١٧ / ٥ .

(١٣) X الاسباب والعلامات (١)

نظير بن عوض الكرماني المتوفى سنة ٨٥٣ هـ -
(الحمد لله رب العالمين ...)

اوله فهرس لمحتواه

الناسخ : ابن محمد علي بن ميرزا علي محمد مومن الاصفهاني
سنة ١٠٦٠ هـ

الرقم : ٢٠ / ٧ مدرسة الاحمدية .

القياس : ٢٦ x ١٤ ، و - ٣٠٦

المصدر : ١ - فهرس الجلبلي ٣٢ برقم ١٣٦

٢ - فهرس عبد الرزاق ٢٦٠ / ٥

X نسخة اخرى

نسخت سنة ١١٥٩ هـ .

المصدر : مكتبة يحيى باشا الجلبلي في سجلات دار صدام
للمخطوطات بغداد .

X نسخة اخرى

نسخت سنة ١٢٣١ هـ . اضافة الى نسخة اخرى لم تذكر سنة
نسخها

المصدر : مكتبة يحيى باشا الجلبلي في سجلات دار صدام
للمخطوطات بغداد .

X نسخة اخرى

يخط بهمن المتطبيب الكازروني . في آخره

نسخ اقرا باذين يخط المذكور ايضاً .

الرقم : ١٠٠ مدرسة الحجيات

المصدر : فهرس الجلبلي ١٠٧

(= الاسباب والعلامات)

X نسخة اخرى

يليهام الموجز في الطب . كلاهما ناقص

الرقم : ١٠١ مدرسة الحجيات

المصدر : فهرس الجلبلي ١٠٧

X نسخة اخرى

الرقم : ١١٦ المدرسة الحسينية

المصدر : فهرس الجلبلي ١٢٩ .

X نسخة اخرى

يعنوان « شرح الاسباب والعلامات »

فيها نقص في الآخر

الرقم : ١٣ / ٦ خزانة د . داود الجلبلي

القياس : ٢٨ x ١٨ ، و - ٣٠٧

المصدر : فهرس عبد الرزاق ١٧٦ / ٦ .

X نسخة اخرى

يعنوان : « شرح الاسباب في الطب النافع للإصحاب

(الحمد لله رب العالمين ...)

قدمه لالوغ بيك بن شاه رخ كوركان

اتمه شرحاً سنة ٨٢٧ هـ في بلدة كرمان مسقط رأسه ضمن مجموع

برقم ٩ / ٥٥ (١) خزانة د . داود الجلبلي

القياس : ٢٩ x ١٧ ، و - ١٥٧ .

المصدر : فهرس عبد الرزاق ٢٥٥ / ٦ .

(١٤) X اقرا باذين الطب المختار

محمد جلبلي المتوفى سنة ١٢٦٣ هـ

نسخة المصنف ويخطه .

الرقم : ١ / ٦ خزانة د . داود الجلبلي

القياس : ٣٢ x ٢١ ، و - ٦١

المصدر : فهرس سالم عبد الرزاق ١٧٣ / ٦

(١٥) X أقسام النفس

نسخة ضمن مجموع برقم ٥٣ / ١٨ (١٩) المدرسة الرضوانية

القياس : ٢١ / ١٣ ، و - ١٠٦ .

المصدر : فهرس عبد الرزاق ١٢٧ / ٨ .

(١٦) X ألفية ابن سينا في الطب

خط جميل ، طب قديم ، كتب في آخره : « تم الكتاب على يد علي

الجميل الحنفي مذهباً والموصلي وطناً وذلك في ليلة الجمعة
لثلاثين يوماً مضت من ربيع الاول المنتظم في شهور سنة ست
وعشرين بعد الثمانيات وألف هجرية .

الرقم : ٢٥٨

القياس : ص ١٢٠ ، ق ٢٠٥ في ١٤ سم ، س ١٧
المصدر : فهرست مخطوطات المكتبة العامة في الموصل ص ٤٣ .

١٧) × الإيضاح في الطب

علي بن محمد بن عبد الله المتطبب الافري المتوفى سنة ٨١٥ هـ
منسوخة على نسخة المؤلف سنة ١١٣٠ هـ
الرقم ٢٠ / ٢ المدرسة الاحمدية .

القياس : ٢٣ × ٢٨ ، و : ٢٨٢

المصدر : ١ — مخطوطات الموصل : د . داود جليبي بغداد ،
١٩٢٧ م ، ص ٣٢

٢ — فهرس مخطوطات مكتبة الاوقاف العامة في الموصل . سالم
عبد الرزاق احمد ، مطبعة الاوقاف ، بغداد ، ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م ، ٢٥٩ / ٥ .

١٨) × بازنامة — في طب

١) وصلى الله على سيدنا محمد ، ذكر الرواة من الثقة اهل
المعرفة ...

الناسخ : احمد نيلة سنة ١٣٨٩ هـ

الرقم : ٦ / ٢ خزانه د . داود الجليبي

القياس : ٢١ × ٢٦ ، و - ٢٦

المصدر : ١ — فهرس داود جليبي ص ٢٣٦ برقم ١٦٠ مدرسة
يحيى باشا .

٢ — فهرس سالم عبد الرزاق ١٧٣ / ٦ .

١٩) × بحر الجواهر في المصطلحات الطبية

محمد بن يوسف الطبيب الهروي ، كان حيا سنة ٩٢٤ هـ .

أوله (حمد الكلام أجدي ذوي الافهام تحقيق دقائق اللغات
العربية)

النسخ : سنة ١٠٩٩ هـ

الرقم : ٢٠ / ٣ المدرسة الاحمدية .

القياس : ٢٢ × ٢٢ ، و - ١٩٣ .

المصدر : ١ — فهرس د . داود جليبي ص ٣٢ ، برقم ١٣٢ .

٢ — فهرس سالم عبد الرزاق ٢٥٩ / ٥

× نسخة اخرى

فيها نقص قليل من الاول والموجود يبدأ (حاو للكميات

المعالجات وموجز تقديمه مفن عن الاسباب والعلامات ..)

الفه بامر من الوزير محمد المشتهر بامير بيك

الرقم : ١٧٣ / ٦ خزانه د . داود الجليبي

القياس : ١٢ / ٢٤ ، و - ٢١٦ .

المصدر : فهرس سالم عبد الرزاق ١٧٣ / ٦ .

٢٠) × برء الساعة

للرازي : محمد بن زكريا المتوفى سنة ٣١٣ هـ

تاريخ النسخ : ١١٧٢ هـ

المصدر : فهرس داود جليبي ص ٣٥ المدرسة الاحمدية برقم

١٥٩ .

× نسخة اخرى

بمعنوان « برء الساعة ورسالة في المضد للرازي »

تاريخ النسخ : ١٢٠٣ هـ

المصدر : مكتبة يحيى باشا الجليبي^(١) ، من سجلات دار صدام

للمخطوطات بغداد .

× نسخة اخرى

١) الحمد لله حق حمده والصلاة على رسوله محمد وآله)

تاريخ النسخ : ١٢٨١ هـ

الرقم : ٦ / ٤ خزانه د . داود الجليبي

القياس : ٢١ × ١٥ ، و - ٥

المصدر : فهرس سالم عبد الرزاق ١٧٣ / ٦ — ١٧٤ .

× نسخة اخرى

بمعنوان (نقولات وحكايات ووصفات علاجية وابيات شعرية مختلفة

الاغراض منها منقولة من بئر الساعة للرازي)

ضمن مجموع برقم ٩ / ٦ (٤) خزانه د . داود الجليبي

القياس : ٢٢ × ١٤ ، و - ٦٦

المصدر : فهرس عبد الرزاق ٢٦٢ / ٦ .

(١) مع هذه النسخة مخطوطة اخرى هي (مختصر ما يجب استحضاره

من صناعة الطب) .

(٢١) x بيان حشر الاجساد

لابن كمال باشا المتوفى سنة ٩٤٠ هـ
ضمن مجموع برقم ٢٨ / ٢٠ (٤) المدرسة المحمدية
الرقم : ٢٢ x ١٦ ، و - ٤٤ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٩٤ / ٧ .

(٢٢) x بيان دلالة اختلاج اعضاء البدن من الانسان

نظم آخره دلالة طنين الاذنين في ايام الاسبوع
ضمن مجموع برقم ٤٧ / ٩ خزنة د . داود الجلبلي
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٢٣٨ / ٦ .

(٢٣) x البيزرة

نسخة قابلها الشيخ اسماعيل الهيتي الحنفي سنة ٩٩٧ هـ .
الرقم : ١٢١ مدرسة عبد الرحمن جلبلي الصائغ
المصدر : فهرس داود جلبلي ١٥٧ .

(٢٤) x التبصره في أحكام الحيض .

صلاح الدين حسن بن اسماعيل بن عبد الله الدركزلي الموصللي
المتوفى سنة ١٣٢٧ هـ نسخت على نسخة بخط المؤلف . ا
(الحمد لله الذي يحب التوابين ...)
تاريخ النسخ : ١٢٧٨ هـ
الرقم : ٧ (الجامع الكبير - النوري)
القياس : ٢٢ x ١٦ ، و - ٣٦
المصدر : فهرس سالم عبد الرزاق ٢٠١ / ٢ .

x نسخة اخرى

بمنوان (تبصرة الاخوان في الحيض على مذهب المجتهد
المطلق) .

ا (الحمد لله الذي شرع الدين ما وصى به اولي العزم)
نقص من آخرها
ضمن مجموع برقم ١٢٥ / ١٨ (٦) المدرسة الرضوانية
القياس : ٢٣ x ١٨ ، و - ١٧٧ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ١٨٥ / ٨ .

(٢٥) x تحصيل الصحة بالاسباب الستة .

للطبيب الفاضل الحبيب التفتيسي (٩٠٠ هـ)
الرقم : ١٦١ مدرسة يحيى باشا .
المصدر : ١ - فهرس داود جلبلي ٢٣٦ .
٢ مكتبة يحيى باشا الجلبلي

من سجلات دار صدام للمخطوطات ، بغداد .

(٢٦) x التحفة البكرية في احكام الاستحمام الكلية
والجزئية .

لداود الانطاكي المتوفى سنة ١٠٠٨ هـ
ا (.... يامن غمس قلوب العارفين في بحار الاله وانزع للسالكين
حياض نعمائه ...)
وجاء في آخرها (علق هذه الرسالة النافعة افقر عباد ربه علي
الشعراوي للشيخ ... ابو العز)
بخط علي الشعراوي
ضمن مجموع برقم ١٥٣ / ٣ المدرسة الاحمدية .
القياس : ٢٠ x ١٥ ، و - ٢٤٦
المصدر : ١ - فهرس الجلبلي ٣٤ .
٢ - فهرس عبد الرزاق ٣٣٠ / ٥ برقم ٢٤ / ٧٧ (٣) .

(٢٧) x تحفة الطالب في أحكام العرق الضارب

عبد الواحد المغربي
ا (احمذك اللهم على ما اوليتنا من نعمائك حمداً كثيراً ...)
تاريخ النسخ سنة ١٠٦٩ هـ^(١)
ضمن مجموع برقم ١٥٣ / ٩ المدرسة الاحمدية .
القياس : ٢٠ x ١٥ ، و - ٢٤٦ .
المصدر : ١ - فهرس الجلبلي ٣٤ .
٢ - فهرس عبد الرزاق ٣٣١ / ٥ برقم ٢٤ / ٧٧ (٩)

(٢٨) x تحفة المحب في صناعة الطب

بدر الدين محمد بن محمد القوصوني المتوفى سنة ٩٣١ هـ
ا (احمد من ابوع سراج الانسان في احسن تقويم)
ضمن مجموع برقم ١٥٣ / ١ المدرسة الاحمدية .
القياس : ٢٠ x ١٥ ، و - ٢٤٦ .
المصدر : ١ - فهرس الجلبلي ٣٤
٢ - فهرس عبد الرزاق ٣٣٠ / ٥ برقم ٢٤ / ٧٧^(١) .

(٢٩) x تحقيق المعاد الجسماني .

ضمن مجموع برقم ٢٠ / ٥ مخطوطات عبد الهادي رؤوف
القياس : ١٨ x ١٠ ، و - ١٧٨ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٣٢٧ / ٦ .

x نسخة اخرى

بمنوان (بيان المعاد الجسماني)
الناسخ : محمد سعيد سنة ١٢٣٨ هـ
ضمن مجموع برقم ٢٤ / ٦٨ (١٤) المدرسة الاحمدية
القياس : ١٧ x ١٢ ، و - ١٤٢ .

المصدر: فهرس عبد الرزاق ٣١٩/٥ - ٣٢٠.

(٣٠) x تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجائب .

للشيخ داود الضريب بن عمر الانطاكي المتوفى سنة ١٠٠٨ هـ (سبائك مبدع هواد الكائنات ...)
الرقم: ١٩ / ١ خزائن المدرسة الامينية في جامع الباشا .
القياس: ٣٠ x ٢٨ ، و - ٣١٨ .
المصدر: فهرس سالم عبد الرزاق ١٥٧ / ٤ .

x نسخة اخرى

الرقم: ٢٠ / ٤ المدرسة الاحمدية .

القياس: ٢٤ x ٢٢ ، و - ٢٢٨
المصدر: ١ - فهرس داود جلبي ٣٢ برقم ١٣٣
٢ - فهرس سالم عبد الرزاق ٢٥٩ / ٥ - ٢٦٠ .

x نسخة اخرى

نسخة جيدة كتبت لمحمد أمين ياسين الفندي زادة الموصلي .
تاريخ النسخ: ١١٥٩ هـ
المصدر: فهرس داود جلبي ١٢٩ : برقم ١١٤ / المدرسة الحسنية .

x نسخة اخرى

المصدر: فهرس داود جلبي ٤٤ برقم ١٤١ / المدرسة الاسلامية .

x نسخة اخرى

المصدر: فهرس د. جلبي ١٦٦ ، برقم ٢٩ / المدرسة العبدالية .

x نسخة اخرى

ناقصة الآخر ، في صدر المجلد صفات صبر
المصدر: فهرس د. جلبي ١٠٧ ، برقم ١٠٢ / مدرسة الحجيات

x نسخة اخرى (نقولات التذكرة)

ضمن مجموع برقم ٢٤ / ٤٨ (٢) المدرسة الاحمدية .
القياس: ٢١ x ١٥ ، و - ٦٠
المصدر: فهرس عبد الرزاق ٣٠٧ / ٥ - ٣٠٨ .

(٣١) x التذكرة السعدية في القوانين الطبية

لمبدالله بن محمد بن عبد الرزاق الخوام

ضمن مجموعة برقم ١٥٢ / ٦ المدرسة الاحمدية

القياس: ٢٧ x ١٢ ، و - ٢٣٤ .

المصدر: ١ - فهرس الجلبي ٣٣ .

٢ - فهرس عبد الرزاق ٣١٨ / ٥ برقم ٢٤ / ٦٦ (٧)

(٣٢) x تذكرة الكحالين

علي بن عيسى الكحال المتوفى سنة ٤٣٠ هـ .
الرقم: ١ مدرسة الحجيات

المصدر: فهرس سالم عبد الرزاق ١٨٦ / ٣

(٣٣) x تسهيل المنافع في الطب والحكمة

ابراهيم بن عبد الرحمن الازرق المتوفى حوالي سنة ٨١٥ هـ .
ناقص من اوله والموجود منه يبدأ (صنفان لا غنى للفنان شافعي)
الاطباء لا يد انهم والعلماء لا يدانهم ...)

جمعه مؤلفه من كتابي شفاء الاجسام محمد بن ابي السيت
الكمواثي ، والرحمة للحكيم المقرئ مهدي الضيري ...)
ناقص من آخره ، جلده مزخرف

الرقم: ١٨ / ٤ المدرسة الاسلامية .

القياس: ٢٠ x ١٥ ، و - ٩٧

المصدر: ١ - فهرس داود جلبي ٤٤ برقم ٥٧ .

٢ - فهرس عبد الرزاق سالم ٧١ / ٢ .

(٣٤) x تعاريف في الطب

علي بن علي العمري الموصلي سنة ١١٨٢ هـ

ضمن مجموع برقم ٢٤ / ٤٨ (٤) المدرسة الاحمدية .

القياس: ٢١ x ١٥ ، و - ٦٠ .

المصدر: فهرس عبد الرزاق ٣٠٧ / ٥ - ٣٠٨ .

(٣٥) x تعلم حفظ الصحة العسكري .

نقص من اوله والموجود منه يبدأ (بالفصل الرابع تدابير عامة في

حفظ الصحة للطعام)

الرقم: ٦ / ٥ - خزنة د. داود الجلبي

القياس: ٢٣ x ١٨ ، و - ٦٥

المصدر: فهرس سالم عبد الرزاق ١٧٤ / ٦ .

(٣٦) x تعليق على كتاب النقش في الحجر لفان

ديك - طب وكيمياء

محمد ضياء بن عبد الرحمن وصفي بك بن شريف بك امين

زادة الموصلي المتوفى سنة ١٣٥٤ هـ .

١ (عند مطالعتي في كتاب الكنز المكنون في الصنائع والفنون ،

وجدت باباً ملخصاً مختصاً في التراكيب الكيميائية ، وله تعلق في كتاب النقش في الحجر للمعلم فان ديك فلاجل اتمام الفائدة احببت ان استكتبه في رسالة مخصوصة ..
اوله فهرس لمحتواه اتمه في ربيع الاول سنة ١٣٢٦ هـ .
[ناسخ هذا المخطوط : الخطاط الشيخ محيي الدين]
الرقم : ٢ مخطوطات عبد الله نشاة .
القياس : ٢١ × ١٣ سم ، و - ٤٤ .
المصدر : فهرس سالم عبد الرزاق ٣٣٢ / ٦ .

(٣٧) × مقدمة المعرفة في الطب

لبقرات بن ابراهيم اوهرقليدس الحكيم المتوفى سنة ٣٥٧ ق م .

خطه عادي ، طب قديم ، كتب في آخره (قد تم الكتاب بعمون الله الكريم الوهاب على يد افقر الوري عبد المحسن ابن المرحوم تاسم بك لجناب العالم العامل عبد الله افندي الشلشلي البكري القرشي وذلك في مدينة الموصل المحروسة في اليوم الحادي عشر من شهر شوال المكرم سنة ١٣١٩ هـ .
الرقم : رمضاني ١٣٢ .

القياس : ٢١ سم × ١٢ سم ، س ١٥

المصدر : فهرس مخطوطات المكتبة العامة في الموصل برقم ٢٥٩ ب /

× نسخة اخرى

نسخة جيدة كتبت بخط النسخ على يد مصطفى بن صالح لاجل الشلشلي نفسه في مدينة الموصل والسنة نفسها ولكن في ٢٤ شعبان

الرقم : ٥٢٧٦ - ٢ دار صدام للمخطوطات - بغداد

القياس : ٣٨ ص ٢٠ × ١٢ سم ١٥ س

المصدر : مخطوطات الطب والصيدلة والبيطرة في مكتبة المتحف العراقي ، اسامة ناصر النقشبندى دار الرشيد للنشر ، ١٩٨١ ، ٧٤ .

نسخة اخرى

ضمن مجموعة برقم ١٥٢ / ٨ . المدرسة الاحمدية .

القياس : ٢٧ × ١٢ ، و - ٢٣٤

المصدر : ١ - فهرس الجلبي ٣٣ .

٢ - فهرس عبد الرزاق ٣١٨ / ٥ برقم ٢٤ / ٦٦ (٩)

(٣٨) × تقويم الابرار في تدبير الانسان

ابن جزلة المتطبب البغدادي المتوفى سنة ٤٩٣ هـ
نقص من اوله وقد استكمل بخط حديث
تاريخ النسخ : ٦٥١ هـ
الرقم : ٢٠ / ٥ المدرسة الاحمدية
القياس : ٣٠ × ٢٢ ، و - ٩٨ .
المصدر : ١ - فهرس داود جلبي ٣٢ برقم ١٣٤ .
٢ - فهرس سالم عبد الرزاق ٢٥٩ / ٥ .
٣ - مكتبة الدكتور يحيى باشا الجلبي
من سجلات دار صدام للمخطوطات ، بغداد .

× نسخة اخرى

١ (الحمد لله الذي خلق فسوى وقدر فهدى وامرض فشفا) اسفل اوراقه ممزقة .
الرقم : ١٨ / ١ مدرسة الحجيات
القياس : ٣٠ × ٢١ ، و - ٤٤
المصدر : فهرس سالم عبد الرزاق ٩٩ / ٣ .

(٣٩) × ثلاثة رسائل في الطب

للامشاطي والاسرائيلي وابن الصائغ

تاريخ النسخ : ٩٧٩ هـ

المصدر : مكتبة د . يحيى الجلبي

من سجلات دار صدام للمخطوطات ، بغداد

٤٠ (جامع علوم العمل في مداواة الامراض للموصلي

عدد الاوراق : ٢

تاريخ النسخ : ٩٧١ هـ

الرقم : ٢٢٣

المصدر : فهرس عناوين المخطوطات في مكتبة الدراسات العليا ،

اعداد : بديعة يوسف ، فائق عبد الصاحب وحسين المزواوي ،

مكتبة الدراسات العليا ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ١٩٧٩ .

(٤١) × جنان الجنان في استعمال الدخان

لابي الوفاء العرضي المتوفى ١٠٧١ هـ / ١٦٦٠ م

تقع نسخته ضمن مجموع في اوقاف الموصل .

المصدر : ١ - فهرس سالم عبد الرزاق ١٠٦ / ٨ .

٢ - مصادر النباتات الطبية ١٠١ .

(٤٢) × الجواب الشافي لمن سأل عن الدواء الشافي

ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ هـ

أ (ما تقول السادة العلماء أئمة الدين (رضي الله عنهم اجمعين
في رجل ابتلي ببلىة ...)
ساقط جلاده

الواقف راشد بن عبد الله العنزي سنة ١٢٩٨ هـ
وهو بخطه سنة ١٢٩٧ هـ

الرقم : ١٨ / ٥ المدرسة الاسلامية .

القياس : ١٧,٥ × ٢٤,٥ ، و - ١٥٠

المصدر : فهرس سالم عبد الرزاق ٧١ / ٢ .

٤٣ (× الحاوي الكبير في الطب

لابي بكر الرازي المتوفى سنة ٣١٣ هـ
قطعة الجزء السادس

الناسخ : صدر الدين بن اسكندر سنة ٧٩٦ هـ

الرقم : ١٩ / ٢ خزائن المدرسة الامينية في جامع الباشا .

القياس : ٣٥ × ١٧ ، و - ٣٦٨ .

المصدر : فهرس عبد الرزاق ١٥٧ / ٤ .

× نسخة أخرى

مجلد منه بخط محمد تقي بن رفيع الدين بن علي المفاري

القاشاني ، نسخ سنة ١٠٣٦ هـ .

الرقم : ١٣٥ المدرسة الاحمدية .

المصدر : فهرس الجلبي ٣٢ .

× نسخة أخرى

المجلد الآخر فقط

ظاهرة جلد اسود ذو طباقه .

أبعد البسمل (رب اعني على اتمامه ...)

الرقم : ١٤٣ المدرسة الاسلامية

القياس : ٣٥ × ١٧,٥ ، و - ٣٣٣

المصدر : فهرس الجلبي ٤٤ .

× نسخة أخرى

بخط محمد تقي بن رفيع الدين بن علي المفاري القاشاني

المتوفى سنة ١٠٣٦ هـ

ضمن مجموع برقم ٤٤ / ١ (١) المدرسة الاحمدية .

القياس : ٣٢ × ٢٠ ، و - ٤٤٥

المصدر : فهرس عبد الرزاق ٢٨٨ / ٥ .

٤٤ (جداول الحاوي

محمد بن زكريا الرازي المتوفى سنة ٣١٣ هـ

أ (بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين قال محمد بن زكريا
الرازي ...)

الناسخ : داود الجلبي سنة ١٩٢٥ م .

الرقم : ٦ / ٦ - خزنة د . داود الجلبي .

القياس : ٣٢ × ٢٢ ، و - ٧٨ .

المصدر : فهرس عبد الرزاق ١٧٤ / ٦ .

٤٥ (× شرح الحاوي للقرظيني

علاء الدين علي بن اسماعيل القنوي المتوفى سنة ٧٢٩ هـ .

أ (بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين باعث الرسل وموضح
السبيل)

نقص من آخره

الرقم : ٩ / ٦ المدرسة المحمدية في جامع الزيواني .

القياس : ٢٨ × ١٩ ، و - ٢٦٦ .

المصدر : فهرس عبد الرزاق ٤٤ / ٧ .

٤٦ (× الحاوي في علم التدوي

نجم الدين محمد بن الشيخ الياس الشيرازي من اطباء القرن
السابع الهجري .

أ (الحمد لله الواحد الماجد)

ناقص من اوله وآخره (قال اسحق انه يضرب بالمثانة ...)

الرقم : ١٨ / ٢ مدرسة الحجيات

القياس : ٢٢ × ١٦ ، و - ١٢٧

المصدر : ١ - فهرس الجلبي ١٠٧ برقم ١٠٣ .

٢ - فهرس عبد الرزاق ٩٩ / ٣ .

× نسخة أخرى

الرقم : ١١٥ المدرسة الحسنية

المصدر : فهرس الجلبي ١٢٩

نسخة أخرى

الرقم : ١٦٣ مدرسة يحيى باشا

المصدر : ١ - فهرس الجلبلي ٢٣٦

٢ - سجلات دار صدام للمخطوطات بفداد
(مكتبة يحيى باشا الجلبلي)

٤٧ (X حفظ الصحة - محمد الطبيب

١ (الحمد لله الذي خلق الانسان في احسن تقويم وعلمه خواص
الاشياء)
مؤطر الصفحات

الرقم : ٦ / ٧ - خزانة د . داود الجلبلي

القياس : ٢١ x ١٤ ، و - ٤٦

المصدر : فهرس سالم عبد الرزاق ١٧٤ .

٤٨ (X حكم وفوائد في الادب والطب والتفسير

ضمن مجموع برقم ١٦ / ١ مدرسة الخياط .

القياس : ٢١ x ١٦ ، و - ٤١٠ .

المصدر : فهرس عبد الرزاق ١٠٥ / ٥ .

٤٩ (X خمس رسائل في الطب

لنجيب الدين السمرقندي

تاريخ النسخ : ٩٧٤ هـ

المصدر : مكتبة د . يحيى باشا الجلبلي

من سجلات دار صدام للمخطوطات ، بفداد

٥٠ (X دفع مضار الاغذية

محمد بن زكريا الرازي المتوفى سنة ٣١٣ هـ

١ (الحمد لله المعلم الحكيم الباريء المصور القدير العظيم الحي

القيوم الواحد الفرد القويم ...)

صفحته الاولى اكملت بخط يختلف عن خط الاصل .

جاء في آخره :

(تمت المقالة الثانية من كتاب محمد بن زكريا الرازي في دفع

مضار الاغذية وهو آخر الكتاب وكتبه محمد بن الحسين بن زيد

بخطه في .. شهور ربيع الآخر من سنة ثلاث واربعمائة والحمد لله

حق حمده . حسبنا الله وحده) يحتوي على مقالتين الاولى تقع

بـ ٩٤ ورقة والمقالة الثانية تقع بـ ٣٣ ورقة .

خطه مقروء ، ورقه اسمر ثخين يفصل بينهما رسالة منافع

الفاكهة ومضارها) للرازي ايضاً وتقع بثلاث ورقات . وهي
منسوخة سنة ٤٠٣ هـ ، وتمت اقدم مخطوطة للرازي .

الرقم : ٦ / ٨ - خزانة د . داود الجلبلي

القياس : ١٨ x ١٤ ، و - ١٣١ .

المصدر : فهرس سالم عبد الرزاق ١٧٥ / ٦ .

٥١ (X الرحمة في الطب والحكمة

للسيوطي : جلال الدين المتوفى سنة ٩١١ هـ .

١ (الحمد لله الذي اخترع من العدم الموجودات ، واظهر من

الموجودات الكائنات ، يتضمن خمسة فصول .

ضمن مجموع برقم ١٧ / ١ (٤) مدرسة الصائغ الجلبلي

القياس : ٢٢ x ١٦ ، و - ٩٤

المصدر : فهرس عبد الرزاق ١٨٦ / ٧ .

X نسخة اخرى

نقص من اولها

ضمن مجموع برقم ١٦ / ٤٣ (٢) مدرسة الخياط

القياس : ١٦ x ١١ ، و - ٨٨

المصدر : فهرس عبد الرزاق ١٢١ / ٥ .

X نسخة اخرى

ضمن مجموع برقم ١٨ / ١٥ (١٠) المدرسة الرضوانية

القياس : ٢١ x ١٦ ، و - ١٣٢

المصدر : فهرس عبد الرزاق ١٠٨ / ٨

X نسخة اخرى

الناسخ : ملا عثمان

ضمن مجموع برقم ٢٣ / ١ (٢) المدرسة الامينية

القياس : ٢٣ x ١٦ ، و - ٩١

المصدر : فهرس عبد الرزاق ١٩١ / ٤ .

٥٢ (X الرحمة في علم الطب والحكمة

تاريخ النسخ : ١٢٧٣ هـ

المصدر : مكتبة يحيى باشا الجلبلي

وهو من سجلات دار صدام للمخطوطات بفداد

x نسخة اخرى

برقم ٢٤ / ٦٦ (١٢) .

بمعنوان (كتاب الرحمة في الطب والحكمة)

x (٥٧) رسالة طب تركية

للمقريء محمد المهدي البصريي اليميني الهندي المتوفى سنة ٨١٥ هـ

الرقم : ١٤٤ مخطوطات جامع الباشا
المصدر : فهرس الجليلي ١٦٠ .

١ (الحمد لله الذي اخترع من العدم الموجودات ...)

ضمن مجموع برقم ٩ / ١٠ (٣) خزانة د . داود الجليلي
القياس : ٢١ x ١٦ ، و - ٣٧

المصدر : فهرس عبد الرزاق ٢١٩٠ / ٦

x (٥٣) رد ابي الحسن علي بن رضوان على الرسالة
المتقدمة

تاريخ النسخ : ١٢٢٦ هـ

المصدر : مكتبة د . يحيى الجليلي

من سجلات دار صدام للمخطوطات ، بغداد .

x (٥٩) رسالة في الاصطلاحات الطبية

ضمن مجموعة برقم ١٧ / ١٥٢ المدرسة الاحمدية

القياس : ٢٧ x ١٢ ، و - ٢٣٤ .

المصدر : ١ - فهرس الجليلي ٣٣ .

٢ - فهرس عبد الرزاق ٣١٨ / ٥

برقم ٢٤ / ٦٦ (١٩) .

بلا اسم المؤلف

ضمن مجموع برقم ٢ / ١٥٤ المدرسة الاحمدية

القياس : ١٨ x ١٣ ، و - ٢٨٦ .

المصدر : ١ - فهرس الجليلي ٣٤ .

٢ - فهرس عبد الرزاق ٣١٥ / ٥ - ٣١٦

برقم ٢٤ / ٦٤ (٢) .

x ٥٤ رسالة اخرى لعلي بن رضوان وضعها لاطباء مصر
والقاهرة يخبرهم بأحوال مختار بن حسن البغدادي

ضمن مجموعة برقم ٢٠ / ١٥٢ المدرسة الاحمدية

المصدر : فهرس الجليلي ٣٣ .

x (٦٠) رسالة في أمراض القلب من الغضب والحسد ملخصة من
كتاب احياء العلوم للغزالي .

ضمن مجموع برقم ١٧ / ٢٦ (٥) مدرسة الصائغ الجليلي

القياس : ٢١ x ١٣ ، و - ١٢٣

المصدر : فهرس عبد الرزاق ١٩٦ / ٧

x (٦١) رسالة في البول

x (٥٥) رسالة تتعلق في الانسان هل هذا هو الهيكل
المخصوص او غيره .

ضمن مجموع برقم ٦ / ٢٠ (٦) المدرسة المحمدية في جامع
الزيواني عبد الغني النابلسي ، اتمها سنة ١١٠٢ هـ .

القياس : ٢٢ x ١٧ ، ٢٢١ .

المصدر : فهرس عبد الرزاق ٨٥ / ٧ .

x (٥٦) رسالة دعوة الاطباء

للمختار بن بطلان البغدادي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ

ضمن مجموعة برقم ١١ / ١٥٢ المدرسة الاحمدية

القياس : ٢٧ x ١٢ ، و - ٢٣٤ .

المصدر : ١ - فهرس الجليلي ٣٣ .

٢ - فهرس عبد الرزاق ٣١٧ / ٥ - ٣١٨

لجالينوس

ضمن مجموع برقم ٧ / ١٥٣ المدرسة الاحمدية

القياس : ٢٠ x ١٥ ، و - ٢٤٦

المصدر : ١ - فهرس الجليلي ٣٤

٢ - فهرس عبد الرزاق ٣٣٠ / ٥ - ٣٣١ برقم ٧٧ / ٢٤ (٧) .

x (٦٢) رسالة في التنباك :

للحسني : ابراهيم بن سيد عبد الكريم

منها نسخة خطية ضمن مجموع في اوقاف الموصل .

المصدر : ١ - فهرس سالم عبد الرزاق ٩٦ / ٧ .

٢ - مصادر النباتات الطبية ٦٨ .

٢ - مصادر النباتات الطبية ١٢٨ .

x نسخة أخرى

(٦٣) x رسالة في حكم ماء الحمصة :

عبد الفني بن اسماعيل النابلسي المتوفى سنة ١١٤٣ هـ .

نقص من آخرها

رسالة ضمن مجموع برقم ١٧ / ٥٠ (٢) مدرسة الصائغ

الجلبي .

القياس : ٢٢ x ١٥ ، و - ٣٩

المصدر : فهرس عبد الرزاق ٢٠٧ / ٧ .

x نسخة أخرى

ضمن مجموع برقم ٢٣ / ٤٧ المدرسة الامينية .

القياس : ١٦ x ١٦ ، و - ٣٩

المصدر : فهرس عبد الرزاق ٣١٥ / ٧ .

(٦٤) x رسالة في الحكميات :

نقص من اولها الموجود منها يبدأ قال ابو العتياء لصاعد نحن في

دولتك .. في آخرها صفحة في الدعاء باللغة الفارسية

الرقم : ٩ / ٦ - خزائن د . داود الجلبي .

القياس : ١٨ x ١١ ، و - ١٧

المصدر : فهرس سالم عبد الرزاق ١٧٥ / ٦

(٦٥) x رسالة في الحيض والاستحاضة والنفاس :

لحسن بن اسماعيل بن عبد الله الدركزلي الموصل المتوفى سنة

١٣٢٧ هـ .

نسخة بخط المؤلف سنة ١٢٧٨ هـ

أ (الحمد لله الذي أمرنا بما فيه نفعنا)

ضمن مجموع برقم ٢ / ٦٠ مخطوطات الجامع الكبير النوري .

القياس : ٢٢ x ١٦ ، و - ٣١ .

المصدر : : فهرس عبد الرزاق ٢٧٩ / ٢ .

(٦٦) x رسالة في الدعاء وخواص العقاقير :

منها نسخة ضمن مجموع في اوقاف الموصل .

المصدر : ١ - فهرس سالم عبد الرزاق ١٠٩ / ٨ .

ضمن مجموع برقم ١٨ / ١٦ (٤) المدرسة الرضوانية

القياس : ٢٢ x ١٦ ، و - ١٥١ .

المصدر : فهرس عبد الرزاق ١٠٩ / ٨ .

(٦٧) x رسالة في العلاج :

رئيس الاطباء السلطاني مصطفى فيضي المعروف بحياتي

زادة المتوفى سنة ١٠٠٣ هـ .

أ (لما بعد فهذه رسالة الفها مصطفى أفندي حكيم باشي سلطان

محمد الفاتح بن السلطان ابراهيم رحمهم الله تعالى ، اشار

بتأليفها فصفها برسمه في بيان معالجة العلة المراقبة

السوداوية وغير السوداوية وهي مرتبة على احدى وعشرين

فصلًا ...)

نقولات من اولها وآخرها

الرقم : ١ / ١٤ المدرسة الرضوانية

القياس : ٢٢ x ١٦ ، و - ٣٢

المصدر : فهرس سالم عبد الرزاق ٩٥ / ٨ .

(٦٨) x رسالة في الطب :

ضمن مجموع برقم ٢٢ / ١٦ (١) مدرسة الحجيات .

القياس : ١٧ x ١٢ ، و - ١٤٤

المصدر : فهرس عبد الرزاق ١٣١ / ٣ .

x نسخة أخرى :

ضمن مجموع برقم ٣٦ x ٢٣ (٤) المدرسة الامينية .

القياس : ٢٠ x ١٥ ، و - ١٨٩ .

المصدر : فهرس عبد الرزاق ٢٠٧ / ٤ .

(٦٩) x رسالة في طب الابدان والاديان :

لمحمد بن حبيب ابي القاسم النيسابوري المتوفى سنة ٢٤٥ هـ

ضمن مجموع برقم ٢٧ / ٢ المدرسة اليونسية .

القياس : ٢١ x ١٥ ، و - ٢٢٥ .

المصدر : فهرس عبد الرزاق ٣٦ / ٨ .

(٧٠) x رسالة في الطب - تركي :

الرقم : ٢٢ / ١٧ خزائن المدرسة الامينية في جامع الباشا .
القياس : ٢١ × ١٦ ، و — ٦٦
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٤ / ١٧٩ .

(٧١) × رسالة في الطب القديم :

عن رأى . الانطاكي المتوفى سنة ١٠٠٨ هـ
ضمن مجموع برقم ٢٤ / ٢٠ (٣) المدرسة الاسلامية .
القياس : ١٦ × ١٢ ، و — ٥٦
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٢ / ٩٩ .

(٧٢) × رسالة في الطب منظومة ومنثورة بضمنها فصل
من كتاب الباه .

ضمن مجموع برقم ١٥٣ / ٨ المدرسة الاحمدية .
القياس : ٢٠ × ١٥ ، و — ٢٤٦ .
المصدر : ١ — فهرس الجليبي ٣٤ .
٢ — فهرس عبد الرزاق ٥ / ٣٣١ برقم ٧٧ / ٢٤ (٨) .

(٧٣) × رسالة في علم الصحة :

علي بن موسى الرضي المتوفى سنة ٢٠٣ هـ .
ضمن مجموع برقم ٧٠ × ٢٤ (١) المدرسة الاحمدية .
القياس : ١٢ × ١٧ ، و — ١٣٩ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٥ / ٣٢٣ .

(٧٤) × رسالة في الفروج :

للمختار بن الحسن بن بطلان البغدادي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ
ضمن مجموعة برقم ١٥٢ / ١٦
القياس : ٢٧ × ١٢ ، و — ٢٣٤ .
المصدر : ١ — فهرس الجليبي ٣٣
٢ — فهرس عبد الرزاق ٥ / ٣١٨ برقم ٦٦ / ٢٤ (١٨) .

(٧٥) × رسالة في ماهية الروح والحياة والنفس والعقل
واقسامها وتوابعها :

لابي كمال باشا المتوفى سنة ٩٤٠ هـ
١ (ويعد فهذه رسالة مشتملة على فوائد جلية عن ماهية الروح
والحياة والنفس والعقل واقسامها وتوابعها وهي مرتبة على

فصلين وستة عشر بحثاً) .

الناسخ : ملا محمد بن علي الدرزنلي سنة ١٢٠٦ هـ .
ضمن مجموع برقم ٧٦ / ٢٤ (٤) المدرسة الاحمدية .
القياس : ٣٢ × ٢٣ ، و — ٢٦٥ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٥ / ٣٣١ .

(٧٦) × رسالة في المجربات في الطب :

داود الضرير الانطاكي المتوفى سنة ١٠٠٨ هـ .
١ (باسمك اللهم نطلب النجاة والشفاء) .
ضمن مجموع برقم ١٥٣ المدرسة الاحمدية .
القياس : ٢٠ × ١٥ ، و — ٢٤٦ .
المصدر : ١ — فهرس الجليبي ٣٤ .
٢ — فهرس عبد الرزاق ٥ / ٣٣٠ — ٣٣١ برقم ٧٧ / ٢٤ (٥) .

(٧٧) × رسالة في النبض :

جمع محمد الطبيب المهدي الموصلي المتوفى سنة ١٢٦٣ هـ .
تشتمل على بابين ومقدمة .
١ (اعلم بان حركة النبض بالقوة الحيوانية وآلة الحركة القلب
والشريان ...)
الرقم : ١٠ / ٦ خزائن د . داود الجليبي .
القياس : ١٦ × ١١ ، و — ٢٢
المصدر : فهرس سالم عبد الرزاق ٦ / ١٧٥ .

(٧٨) × رسالة للرازي في الباه :

١ (قال محمد بن زكريا الرازي إنه وان كانت الكتب المؤلفة في الباه
غزيرة موجودة فإنني لم أر منها الى هذه الغاية كتاباً كافياً بالغاً
في هذا الغرض وتوابعه بل وجدتها اما مبتسرة او مشوشة
ملتبسة ... الخ .)
قد اشغلت ٤٤ صفحة .
ضمن مجموع برقم ١٥٤ / ٣ المدرسة الاحمدية .
القياس : ١٨ × ١٣ ، و — ٢٨٦ .
المصدر : ١ — فهرس الجليبي ٣٤ .
٢ — فهرس عبد الرزاق ٥ / ٣١٥ — ٣١٦ .
برقم ٦٤ / ٢٤ (٣)

(٧٩) × رسالة لمحمود بن الياس الشيرازي في الباه

١) الحمد لله الواحد الفتاح ، خالق الارواح والاشباح ، الذي جعل
المؤمن سكناً وخلق الصباح واباح النكاح ، وحرم السفاح ،
والصلوة ... الخ) .

في ٨٢ صفحة .

المصدر : مجموع برقم ١٥٤ / ٤ المدرسة الاحمدية .

القياس : ١٨ × ١٣ ، و - ٢٨٦ .

المصدر : ١ - فهرس الجليبي ٣٤ .

٢ - فهرس عبد الرزاق ٣١٥ / ٥ - ٣١٦ .

برقم ٢٤ / ٦ (٤) .

(٨٤) × الروضة في الطب :

عبد الله بن جبريل بن بختيشوع المتطبب المتوفى سنة ٤٥١ هـ .

١) اللهم أعن على طاعتك كل فاضل ...)

الناسخ : يوحنا بن قسيس دانيال الكلداني سنة ١١٤٦ م وقد

قويت النسخة على النسخة الاصل .

الرقم : ١٩ / ٣ خزائن المدرسة الامينية في جامع الباشا .

القياس : ١٦ × ١١ ، و - ٣٤ .

المصدر : فهرس سالم عبد الرزاق ١٥٧ / ٤ .

(٨٠) × رسالة ما جاء في العين مع فوائد اخرى .

١) صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال العين حق العين
حق ..)

المصدر : مجموع برقم ٢٤ / ٨٢ (٧) المدرسة الاحمدية .

القياس : ٢١ × ١٥ ، و - ١٣٩ .

المصدر : فهرس عبد الرزاق ٣٣٦ / ٥ .

(٨٥) × روضة المباهج في الطب :

خط رديء ، طب قديم ، فيه وصفات طبية قديمة .

١) بسم الله الرحمان الرحيم به ثقة فصل في الصداغ) .

الرقم : باشعالم / ١١٠٦ .

القياس : ٢١ × ١٥ ، و - ١٧٢ س ١٩

المصدر : فهرست مخطوطات المكتبة العامة في الموصل رقم

٢٦٢ .

(٨٦) الرياض النعمانية في فوائد الطب من الحكمة

الطبيعية ، لنعمان بن عثمان الدفترى العمري الموصل .

جاء في اول الكتاب هذان البيتان لاحدهم مادحاً المؤلف :

يتبرج الطرف في كتاب طبيب

حاذق في طبائع الانسان

حين ترعى تلك الرياض بفهم

تدري ان لا شقيق للنعمان

١) الحمد لله منشيء التركيب الانساني من عنصر التراب ومرتب

الهيكل الحيواني من عروق واعصاب ... الخ) .

ذكر المؤلف انه قرأ الطب على الشيخ احمد العبدلي . وقال

ناسخه : « وكان مؤلفه يحرر كراريس ويرسلها لي وانا اجرها

للبياض » .

فتكون هذه النسخة اول نسخة كتبت سنة ١١٦٥ . يلي الكتاب

قسم من قانون ابن سينا .

الرقم : ٩٨ مخطوطات جامع النبي شيت .

القياس : ٢٦ × ١٥ ، و - ١٧٧ س ٢٥ .

المصدر : فهرس داود جليبي ٢١٧ .

(٨١) × رسالة المفرجات :

انتخبها الشيخ احمد الحميدي رئيس اطباء بالديار المصرية

ضمن مجموع برقم ١٥٣ / ٦ المدرسة الاحمدية .

القياس : ٢٠ × ١٥ ، و - ٢٤٦

المصدر : ١ - فهرس الجليبي ٣٤ .

٢ - فهرس عبد الرزاق ٣٣٠ / ٥ - ٣٣١ برقم ٢٤ / ٧٧

(٦) .

(٨٢) × رسالتان في الطب :

بشر الدين محمد القوصوني .

تاريخ النسخ : ٩٧٤ هـ .

المصدر : مكتبة د . يحيى باشا الجليبي .

من سجلات دار صدام للمخطوطات ، بغداد .

(٨٣) × الروضة الطبية :

كتاب صغير ، خطه

الرقم : ١٤٥ مخطوطات جامع الباشا

القياس : ١٦ × ٩ ، و - ٧٠ ، ١٥ س .

المصدر : فهرس داود جليبي ٦٠ .

(٨٧) x شرح أرجوزة للرئيس ابن سينا :

سجلات دار صدام للمخطوطات ، بغداد .

محمد الطبيب المهدي بن تسييس يوحنا الطبيب الموصل
(نسخة الشارح) .

(٩٠) x شرح كتاب دعوة الاطباء :

ا (نبتدي بمونه تعالى شرح أرجوزة الحسين الشيخ ابي علي بن
سينا ...) .

لاي الحسن علي بن هبة الله بن البردي .
ضمن مجموعة برقم ١٥٢ / ١٢ المدرسة الاحمدية .

الناسخ : محمد الطبيب المهدي سنة ١٢٤١ م .

القياس : ١٢ x ٢٧ ، و — ٢٣٤ .

الرقم : ١٤ / ٦ — خزانة د . داود الجليبي .

المصدر : ١ — فهرس الجليبي ٣٣ .

القياس : ٢٢ x ١٦ ، و — ٢١٢ .

٢ — فهرس عبد الرزاق ٦٦ / ٢٤ (١٣) .

المصدر : فهرس عبد الرزاق ١٧٧ / ٦ .

(٩١) x شرح منظومة ابن سينا في الطب :

(٨٨) x شفاء السقيم :

ابن رشد محمد بن احمد القرطبي المتوفى سنة ٥٩٥ هـ .
نقص من آخرها .

ا (الحمد لله رب العالمين ومدير امور الخلق اجمعين ...) .

الرقم : ٦٤ المدرسة اليونسية .

يحتوي على كتب طبية منقولة من كتب باللغة التركية وكتب عربية

القياس : ٢٣ x ١٧ ، و — ١٠٤ .

معتبرة منها التحفة الجامعة ليحيى بن ابي بكر بن محمد بن

المصدر : فهرس عبد الرزاق ٨ / ٣١ .

يحيى وغاية البيان لصالح افندي ورسالة في الطب لنصرة

افندي الاسلامبولي ومفردات قاسم المولوي الموصل . صفحاته

(٩٢) x الصلح بين الاخوان في حكم إباحة الدخان :

مؤطرة .

الناسخ : مصطفى الحافظ سنة ١٢٤١ هـ .

للنابلسي : عبد الفني بن اسماعيل المتوفى سنة
١١٤٣ هـ / ١٧٣١ م .

الرقم : ١٦ / ٦ — خزانة د . داود الجليبي .

الرقم : ضمن مجموع برقم ٥٩ مدرسة الخياط .

القياس : ١٥ x ١١ ، و — ٧٠ .

المصدر : ١ — فهرس الجليبي ، ١٤٤ .

لمصدر : فهرس عبد الرزاق ٦ / ١٧٧ .

٢ — مصادر النباتات الطبية ١٢٠ .

(٨٩) x الشفاء العاجل والداء الكامل

لامين بك حفيد ياسين افندي الموصل .

الرقم : ضمن مجموع برقم ٢٣ (٣) المدرسة العبدالية .

المصدر : ١ — فهرس الجليبي ، ١٦٦ .

٢ — فهرس عبد الرزاق ٥ / ١١٤ .

٣ — مصادر النباتات الطبية ١٢٠ .

الرقم : ١٢٢ مدرسة عبد الرحمن جليبي الصائغ .

المصدر : فهرس الجليبي ١٥٧ .

x نسخة أخرى :

نسخة سنة ١٢٠٧ هـ .

المصدر : مكتبة يحيى الجليبي

أخبار التراث والمحققين

اعداد : د. عماد عبد يحيى .

● الندوات والمؤتمرات :

موضوعات تتعلق بنشأة الطباعة العربية وطرقها المستخدمة والاحوال التي رافقت وجودها والعوامل التي ساعدت على نموها . وعرضوا الاتجاهات في هذه الطباعة ونوعيتها ، وقدموا لوائح ببلوغرافية عن أوائل المطبوعات ، وألقوا الضوء على مناهج التحقيق التي اتبعت في نشر التراث المخطوط في أوائل القرن الرابع من الهجرة ، والكتب التي يُعاد طبعها محققة على وفق هذه المناهج .

ومن أبرز ما عرض في الندوة ما قدمه الدكتور علي ابراهيم النملة عن أثر المستشرقين في دراسة التراث العربي ، والدكتور صلاح الدين المنجد عن منهج نشر التراث العربي في أوائل القرن الرابع من الهجرة ، والدكتور عبد العزيز عبيد عن برنامج ذاكرة العالم الذي تقوم به المنظمة العالمية (اليونسكو) .

- علم الكحالة عند العرب :

نظم مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث في دبي ندوة عن (علم الكحالة في التراث العربي) في يوم الثلاثاء الموافق ١٤ آذار ١٩٩٥ ، ومن الموضوعات التي عرضت فيها : المؤلفات العربية في علم الكحالة للدكتور محمد رواس قلنجي ، وعرض الدكتور ظاهر ونائي مخطوطاً محققاً في علم الكحالة ، وألقى الدكتور نشأت حمارة محاضرة عن إسهامات العلماء العرب في علم الكحالة ، والدكتور ماهر عبد القادر محاضرة عن نظرية الإبصار عند الكحالين العرب .

- تاريخ العلوم عند العرب :

انعقدت الندوة العالمية السادسة لتاريخ العلوم عند العرب في كانون الاول من العام ١٩٩٦ في الإمارات العربية المتحدة ، والتي نظمها معهد التراث العلمي العربي - جامعة حلب بالتعاون مع مركز الدراسات والوثائق في دولة الإمارات . وعالجت الندوة الموضوعات : تاريخ العلوم الطبية والصيدلية ، تاريخ العلوم الأساسية (الكيمياء ، الفيزياء ، الرياضيات) ، تاريخ علوم الكون والفلك ، تاريخ العلوم الزراعية والري وعلم الحيوان ، تاريخ التكنولوجيا .

- أزمة العمل التراثي :

في ندوة علمية ، استمرت يومين (٢١ ، ٢٢) من نيسان ١٩٩٦ أثار معهد المخطوطات العربية مجموعة من قضايا

- التحديث وثقافة الانسان العربي :

عقد المجلس التنفيذي للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم دورته الثانية والستين في تونس للمدة من ٢٦ - ٣٠ آب سنة ١٩٩٥ ، وكان من أهم ما ناقشه الخطة التي تتضمن الخطوط والافكار الأساسية ، التي ستعتمد في تخطيط مشاريع الدورات اللاحقة وبرامجها . وقد ورد في كلمة الافتتاح التي ألقاها المدير العام للمنظمة الاستاذ محمد الملي ابراهيمي ، أن وثيقة التحديث ومحاوره التي اعتمدها المؤتمر العام للمنظمة هي الخطوة الاولى في طريق التحديث ، والانطلاقة المرجوة نحو أنشطة تلبي الاوليات في مجالات تمس الانسان العربي في تكوينه ، تربوياً وثقافياً وعلمياً ، من أجل تحقيق الوحدة الثقافية بين أبناء الوطن العربي . وأكد في كلمة الختام أن كل تجديد وإصلاح يصطلم بحيرة هنا وتساؤل هناك ، يكون سبباً في إثارة قلق ومخاوف لدى البعض ، أو يدفعه لسوء تاويل ● ●

- ترميم المخطوطات خطوة من أجل التراث :

عقد معهد المخطوطات العربية دورة تدريبية في دمشق حول ترميم المخطوطات وصيانتها ، استمرت من ٥ آب - ٢ أيلول سنة ١٩٩٥ ، وبواقع أربع ساعات ونصف يومياً ، تناولت الدورة العديد من الموضوعات المتعلقة تعلقاً وثيقاً بترميم المخطوطات وصيانتها ، مثل : التعقيم ، والعوامل الطبيعية والبيولوجية ، وطرق تنظيف الورق ، والكشف عن حموضته ومعالجتها ، وفك الاوراق الملتصقة ، وترميم القطوع المائلة والحادة والتفتت والكسور ، واستكمال الاجزاء الناقصة ، واستخدام اسلوب القص واللصق المباشر ، والعوامل المكثفة لمواد الكتابة ، والحشرات وانواعها وأضرارها ، وطرق تحضير الاصباغ المستعملة في ترميم الاغلفة الجلدية وتنظيفها وتعيمها ، وجدير بالذكر أن اغلفة المخطوطات ذات طبيعة خاصة ، وتحتاج إلى مهارات دقيقة لما تتمتع به أغلفة عدد كبير منها من طبيعة فنية تتجلى فيها الخطوط والرسوم والالوان مما يعطيها قيمة فنية ينبغي الحفاظ عليها . ونظم المعهد دورة تدريبية أخرى في تموز ١٩٩٦ بالتعاون مع المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة وهي الدورة الثانية في سلسلة دورات المعهد الخاصة بالترميم ، في حين تعد الرابعة في سلسلة دورات المنظمة الاسلامية .

- تاريخ الطباعة العربية :

نظم مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث في دبي ندوة عن تاريخ الطباعة العربية حتى نهاية القرن التاسع عشر في اثناء ٢٢ و ٢٣ من شهر تشرين الاول ، عرض الباحثون فيها

● تجدر الإشارة الى ان التحديث والتجديد والاصلاح الذي يمس التكوين التربوي والثقافي والعلمي ينبغي الا ينفصل عن المرجعية العربية وتحقيق هوية الامة .

● نتيجة للحصار الثقافي فان عدداً من الاخبار يصل الينا متاخراً .

التراث الخطرة والخطيرة، كان من أهمها الأزمة التي يعاني منها العمل العربي المشترك في ميدان التراث خصوصاً، والثقافة عموماً.. وقد أقيمت الندوة تحت عنوان «معهد المخطوطات العربية: وتائع الماضي ورؤى المستقبل» وتضمنت، فضلاً عن الجلسة الافتتاحية، أربع جلسات علمية، ألقى في كل جلسة منها بحثان. وقد بحث المشاركون في أثناء الجلسات قضايا العمل التراثي العربي المشترك، والمعوقات التي تعترض طريقه، والآفاق المستقبلية التي ينبغي أن يربتها، وهو على أبواب القرن الحادي والعشرين، واستعرضوا الجهود التي بذلها المعهد على مدى خمسين عاماً مضت، وقوموا هذه الجهود، منوهين بما أسفرت عنه من خدمات مهمة لتراث الأمة المكتوب، ومشيرين إلى أوجه القصور.

ومن أخطر القضايا التي عرضت في الندوة ما تحدث فيها الدكتور أحمد درويش عن أزمة العمل التراثي في ضوء مفهوم الثقافة: رؤية تاريخية.

وقد أكد في ورقته أن معهد المخطوطات في أثناء خمسين عاماً من عمره أدى دوراً رئيساً في المحافظة على فكرة التراث المشترك حية وناضجة، من خلال رصد المخطوطات وتصويرها وترميمها وكتابة التقارير عن تجمعاتها في المناطق البعيدة، وطبع ما يستطيع أن يطبعه منها، والتنسيق مع المكتبات العالمية والعربية في هذا الصدد، وإصدار مجلة للمخطوطات، والمشاركة في إعداد أجيال جديدة من المحققين من خلال دورات علمية جادة.

وقال: إن التراث ومجال الحركة فيه على الرغم من ضيقها خلال الفترات الماضية، يتعرض الآن لموجة قاسية من الهجوم المخطط له بعناية، وهو هجوم تنبع كثير من دوافعه من خارج هذا التراث وعلى يد من لا ينتمون إليه، لكن جزءاً آخر خطيراً يتم على يد أبناء هذا التراث نفسه بوعي أو بدون وعي، وجذور هذه الموجة تمتد إلى سنوات الصراع الطويل منذ زمن الحروب الصليبية إلى سنوات الحرب بين دولة الخلافة الإسلامية والتجمعات السياسية في أوروبا، مروراً بالعصر الاستعماري الذي كانت الدول الإسلامية مسرحه الرئيس وطعامه الملتهم، وتنتهي في جولتها الأولى باقتسام تركة الرجل المريض اقتساماً لم يُضفِ كل الخلاف بين المهاجمين أنفسهم، فظلوا في تجمعات تتقابل في حذر ويتخذ بعضها بعضاً عدواً لشحن الأسلحة، ويتخذون معاً أرض التراث العربي والإسلامي منطقة صراع تجري عليها لعبة الشد والجذب ولا تتدخل فيها غالباً إلا أنذرع الضعفاء من أبناء عالمنا. لكن هذه الخلافات وقد حسمت الآن - ولو مؤقتاً - على نحو أو آخر، اتفق الجميع على أن يكون «التراث العربي الإسلامي» هو العدو المعلن، وأن توجه إليه كل قوى التدمير... وأن يتم اقناع العالم بالتوحيد

ضده واقناع أبنائه بالنفور منه والتبرؤ من الانتماء إليه، ليشرف بصفة الانتماء إلى دائرة «المواطن العالمي المتحضر» في الوقت الذي يشجع فيه التراث اليهودي الملاصق والمنافس، على أنه يمثل الأصل البعيد للحضارات العتيقة والصورة القريبة لاندماج الحضارات الحديثة.

ودعا إلى مواجهة ذلك بتخطيط ثقافي واع يوجه إلى الداخل قبل أن يوجه إلى الخارج، ويفرق بين مفاهيم الاتصال والجمود، ويتوجه إلى العمل التراثي نفسه بالتجلية والتحليل واستقصاء العناصر التي يمكن أن تواجه عقل المثقف اليوم وليس عاطفته فقط، والحرص في المستويات الأكاديمية العالية على رموز هذا التراث وروحه، والنهوض بفكرة التحقيق وقيمتها العلمية، واعتبارها هدفاً ينبغي التخطيط له في وعي من أجل الحصول على نتائج معينة محدودة في مجالات تعرف سلها وتنطوي جوانب الأدب والعلوم الدينية والاجتماعية والتراث العلمي والفني، ويتم التنسيق بين الجهود في هذا الصدد من خلال الوسائل العلمية الحديثة.

ومن القضايا الخطيرة ما عرضه الدكتور يوسف زيدان في الجلسة الرابعة للندوة والتي رسم فيها خريطة المستقبل للمعهد، وأشار إلى أنه بمقارنة ماقدمه المعهد على أرض الواقع بما قبلته المؤسسات السياسية يمكننا القول: أن ما حققته الجامعة العربية - منذ نشأتها - على صعيد العمل الثقافي يفوق بمراحل ماقدمته في المجال السياسي.. فالبلاط العربية توحدها الثقافة بأكثر مما تتحد تحت مظلة السياسات والثقافة باقية، والسياسات عرضة للتبدل ومداومة التغير في المواقف. وعلى أي الأحوال، فليس موضوعنا هو المقارنة بين «السياسي» و«الثقافي» العربي، وإنما هي إشارة إلى أولوية الثقافي على السياسي، كمقدمة للكلام على المستقبل. وأوضح أن مسيرة التحولات تقتضي ديناميكية ذهنية وتطويراً دائماً، ليس للمفاهيم العامة للتراث فحسب، وإنما يجب أن يصل التطوير إلى تفصيلات العمل التراثي، فنظم الفهرسة الوصفية، لا بد لها من تطوير دائم، ومناهج تحقيق التراث، لا ينبغي لها أن تتوقف عند الأطر القديمة - التي وضعها المستشرقون أصلاً - بل لا بد من تطوير دائم لهذه المناهج؛ وقاعدة المشتغلين بالتراث ينبغي أن تتسع لتشمل الأجيال الجديدة.

وقال: إن على التراث مسؤولية كبيرة في تصنيع المعرفة وتشكيل العقول من خلال غرس الخلاصات التراثية المنتقاة بعناية ودمجها في برامج التعليم. وإلا، فلماذا يتعرف التلاميذ عندنا إلى إقليدس أكثر مما يتعرفون إلى ابن سينا، هل لأن إقليدس يمثل تراثاً عالمياً؟ إن ابن سينا هو الآخر يمثل هذا التراث العالمي في انصع تجلياته... المسألة إذن، أننا تابعنا الغرب في تصنيعه الخاص للعقول، ولم نتخذ موقفاً نقدياً بصدده المسألة.

- مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة :

عقد المجمع مؤتمره في اثناء المدة من ٢٨ من شوال الى ١٣ من ذي القعدة ١٤١٦ هـ . وقد تضمن المؤتمر خمس عشرة جلسة كانت الاولى مخصصة للافتتاح ، وفي الجلسة الثانية ألقى د . محمود علي مكي محاضرة بعنوان : الاستشراق الاسباني والدراسات العربية الاسلامية . وفي الجلسة الثالثة نظر الاعضاء في مصطلحات الفيزيكا ، والعلوم الطبية ، وألقيت فيها ثلاثة بحوث : الاول : القواميس المدرسية المتداولة للشاذلي القليبي . والثاني : الاعلام الجغرافية في رحلة ابن بطوطة للدكتور عبد الهادي التازي . والثالث : دراسة في علم تاريخ الافكار للدكتور احمد صدقي الدجاني . وفي الجلسة الرابعة نظروا في مصطلحات الجيولوجيا ، ومصطلحات التربية ، ومصطلحات علم النفس . واستمعوا الى ثلاثة بحوث كان اولها : عن الاصوات المتوسطة والاصوات الذلقة ، للدكتور كمال محمد بشر . والثاني : عن رحلة الشاعر الخاقاني الشرواني الى الحرمين الشريفين للدكتور مهدي محقق والثالث عن « قاموس البلاد المصرية لمحمد رمزي » للدكتور محمد السيد غلاب . وقد خصت الجلسة الخامسة لتأبين الدكتور ابراهيم بيومي مذكور . أما في الجلسة السادسة فقد نظر الاعضاء في مصطلحات الكيمياء ومصطلحات الشريعة ومصطلحات الفلسفة ، ثم ألقى الاستاذ الشاذلي القليبي بحثاً عنوانه : ألفاظ وتراكيب شائعة . والدكتور كمال محمد دسوقي بحثاً : الولاية والولاء والموالة في « لسان العرب » وفي « السياسة الشرعية » . وخصت الجلسة السابعة لتأبين الدكتور عدنان الخطيب ، وكانت الجلسة الثامنة للنظر في مصطلحات علوم الاحياء ، ومصطلحات الادب ، واعمال لجنة اصول اللغة . ثم ألقى الدكتور ناصر الدين الاسد بحثاً عن (البلغاء في كتب الجغرافيين العرب) والدكتور محمد رشاد الحمزاوي بحثاً عن (مقاييس ابن فارس ومفهوم المعنى) . ونظر الاعضاء في الجلسة التاسعة في مصطلحات القانون الدولي والفاظ الحضارة . أما البحوث فهي : خواطر عن اسماء بعض الاماكن في بلدنا للدكتور عبد الله الطيب ، (الحسن بن احمد الهمداني وكتابه الاكليل) للدكتور محمد احسان النص . وفي الجلسة العاشرة ألقى الدكتور شوقي ضيف محاضرة تحت عنوان : عالمية الاسلام . وفي الجلسة الحادية عشرة نظروا في مصطلحات الهندسة واعمال لجنة الالفاظ والاساليب . ثم ألقى د . محمد يوسف الحسن بحثاً « دفاعاً عن التعريب في اللغة العربية العلمية » والاستاذ علي رجب المدني بحثاً « العربية ميراث انساني على العرب ان يقدموه للعالم ليمكنوه من تعلمها واستيعاب بلاغة ماكتب بها » . وفي الجلسة الثانية عشرة ألقى الدكتور كمال محمد بشر محاضرة تحت عنوان : النحو ليس الإعراب والإعراب ليس

النحو . وفي الجلسة الثالثة عشرة نظروا في مصطلحات الرياضيات والتاريخ والاثار والنقش . اما البحوث فكانت : الاعلام الجغرافية في الشعر الجاهلي للدكتور يحيى جبر ، و « اللغة العربية في الجزائر اثناء الاحتلال الفرنسي » للدكتور ابو القاسم سعد الله . وفي الجلسة الرابعة عشرة نظروا في نموذج من المعجم الكبير ، ثم ألقى د . محمود مكي بحثاً عن (البرتغال وماضيه العربي الاسلامي) و د . عبد الرحمن الحاج صالح بحثاً « أقائم اخواك ؟ وطريقة تفسيره عند سيبيويه والرضي » و د . حسن عبد اللطيف الشافعي بحثاً عنوانه : (نحو علم للقواعد الاعتقادية الشرعية » . اما الجلسة الخامسة عشرة فكانت للقرارات والتوصيات وكلمة الختام .

- مؤتمر لتعريب العلوم :

نظمت جامعة الازهر مع الجمعية المصرية لتعريب العلوم المؤتمر السنوي الثاني لتعريب العلوم في اثناء يومي ٢٠ و ٢١ آذار ١٩٦٦ . ويهدف المؤتمر الى حل المعوقات وإبراز المنجزات الحالية وايضاح سبل اختراق الحواجز .

● - فهرس المخطوطات :

- فهرس مخطوطات جامعة الاسكندرية :

صدر عن معهد المخطوطات العربية « فهرس مخطوطات جامعة الاسكندرية » الذي أعده د . يوسف زيدان في جزأين . وضم وصفاً لـ ١٤٦٧ مخطوطة وبلغ عدد صفحات الجزء الاول ٤١٨ صفحة والجزء الثاني ٤٢٩ صفحة . وقد صنف المخطوطات في مجموعات وتعد مجموعة جعفر ولي باشا من نفس المجموعات الخطية في مصر وهي اهم مجموعة بالمكتبة وتحتوي على ٦٨٣ مجلدأ عربياً تشتمل على ٩٢٠ عنواناً عدا المصاحف والمخطوطات غير العربية .

- فهرس المخطوطات المصورة القسم الخامس (الادب) :

صدر عن معهد المخطوطات العربية هذا الفهرس ويتضمن القسم الخامس الذي اعده عصام محمد الشنطي المخطوطات المصورة المحفوظة في خزانة المعهد في فن الادب . والتي تبدأ عناوينها بحرف الصاد فما بعده . وذيل الفهرس بثلاثة اثبات : الاول لعناوين الرسائل المتداخلة ، والثاني لاسماء المؤلفين ، والثالث لاسماء النساخ . وقع الفهرس في ٢٢٧ صفحة من القطع المتوسط .

● - أخبار المحققين والباحثين :

- ديوان عثمان بكتاش الموصلي - جمع وتحقيق ودراسة ، نال عليه شهادة الدكتوراه السيد احمد حسين الساداني من جامعة

الموصل - كلية الاداب - وهو باشراف الاستاذ الدكتور عبد الوهاب العدواني .

- مرويّات النضر بن شميل اللغوية جمع وتحقيق ودراسة . نال عليها شهادة الدكتوراه السيد محمد سعيد حميد من جامعة الموصل - كلية الاداب . والرسالة باشراف الدكتور طالب عبد الرحمن .

- الاتساع في اللغة عند ابن جني ، رسالة دكتوراه تقدم بها السيد حسن سليمان الى جامعة الموصل - كلية الاداب ، وهي باشراف الاستاذ الدكتور محيي الدين توفيق .

- جهود الكرمانى اللغوية والنحوية في شرح صحيح البخاري ، رسالة دكتوراه تقدمت بها الى جامعة الموصل - كلية الاداب سهيلة طه محمد وبإشراف الاستاذ الدكتور كاسد ياسر الزبيدي .

- الدرس الصرفي في شروح الشافية - رسالة دكتوراه تقدمت بها سناء طاهر محمد الى جامعة الموصل - كلية الاداب وبإشراف الاستاذ الدكتور طارق عبد عون الجناي .

- كتاب الاحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب دراسة تحليلية في نصه الشعري ، رسالة دكتوراه تقدمت بها الى كلية الاداب بجامعة الموصل السيدة نزهة جعفر حسن وبإشراف الاستاذ الدكتور حازم عبد الله خضر .

- الدرس النحوي في الكتب التعليمية إبان القرن الرابع منهجه وتطبيقاته . رسالة تقدم بها السيد معن عبد القادر بشير الى كلية الاداب بجامعة الموصل ونال عليها شهادة الماجستير وكانت باشراف الدكتور عماد عبد يحيى .

- المنهج السالك الى مقاصد ألفية ابن مالك لمحمد أمين بن خير الله العمري الموصلي المتوفي سنة ١٢٠٣ - تحقيق ودراسة . انتهى من تحقيقها السيد عبد الجبار احمد صالح وسيقدمها الى كلية الاداب بجامعة الموصل لنيل شهادة الدكتوراه وهي باشراف الاستاذ الدكتور عبد الوهاب العدواني .

- ما أقره ابن مالك من الاساليب العربية الماثورة - دراسة نحوية نقدية . رسالة تعدها طالبة الدكتوراه هدى طاهر محمد وبإشراف الاستاذ الدكتور عبد الوهاب العدواني .

- الازهري مفسراً في تهذيب اللغة - رسالة ماجستير يعدها السيد ماهر جاسم وبإشراف الاستاذ الدكتور محيي الدين توفيق .

- جهود النووي اللغوية في شرح صحيح مسلم . رسالة ماجستير تعدها الطالبة زهراء خالد العبيدي وبإشراف الدكتور حازم سعيد يونس .

- الفوائد في اختصار المقاصد ، او القواعد الصغرى ، لسلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام السلمي ، انتهى من تحقيقه الاستاذ ايداد الطباع من مركز جمعة الماجد . وسبق لهذا الكتاب ان طبع ، وتزيد هذه الطبعة بمقدار الثلث عن النسخة

المطبوعة سابقاً ، كما انتهى من تحقيق مقاصد الرعاية لحقوق الله عزوجل (للعرّ أيضاً ، ويقوم أيضاً بتحقيق كتابين للعرّ هما الفتاوي المصرية والفتاوي الموصلية .

- المزهري في علوم اللغة للسيوطي (ت ٩١١ هـ) ، يقوم الدكتور رمضان عبد التواب وتلميذه الدكتور رجب عثمان بتحقيق (المزهري) وسيصدر الكتاب عن مؤسسة الخانجي للنشر بالقاهرة . ويعتمد المحققان على خمس نسخ خطية بعضها يعود الى عصر السيوطي نفسه . وجدير بالذكر ان الكتاب كان قد حققه : محمد احمد جاد المولى ، علي محمد البجاري ، محمد ابو الفضل ابراهيم ، وكان قد صدر عن دار احياء الكتب العربية القاهرة . وطبعة الرابعة كانت سنة ١٩٥٨ .

- انشاد الصوال وارشاد السؤال ، لابي عبد الله بن هانئ اللخمي السبتي (ت ٧٣٣ هـ) يعمل على تحقيقها د . عبد الكريم عوفي في معهد اللغة العربية وآدابها بجامعة باتنة - الجزائر . والمخطوطة اختصار لـ (المدخل الى تقويم اللسان وتعليم البيان لابن هشام اللخمي) (ت ٥٥٧ هـ) .

- تلطيف المزاج من شعر ابن الحجاج . وهو الشاعر الحسين بن احمد بن محمد بن جعفر ابو عبد الله النيلي البغدادي (ت ٣٩١ هـ) ، انجز تحقيقها نجم عبد الله مصطفى وهي تحتوي على ٦٧٧٣ بيتاً وعلى (٣٠٥) مقطوعات في (١٧) غرضاً شعرياً .

- شرح لامية العرب لابي زكريا يحيى بن علي المعروف بالخطيب التبريزي (ت ٥٠٢ هـ) انجز تحقيقها الدكتور محمود محمد العامودي وقد اعتمد على نسخة خطية ، وصفها بأنها وحيدة وهي محفوظة ضمن مجموعة في مكتبة برلين .

- كما انجز الدكتور العامودي بحثاً عن (عقيل بن علفة المري) جمع فيه شعره وشرحه وحققه .

- التبيين لبديعة البيان ، لابن ناصر الدمشقي ، انتهى من تحقيقها السيد محيي الدين علي نجيب ، وقد اعتمد المحقق على نسخة محفوظة في المتحف البريطاني . والتبيان شرح لمنظومة في طبقات الحفاظ للمؤلف نفسه .

- ذخائر العقبي في مناقب ذوي القربى ، لمحب الدين احمد بن عبد الله بن محمد الطبري (ت ٦٩٤ هـ) حققه فريدريك باودن (بلجيكي) لنيل درجة الدكتوراه .

- إسفار كتاب الفصيح ، لابي سهل محمد بن علي الهروي (ت ٤٣٣ هـ) حققته ندى محمد كمال لنيل درجة الماجستير .

- ضياء الدين بن الاثير : دراسة في تراثه النقدي ، دراسة اعدها عرفة حلمي عباس لنيل درجة الدكتوراه باشراف الدكتور شوقي ضيف ، تهدف الدراسة الى الكشف عن الخصائص المميزة لنثر ابن الاثير من ناحية ، وكذلك عن نظريته النقدية في الكتابة

بجامعة الموصل لنيل درجة الماجستير بإشراف د. د. عبد الوهاب العدوانى .

- رمزية الانثى في الشعر الجاهلي . رسالة دكتوراه اعدّها مصطفى حسن حداد وبإشراف الدكتور محمود علي مكي . اتبع الباحث منهج النقد النماذجي او الاسطوري ، وقد درس تشكّل رموز الانثى في النص الواحد وصلة هذا التشكّل بنصوص أخرى في محاولة للوصول الى ثوابت بنائية نمطية تجتمع عليها نصوص الشعر العربي قبل الاسلام التي تشكّل في مجموعها نصاً نموذجياً .

- قضايا معاصرة في نقد عبد القاهر الجرجاني . رسالة دكتوراه في النقد العربي القديم للسيد ناصيف محمد ناصيف بإشراف الدكتور محمد زكي العشماوي في كلية الاداب بجامعة الاسكندرية .

- كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، لتقي الدين احمد بن علي بن عبد القادر المقرئ (ت ٨٤٥ هـ) حققه د . ايمن فؤاد سيد ، وصدر عن مؤسسة الفرقان للتراث الاسلامي - لندن .

- نزهة الجلساء في اشعار النساء ، لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) حققه محمود حكلا ومحمد حكلا . اعتمد المحققان مخطوطة دار الكتب الظاهرية بدمشق واستفادوا من طبعة د . صلاح الدين المنجد الصادرة عام ١٩٥٨ . ومن طبعة عبد اللطيف عاشور . قدم الكتاب د . عبد الاله نبهان وصدر في ١٢٧ صفحة في مدينة حمص .

النثرية من ناحية أخرى .

- تحقيق ودراسة المقالات الثانية حتى السادسة في الهندسة المستوية في كتاب : في حل شكوك كتاب اقليدس في الاصول وشرح معانيه لابن الهيثم . رسالة دكتوراه في العلوم الاساسية للسيد فؤاد عويلة بإشراف د . سامي شلهوب .

- قبيلة خولان بن عمرو ودورها في تاريخ العرب قبل الاسلام . رسالة دكتوراه للسيد شاكر مجيد كاظم بإشراف الاستاذ الدكتور منذر عبد الكريم استاذ تاريخ العرب قبل الاسلام في كلية الاداب بجامعة البصرة .

- الرئي في العراق في العصر الاموي . رسالة ماجستير تقدمت بها مها الشعار إلى معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب ، اشرف على الرسالة د . محمود فيصل الرفاعي .

- علم الضوء عند ابن الهيثم . رسالة ماجستير في تاريخ العلوم الاساسية لبتينة جلخي وبإشراف د . سامي شلهوب .

- السهيلي مفسراً ، رسالة جامعية أنجزها بنيونس الزاكي في وجدة - بالمغرب

- شرح التسهيل ، للشيخ خالد الازهري ، أنجز -نجري عبد الراضي عبد اللطيف تحقيق ودراسة الجزء الاول من شرح التسهيل ، وقد اشرف على عمله الدكتور فايز زكي دياب . وهو مقدم الى كلية اللغة العربية بجامعة الازهر للحصول على درجة الدكتوراه في اللغويات .

- المشترك اللفظي في القرآن الكريم - دراسة دلالية في متن كتاب الفيروز ابادي بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز . رسالة تقدم بها عبد الرحمن عزيز الى كلية التربية



صدر حديثاً

عن دار الشؤون الثقافية العامة

المحتوى

■ من المحدث ٢ -

■ الولادتان (رئيس التحرير) ٣ -

البحوث والدراسات

■ الرمزية في موضوعات القصيدة العربية قبل الاسلام (د . بهجت عبد الغفور الحديثي) ٤ - ١٣

■ نظرة في تراث العرب الجغرافي (د . عباس فاضل السعدي) ١٤ - ٢٧

■ الشعر وثورة العشرين (عبد الرحمن حميد ثامر الكبيسي) ٢٨ - ٣١

■ المكاتبات الرسمية الاندلسية في عهد الموحدين (د . محمد مجيد السعيد) ٣٢ - ٤٧

■ الجهاد في خطابة صدر الاسلام (ناهي العبيدي) ٤٨ - ٧٠

■ لغة الشعر عند ابي تمام (د . نعمة رحيم العزاوي) ٧١ - ٩٢

النصوص المحققة

■ - الزهر اليانع على قول صاحب القاموس في الديباجة بلا مانع (تحقيق د . هاشم طه شلاش) ٩٣ - ١٠٠

قراءة في نص قديم

■ - نص جميل بثينة (قراءة د . عبد الكريم راضي جعفر) ١٠١ - ١٠٥

الفهارس والبيبليوغرافيا

■ - فهرس المخطوطات الطبية في خزائن المكتبات في الموصل - القسم الاول (- هدى شوكة بنهام) ١٠٦ - ١٢١

■ - اخبار التراث والمحققين (اعداد د . عماد عبد يحيى) ١٢٢ - ١٢٦

حار الشؤون الثقافية العامة

صدر عن



AL-MAWRID

BIANNUAL JOURNAL OF CULTURE AND HERITAGE

ISSUED BY THE HOUSE OF PUBLIC CULTURAL AFFAIRS

THE MINISTRY OF CULTURE AND INFORMATION

volume 25 - Number -2 -1997
